الدكتورة
أمينة بيطار

تاريخ
العصر الأيوبي

حقوق التأليف والطبع والنشر محفوظة لجامعة دمشق

١٤٠١ - ١٤٠٢ هـ
١٩٨١ - ١٩٨٢ م

دار الطباعة الحديثة - دمشق

الدكتورة
أمينة بيطار

تاريخ
العصر الأيّوبي

حقوق التأليف والطبع والنشر محفوظة لجامعة دمشق

دار الطباعة الحديثة - دمشق

١٤٠١ - ١٤٠٢ هـ

١٩٨١ - ١٩٨٢ م

المقدمـــة

يعتبر تاريخ الأيوبيين من التواريخ الهامة بالنسبة للعالمين العربي والاسلامي • فقد واجهت هذه الدولة منذ تأسيسها الحركة الصليبية في أوجها • إذ كان الصليبيون قد استقروا في بلاد الشام ، وأسسوا إماراتهم التي امتدت على طول الساحل الشامي • وما لبث هؤلاء أن قرروا احتلال مصر لتثبيت نفوذهم في الشام ، وأخذت حملاتهم البحرية تطرق سواحل مصر وتهددها • وكثيرا ما رافقت هذه الحملات البحرية زحف الجيوش البرية عبر فلسطين الى سيناء فمصر•

وقع عبء قتال الصليبيين والقضاء على هجماتهم الشرسة في كثير من الأحيان على عاتق الأيوبيين • وقد نهض صلاح الدين الأيوبي مؤسس هذه الدولة بواجبه على خير ما يرام • وتمكن من استرداد مناطق واسعة في بلاد الشام ،وقلص نفوذ إمارة انطاكيه الى حد كبير • وكذلك فعل في إمارة طرابلس • وتمكن من القضاء النهائي تقريبا على إمارة بيت المقدس ، التي حرمت من مركزها الأول في مدينة القدس ، ورضيت بمدينة عكا كمركز لها ،بعد أن عجزت جيوش الصليبيين من احتلال بيت المقدس ثانية • فأصبحت الامارة لا تتناسب مع اسمها •

وجاء خلفاء صلاح الدين بعده ، فلم يستطيعوا ان يحملوا الأمانة كما يجب ، وأخذ بعضهم يستنجد بالصليبيين ضد أقربائه في سبيل تحقيق منافع شخصية • ووقع العداء والاقتتال بينهم ،فكان بأسهم بينهم شديدا • مما مدّ في عمر الاحتلال الصليبي لسواحل الشام فترة أخرى ، حتى كان عهد المماليك الذين تمكنوا من القضاء النهائي على الصليبيين •

لم يكن الجهاد المقدس هو أهم ما يميز تاريخ الأيوبيين • فقد برزت جهودهم في مجال التعليم وفتح المدارس المتعددة التي عمرت بها بلاد الشام ومصر• فساعدت على تكوين طبقة متعلمة ضمت بين جوانحها الرجال والنساء ، وتقدمت العلوم الدينية والتاريخية

وغيرها من دون العلوم العقلية والفلسفية • وأصبحت مدن الشام ومصر حيث امتدت الدولة الأيوبية منطقة تعج بالمدارس على اختلاف أنواعها •

كما امتازت هذه الفترة بتوطد الجيش الاقطاعي ، الذى ظهرت خدماته في الحروب التي خاضها صلاح الدين بالدرجة الأولى ومع خلفائه بالدرجة الثانية • كما امتازت بنشاط البحرية ودعمها للجيوش البرية ، وإن كان الجيش البحرى قد فقد نشاطه وأهميته في نهاية هذا العصر• ويضاف الى ذلك أهمية هذه الفترة من الناحية الفنية والعمرانية ، وما امتازت به من مميزات اجتماعية انفردت بها •

وبذلك يمكن القول أن هذه الفترة غنية بمادتها العلمية ، عسكرية واستراتيجية وعمرانية وتعليمية • ويحتاج المؤلف والمؤرخ اذا اراد التفصيل في ذلك الى مجلدات كثيرة • وعلى الرغم من ذلك فانني لم أستطع أن أتجاوز عدد الصفحات المخصصة لتدريس هذه المادة ، والتي خصص لها ساعة درسية اسبوعية واحدة ، ذلك ان الموضوع جزء من مادة تاريخ الأيوبيين والمماليك التي خصص لها ثلاث ساعات درسية وزعت بين جزئي المادة • فكان نصيب تاريخ الأيوبيين الحافل بالأحداث ساعة واحدة • وقد فرض عليّ ذلك اختصار المادة لتتناسب مع الوقت المخصص لها • وجهدت على أن لا يكون هذا الاختصار مخلا بالمادة العلمية • فحاولت قدر جهدى رسم الخطوط العريضة لأهم الأحداث بما يتفق مع مفردات منهاج المقرر • وقد استخدمت من أجل ذلك أهم المصادر والمراجع العامة والمتخصصة المتوفرة •

وبعد فاني أرجو أن أكون قد وفقت بما بذلت من جهد لإخراج هذا البحث على وجه مرض • وان كان فيه ما يقصر عن الهدف ، فأرجو أن يكون في محاولاتي القادمة ما يعوضه ، والله ولي التوفيق •

د • أمينة البيطار

مفردات مقرر تاريخ العصر الأيوبي

١ - الأوضاع العامة للخلافتين العباسية والفاطمية قبيل ظهـور الدولة الأيوبية .

٢ - الحملة الصليبية الأولى وتأسيس الامارات الأربع .

٣ - الزنكيون وتوحيد مصر والشام .

٤ - موقف الزنكيين من الصليبيين .

٥ - دور الزنكيين في تاريخ بلاد الشام والتاريخ العربي الاسلامي .

٦ - الأيوبيون أصلهم قيام السلطنة الأيوبية ، علاقتهم بالزنكيين .

٧ - توحيد مصر والشام على يد صلاح الدين .

٨ - صلاح الدين والمعارك الكبرى مع الصليبيين .

٩ - النكسة بعد النصر والحملة الصليبية الثالثة .

١٠ - خلفاء صلاح الدين ٥٨٩ـ٦٣٥هـ/١١٩٣ـ١٢٣٨م .

١١ - ضعف موقف الأيوبيين أمام الصيبيين .

١٢ - قيام سلطنة المماليك وموقف الأيوبيين منها .

١٣ - دور الايوبيين الحضارى في تاريخ بلاد الشام ومصر والتاريخ العربي الاسلامي .

- - -

الفصـل الأول

الحملة الصليبية الأولى ، وتأسيس الإمارات الأربع

تمهيد : الأوضاع العامة في العالم العربي الاسلامي ، قبل وصول الحملـة الصليبية الأولى

١ ـ الخلافة العباسية

٢ ـ السلاجقة

٣ ـ تمزق بلاد الشام بين السلاجقة والفاطميين

٤ ـ الخلافة الفاطمية

٥ ـ الأوضاع العامة في آسية الصغرى

طابع الحملات الصليبية وأسبابها

الحملة الصليبية الأولى

١ ـ بنية الحملة

٢ ـ تأسيس الإمارات الأربع

أ ـ إمارة الرها (٤٩١ـ ٥٣٩ هـ)

ب ـ إمارة انطاكية (٤٩١ـ ٦٦٦هـ)

حـ ـ إمارة بيت المقدس(٤٩٣ـ ٥٨٣هـ)

د ـ إمارة طرابلس (٥٠٣ـ ٦٨٨هـ)

ـ ـ ـ

الفصل الأول

الحملة الصليبية الأولى ، وتأسيس الإمارات الأربع

تمهيد : الأوضاع العامة في العالم العربي الاسلامي قبل الحملة الصليبية الأولى .

كانت اراضي الخلافة العربية الاسلامية في نهاية القرن الخامس ومطلع القرن السادس الهجريين تخضع لقوى متعددة متنافرة ، وقع بينها الخلاف ، وعملت كل منها على التوسع على حساب الأخرى ، وعلى رأس هذه القوى :

١ ـ الخلافة العباسية

وكان خلفاؤها قد قبعوا في مدينة بغداد ، ورضوا من الحكم بالاسم بعد ان خرجت عن سلطتهم غالبية اراضي الخلافة العربية الاسلامية . ولم يعد يتبع لهم إلا بغداد وما يحيط بها . والأمر والقول الفصل حتى في هذه البقعة ـ للسلاجقة سلاطين بغداد .

٢ ـ السلاجقة

وقد توسعت سلطتهم تدريجيا حتى شملت أغلب مناطق الخلافة العباسية الشرقية ، ونهضوا في عهد سلاطينهم طغرل بك ، وألب أرسلان ، وملكشاه بحماية أراضي الخلافة العربية الاسلامية ،وأثبتوا أنهم سيوف الاسلام الزائدون عنه . فقد نهضوا للوقوف في وجه البيزنطيين ، وتوسعوا غربا على حسابهم . وتوج ألب أرسلان نضاله مع

البيزنطيين بمعركة مناذكرد [١] ، تلك المعركة التي كانت آثارها كبيرة على الصعيد المحلي والدولي • فعلى صعيد المنطقة فانها فتحت ابواب آسية الصغرى أمام السلاجقة ، ودحرت القوات البيزنطية باتجاه الغرب ، وفسحت الفرصة للسلاجقة بتأسيس دولة سلاجقة الروم •

وعلى الصعيد الآخر ، فان هذه المعركة كانت سببا من اسباب توحيد اوربا الشرقية والغربية ضد المشرق العربي الاسلامي ، اثر استنجاد أباطرة القسطنطينية بالبابوية لرد خطر السلاجقة الذين اخذوا في اجتياح ممتلكاتهم •

ولم تستمر قوة السلاجقة بالصعود ، فقد أخذت قوتهم بالانحلال اثر وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢ـ ١٠٩٢م ، وانقسموا على انفسهم ، ووقعت الحروب بينهم • وقد تجلى ذلك بوضوح في الصراع الحاد على العرش بين ابناء ملكشاه واخيه تتش صاحب دمشق • وأسفر هذا النزاع

---

١ ـ عن معركة مناذكرد انظر : ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، دار صادر للطباعة والنشر بيروت ١٩٦٦م ، جزء ١٠ ، ص ٦٥ـ٦٨

ـ الراوندي : راحة الصدور واية السرور ، نشر وتصحيح محمد اقبال ، طبع ليدن ١٩٢١م ص ١١٨ وما بعدها •

ـ اسد رستم : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، دار المكشوف بيروت ، ١٩٥٦م ، جزء ٢ ، ص ١١٠ ـ ١١١ •

ـ زكار : مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، مؤسسة الرسالة ط ١ ، ١٩٧٢م ، ص ١٢٨ وما بعدها •

ـ عاشور : اوربا في العصور الوسطى التاريخ السياسي ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط ٦ ، ١٩٧٥ ، جزء ١ ، ص ٣٤٦ وما بعدها ـ الحركة الصليبية : مكتبة الانجلو المصرية ، ط ٢ ، ١٩٧١م ، جزء ١ ، ص ٨٨ وما بعدها •

ـ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية : نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت ١٩٦٧م ، ص ٩٦ وما بعدها

الذي دام ما يزيد عن سنتين عن انتصار بركياروق بن ملكشاه وتسلمه لعرش السلطنة السلجوقية [١] . واذا كان النزاع حول العرش قد انتهى ، فان اثاره لم تنته . فقد ذهبت وحدة السلاجقة وتماسكهم ، واصبحوا شيعا وأحزابا ومعسكرات متباينة تتصارع فيما بينها . وانقسمت دولتهم الى خمس ممالك متنازعة ، مملكة خراسان وما وراء النهر وعلى رأسها سنجر ، ومملكة حلب وعلى رأسها رضوان بن تتش . ومملكة دمشق وعلى رأسها دقاق بن تتش . وأخيرا سلطنة سلاجقة الروم وعلى رأسها قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش [٢] . وفقد السلاجقة بذلك حماسهم المتدفق للتوسع الخارجي ، ومحاولة بسط نفوذهم على أقاليم جديدة ،وصار باسهم بينهم شديدا ، فبدأوا يتناحرون ، واصبح الظفر بالعرش هدفا في ذاته ، وقلدهم وزراؤهم وقوادهم فتنافسوا وتناحروا للظفر بالوزارة او القيادة . فاخذت الدولة السلجوقية تضعف منذ ذلك الحين ، واخذ نجمها يفقد بريقه حتى أفل في النهاية [٣] .

وقد استغلت القوى المحيطة تحطيم قوة البيت السلجوقي بانقسامه على نفسه لصالحها . فعمل الخليفة العباسي في بغداد على تحرير نفسه من سيطرة السلاجقة ، كما استقلت قبيلة بني مزيد العربية عنهم ، واسست امارة بني

---

١ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢١٤
ـ الراوندى : المصدر السابق ، ص ١٤٢ ـ ١٤٣

٢ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢٦٥ و ص ٢٦٧ ـ ٢٦٩
ـ سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ١ ، ص ١١٣ ـ ١١٤

٣ ـ عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ م ، ص ٩٠

مزيد في الحلة [١] . واخذت قوة السلاجقة في الشام تنحسر سريعـــا للخلاف بين ولدى تتش ، رضوان صاحب حلب (٤٨٨ـ٥٠٧هـ/ ١٠٩٥ ـ ١١١٣م) ، ودقاق صاحب دمشق (٤٨٨ـ٥٠٨هـ/١٠٩٥ـ ١١١٤م). اذ اراد كل منهما ان يستأثر بملك أبيه وجده ، وعمل على ضم الانصار اليـه لقتال أخيه . فتحالف رضوان مع قبيلة كلاب العربية ، ومع صاحب مدينــة سروج سكمان الارتقي ، وتحالف دقاق مع الغازي الارتقي وصاحب انطاكية الذى ما لبث ان تحول الى جانب رضوان . وجرت الاستعدادات لمهاجمــة دمشق . وبينما الحال على ذلك ، جاءت الانباء بقدوم الصليبيين ، فتفـرق المتنازعون ، وتوجه كل منهم الى امارته لحمايتها من الصليبيين [٢] .

ولعل اكبر مظهر لانحلال سلطان السلاجقة في بلاد الشام والعـراق وغيرها ، ظهور عدد كبير من البيوت الحاكمة لا تجمعها رابطة الا الاتصـال بالبيت السلجوقي . ومن تلك البيوت ظهرت وحدات سياسية اطلق عليهـا اسم الاتابكيات ، وعلى اصحابها اسم الاتابكة [٣] . وبعض هذه الوحدات صغير جدا لا يتعدى اسوار مدينة او قلعة واحدة . وقد تعاظم دور الاتابكة لانهم عدة كل سلطان او مدع للسلطة ، واساس قوته في صراعه مع الآخرين .

---

١ ـ قامت دولة بني مزيد الشيعية على الضفة الغربية لنهر الفرات من هيت الى الكوفة وواسط . وصارت هذه الامارة خطرا هدد الاتراك السلاجقة وحال دون استمرار سيطرتهم في مناطق واسعة من العراق . انظر عاشـــور : الحركة الصليبية ، جزء ١ ، ص ١١٤ـ ١١٥ـ بيطار : موقف أمراء العرب في الشام والعراق من الفاطميين حتى اواخر القرن الخامس الهجرى ، ط دار دمشق ١٩٨٠ ، ص ٣٥٧ وما بعدها .

٢ ـ الباز العريني : مصر في عصر الايوبيين ، مطبعة الكيلاني الصغير ١٩٦٠م ، ص ٥ ـ ٦

٣ ـ الاتابك لفظ تركي مكون من اتا اى الاب المربي ، وبك اى الامير . ومعنى ذلك انه مربي الامير او الملك . فكان آل سلجوق اذا امتاز احد قادتهم وارادوا تشريفه اضفوا عليه هذا اللقب امعانا في تكريمه : انظر عاشور : الحركة الصليبية جزء ١ ، ص ١١٥ـ١١٦ . وقد ورد في كتاب صبح الاعشى للقلقشندى الطبعـة الاميرية ، جزء ٤ ، ص ١٨ ، ان اتابك معناه الوالد الامير .

فلم يلبثوا ان عملوا لمصلحتهم الخاصة تحت ستار الحفاظ على مصلحة الامير السلجوقي الذى يربونه والدفاع عن حقوقه في حكم بلد او سلطنة . وعندما يتحقق لهم ذلك يمارسون الحكم الفعلي باسمه ، ثم يحلون محله رسميا ويورثون الحكم لابنائهم . ومن اظهر تلك الاتابكيات اتابكية دمشق ومؤسسها ظهير الدين طغتكين والتي استمرت من سنة ٤٩٨هـ - ٥٤٩هـ/١١٠٤ - ١١٥٤م . واتابكية الموصل بزعامة عماد الدين زنكي ، والتي استمرت من سنة (٥٢١ الى سنة ٦٦١هـ/١١٢٧ - ١٢٦٢م) . وقد امتد نفوذ هذه الاتابكية من شمال العراق الى شمال الشام . وكان في نية عماد الدين زنكي ضم اتابكية دمشق الى املاكه . الا انه ما لبث ان قتل فجاة سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م بعد سنتين من استيلائه على امارة الرها من الصليبيين . وقد تحقق حلمه على يد ابنه نورالدين زنكي (١) الذى حمل الامانة واستولى على دمشق سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤ - ١١٥٥م ، ومن ثم اخذ يتطلع الى مصر لتوحيدها مع بلاد الشام ، ولينهض بهذه الجبهة الموحدة لمهاجمة الصليبيين وتحرير بلاد الشام منهم .

٣ - تمزق بلاد الشام بين السلاجقة والفاطميين

عاشت بلاد الشام اثر دخول دولة السلاجقة مرحلة الضعف والتجزئة، فترة مظلمة من حياتها . واصبحت موزعة بين قوى متعددة . ومما زاد التمزق ان السلاجقة حتى في ايام قوتهم لم يحكموا اكثر بلاد الشام حكما مباشرا ، بل قبلوا بوجود أسر محلية قدمت لهم الولاء . فقد تركوا حكم حلب في بداية الامر الى بني مرداس[٢] ، وحكم طرابلس الى بني عمار ، وشيزر الى بني منقذ .

---

١ - انظر فيما بعد

٢ - انظر بيطار : المرجع السابق ، ص ٢٤٧ و ص ٢٨٦ ، وما بعدها

وقد كان ولاة السلاجقة او مقطعيهم في بلاد الشام على خلاف فيما بينهم الى حد الاقتتال احيانا ٠

وقد توحدت غالبية بلاد الشام تحت حكم تاج الدولة تتش لسنوات قليلة [١] ، توفي بعدها تتش ليعود الصراع بين ولديه اللذين خلفاه في حكم حلب ودمشق ٠ وقد تنافس الاخوان بسبب مطامع كل منهما باملاك الاخر في الوقت الذى تواترت فيه الاخبار بظهور عساكر الافرنج من بحر القسطنطينية [٢] ٠

اقطع تتش السلجوقي فلسطين لقائده التركماني أرتق الذى خلفه سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩٩م ولداه سقمان (سكمان) وايلغازى (ايل غازى) [٣] ٠ وقد استغل الفاطميون انشغال السلاجقة بالغزو الصليبي ٠ فخرج من مصر جيش فاطمي تحت قيادة الوزير الافضل بن بدر الجمالي لمحاصرة بيت المقدس وفتحه لصالحهم ٠ فاضطر الارانقة حكامه في تلك الآونة الى الانسحاب في شوال ٤٩١هـ/ آب ١٠٩٨م [٤] ٠ ولم تلبث بقية فلسطين ان سقطت بعد ذلك في ايدى الفاطميين ٠ ولم يكتف الفاطميون بذلك ، بل ارادوا استغلال الاوضاع الى حد اكبر ، وعملوا على مد نفوذهم الى حلب ٠

---

١ ــ ابوالمحاسن بن تغرى بردى الاتابكي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ،طبعة دار الكتب جزء ٥ ، ص ٨٧

٢ ــ ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ، وزارة الثقافة ١٩٧٨م تحقيق عبارة ، جزء ٣ قسم اول ص ٤٠٢ ــ ٤٠٣ ، زكار : المرجع السابق ص ٢٣١ وما بعدها ٠

٣ ــ عن الارانقة انظر ابن شداد : المصدر السابق ، جزء ٣ قسم ٢ ص ٤٢٨ ــ ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ١٤٠ ٠
ــ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ص ٢٨٢ ــ ٢٨٣

٤ ــ كان بيت المقدس تابعا للفاطميين حتى استعاده اتسز التركماني باسم السلطان الب ارسلان سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م انظر ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، طبعة الاباء اليسوعيين ١٩٠٨م ص ٢٣٥ ــ المقريزى : اتعاظ الحنفا باخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، طبعة المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، جزء ٣ ص ٢٢

فارسلوا الى رضوان ملك حلب يدعونه الى الطاعة وإقامة الدعوة ، مقابل مده بالمساعدة ضد خصومه . فاستجاب رضوان لذلك بضعة اسابيع ، وتقدم بالدعوة للفاطميين على سائر منابر الشام التي في يده ، ثم أعاد الدعوة للخليفة المستظهر العباسي (١) .

لم يقتصر التمزق في بلاد الشام على المجال السياسي ، بل تعداه الى النطاق المذهبي . فبينما كان اهالي دمشق من السنة ، سيطر الشيعة الاثناعشرية على حلب كما تعددت الشيع وتنافرت المذاهب خارج هاتين المدينتين . فقد ظهرت فرقة الدروز الذين الهوا الخليفة الحاكم ، ونشط النزارية أتباع الحسن بن الصباح وبسطوا سلطانهم على عدد من الحصون والقلاع .

٤ - الخلافة الفاطمية

كان للفاطميين اثر كبير في أحداث المنطقة في تلك الفترة ، لتنازعها مع الخلافة العباسية على زعامة العالم العربي الاسلامي . ولكن قوة الفاطميين اخذت بالانحسار تدريجيا عن بلاد الشام بفضل جهود السلاجقة ،حيث تمكن قائدهم اتسز التركماني من فتحها حتى دمشق في ذي القعدة سنة ٤٦٨هـ/ حزيران ١٠٧٦م . وقد تطلع اتسز الى فتح مصر كلها ، ووصل الى اطرافها ، ولكنه فشل في تحقيق اهدافه (٢) . وتتالت خسائر الفاطميين لاملاكهم في بلاد الشام ،حتى لم يبق لهم بها الا المناطق الساحلية من جبيل حتى الجنوب (٣) .

---

١ - عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ص ١١٦-١١٧

٢ - بيطار : المرجع السابق ، ص ١٥٠ وص ١٦٢

٣ - عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١١٦- ١١٧

كان الفاطميون اثر وصول الحملات الصليبية يمرون في دور ضعف تعود عوامله الى ما يلي :

- تعدد الاجناس المكونة للجيش الفاطمي ، وما كان يقوم بين هذه العناصر من صراع بعضها ضد البعض الآخر ، فقد تكون من المغاربة والاتراك والسودانيين .

- تولى خلفاء الفاطميين في الفترة الثانية من حكمهم وهم صغار في السن . فاستبد الوزراء بالحكم من دونهم ، حتى عرف العصر الفاطمي الثاني بعصر الوزراء العظام واصبح منصب الوزارة في هذه الفترة محط اطماع كبار رجال الدولة وقادة الجيوش ، فنشبت صراعات دامية ، ادت الى ضعف الدولة (١) .

- تعرض الاقتصاد في مصر الى هزات عنيفة نتيجة انخفاض النيل مرات عديدة ، وصحب ذلك مجاعات واوبئة ادت الى ضعف الأوضاع العامة (٢) .

- حدث انشقاق عقائدي بين صفوف الفاطميين اثر وفاة الخليفة المستنصر بالله سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤م . وقام الوزير الافضل بن بدر الجمالي يتجاوز خليفته نزار ، ويولي ابنه الآخر باسم المستعلي (٣) فانشق عدد كبير من الدعاة برز منهم الحسن بن الصباح الذي تراس دعوة جديدة لنزار عرف اصحابها فيما بعد بالحشاشين (٤) .

---

١ — الشيال : مصر الاسلامية ، دار المعارف ١٩٦٧ ، جزء ٢ ، ص ١٣

٢ — المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جزء ٢ ، ص ٣٣٢ — اغاثة الامة بكشف الغمة ، نشر زيادة والشيال ، طبعة ثانية ١٩٥٧م ، ص ٢٤ وما بعدها وص ٢٨
— راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية زمن الفاطميين ، طبعة اولى القاهرة ١٩٤٨م ، ص ٨٥ وما بعدها

٣ — كان المستعلي ابن اخت الافضل بن بدر الجمالي

٤ — انظر حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ، طبعة ثالثة ١٩٦٤م ، مكتبة النهضة المصرية ، ٣٥٤ — ٣٧١

٥ - الاوضاع العامة في آسية الصغرى

والى جانب القوى العربية الاسلامية هذه ، فقد كانت هناك منطقة اسية الصغرى التي كان يحسب حسابها . لقد كانت هذه المنطقة بكاملها قبل القرن الخامس الهجري من املاك الامبراطورية البيزنطية ، وكانت مناطق الحدود ساحة قتال دائمة بين العرب المسلمين والبيزنطيين ، حتى كان عهد السلاجقة وانتصار ألب ارسلان السلجوقي على الامبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينس في معركة منازكرد سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م . وأخذ السلاجقة بالاستيلاء على اسية الصغرى ، وأصبحوا يحدقون بالقسطنطينية عاصمة البيزنطيين ، ولم يبق للامبراطورية البيزنطية اثر قيام الحروب الصليبية سوى سواحل البحر الاسود والمضائق وبعض المدن الداخلية المتناثرة التي انقطعت صلتها بالحكومة المركزية . ولم يوحد السلاجقة هذه المناطق التي تبعت لهم باسية الصغرى اذ خضعت بعض المدن لأمراء اعترف بعضهم بالسلطان السلجوقي في اسية الصغرى ، على حين اعلنت الاغلبية الولاء للسلطان ملكشاه السلجوقي في بغداد ، وبعد وفاته بدت امارة سلاجقة الروم اكثر انفصالا عن دولة سلاجقة المشرق .

والى جانب سلاجقة الروم والبيزنطيين في اسية الصغرى ، أقام الأرمن امارات عديدة ، اهمها امارة روبين في قليقية الوسطى ، وامارة اوشين في قليقية العربية ، وامارة فيلاريت التي امتدت من جبال طوروس الى ماوراء النهر.(1)

طابع الحملات الصليبية واسبابها :

في غمرة الصراع بين هذه القوى المتعددة ، واهتمام كل واحدة منها بأوضاعها الخاصة دون النظر الى مصلحة البلاد العربية الاسلامية ، نشبت

---

١ - الباز العريني : المرجع السابق ، ص ٧ - ٨

الحروب المعروفة في التاريخ باسم الحروب الصليبية . وهي الحروب التي شنتها اوربا الغربية المسيحية على بلاد الشام خاصة ، ومصر احيانا . وقد ارتدت هذه الحروب حلة الدين ، وحمل افرادها شارة الصليب ، وادعوا ان غايتهم انتزاع الاراضي المقدسة من أيدي المسلمين . وواقع الامر ان هذه الحروب كانت نتيجة لتفاعل عوامل متعددة دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية .

١ ـ الأسباب الدينية :

غلب على الحياة في العصور الوسطى طابع الدين ، حتى عرفت باسم عصور الايمان ، في الوقت الذي اضطرت ظروف الحياة الغالبية العظمى من الناس في اوربا الى الحياة بعيدا عن الأديرة وغيرها من انواع الحياة الدينية . وكان هذا الفريق يشعر بفراغ ديني كبير ، ووجدوا في الحروب الصليبية ، والدعوة لاستعادة الاماكن المقدسة ضالتهم المنشودة (١) .

٢ ـ الأسباب السياسية :

أ ـ عمل البابوات على توجيه الفرسان لقتال المسلمين بدلا من الانصراف الى الحروب الداخلية . وهذا السبب يمكن ان يقال ايضا عن الحروب التي نشبت بين المسلمين والمسيحيين في اسبانيا وجزر البحر المتوسط ، والذي اراد البابوات نقله الى العالم الاسلامي في الشرق ، مع العمل على الاستيلاء على الاراضي المقدسة .

ب ـ مطامع بعض الامراء والنبلاء الذين لم تسمح لهم الظروف

---

١ ـ سعيد عاشور : اوربا في العصور الوسطى ، جزء ١ ، ص ٤٢٨

بتأسيس امارات لهم في اوربا ، ورغبة اولئك الذين كانت لهم امارات بانشاء اخرى في المشرق ٠

ح — ازدياد نفوذ البابوية في القرن الخامس الهجرى /الحادى عشر الميلادى على الشرق وكنيسته ، اضافة الى خشية البابوية من النورمان الذين ازداد خطرهم على صقلية وجنوب ايطاليا ، فرأت في الحروب الصليبية فرصة لصرفهم عن ايطاليا وتوجيه نشاطهم نحو ميدان آخر بعيد ٠ (١)

د — ان الحروب الصليبية هي سلسلة من الصراع نشب بين المسلمين والمسيحيين بدأ منذ توسع المسلمون في حوض البحر المتوسط ٠ وحين حقق الفرنجة انتصارات على العرب المسلمين في اسبانيا ، واحتلوا الكثير من اراضيهم اعتبارا من اوائل القرن الخامس للهجرة/ الحادى عشر الميلادى ، وحدث الشيء نفسه في صقلية وجنوب ايطاليا حيث تمكن النورمانديون من تحطيم السيادة العربية هناك ، واحتلوا مواطيء قدم لهم على الطرف الافريقي في منطقة تونس ، كما احتلت احدى الدويلات الايطالية سردينيا من العرب ، فأصبحت مفاتيح الابحار في البحر المتوسط بأيديهم ، وثقوا بانفسهم وبامكانية النصر على العرب المسلمين في المشرق ٠ وخاصة وان زيادة الاحتكاك المباشر بين الطرفين بسبب التجارة والحج أدى الى زيادة الطمع فيه ٠

٣ — الاسباب الاقتصادية :

مطامع البعض في الحصول على منتجات الشرق ومتاجره وبشكل

---

١ — عاشور : اوربا في العصور الوسطى ، جزء ١ ، ص ٤٢٩

خاص المدن الايطالية مثل البندقية وجنوة وبيزا • ولن يتسنى لها ذلك الا اذا تمكنت من تأسيس متاجر ومستودعات تجارية في المنطقة •

٤ — الاسباب الاجتماعية :

أ — كانت الغالبية العظمى من الطبقات الدنيا في المجتمع الاوربي تحيا حياة ملؤها البؤس والشقاء في ظل النظام الاقطاعي • وانتشرت بينها الاوبئة والمجاعات• فكثير من الاراضي الزراعية تعرضت للخراب نتيجة لهجمات البرابرة • فقلت الاقوات في الوقت الذى ازدادت فيه اعداد السكان• ومما زاد السوء الحروب والمنازعات بين الامراء الاقطاعيين ، اضافة الى النكبات الطبيعية والاقتصادية التي عانى منها الغرب الاوربي حينذاك• فعاش الناس في المنطقة عيشة الفقر والحرمان والخوف • وقد دفعتهم هذه الاوضاع الى الاشتراك في الحروب الصليبية ، اذ لا داعي للخوف من الموت ومن حرب المسلمين وهم في حال اقرب الى الموت• فعوضا من ان يموت الرجل من الجوع في بلده محملا بما عساه ارتكبه من ذنوب في حياته• فان من الافضل ان يموت في حرب مقدسة ، مما يضمن له غفران ذنوبه ودخوله الجنة (١) •

ب — وجد الامراء والفرسان في الحروب الصليبية فرصة لاشباع روح المغامرة التي سيطرت على حياتهم الخاصة والعامة (٢) •

حـ — ان سيل المهاجرين الى الشرق حمل في طياته عددا كبيرا

---

١ — عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ١ ص ١٣٧

٢ — عاشور : اوربا في العصور الوسطى ، جزء ١ ، ص ٤٢٩

من المغامرين والدهماء والرهبان الهاربين من الأديرة والأقنان الآبقين من سادتهم (١) .

ـ الاسباب المباشرة

كانت معركة ملاذكرد الشرارة التي اشعلت اللهب . فمنذ هذه المعركة وأباطرة الدولة البيزنطية لا ينقطعون عن طلب النجدة العاجلة من البابوية ضد السلاجقة المسلمين . من ذلك ان الامبراطور ميخائيل السابع (٤٦٣ ـ ٤٧٢هـ/ ١٠٧١ ـ ١٠٧٩م) الح على البابا غريغوري السابع (٤٦٥ ـ ٤٧٨ هـ/١٠٧٣ ـ ١٠٨٥م) في ارسال نجدة سريعة لانقاذ الامبراطورية البيزنطية واراضيها في آسية الصغرى . ووعد ميخائيل بأن يرد الجميل للبابوية بالعمل على ازالة الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية (٢) . ولكن البابوية شغلت في هذا الدور بمشاكلها الداخلية ، مما جعل الامبراطورية البيزنطية تقف وحيدة امام خطر السلاجقة .

ونهض الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين (٤٧٤ ـ ٥١٢هـ/١٠٨١ ـ ١١١٨م) بمهمة الاستنجاد بالبابوية ثانية ، بعد ان لمس انه لا قدرة له على مواجهة السلاجقة . واخذ يدعو البابا اوربان الثاني (٤٨١ ـ ٤٩٣هـ /١٠٨٨ ـ ١٠٩٩م) لانقاذ المسيحية والمسيحيين وحماية الاماكن المقدسة (٣) .

كان البابا اوربان الثاني اصلح شخصية معاصرة لتنفيذ المشروع الصليبي . اذ كانت لديه الجرأة على الدعوة للحرب الصليبية ورعايتها . فضلا عما عرف

---

١ ـ الباز العريني : مصر في عهد الايوبيين ص ٩

٢ ـ عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ١٢٩

٣ ـ عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ١٣١ ـ ١٣٢

به من بعد النظر ، والمقدرة على اختيار الرجال وتوجيههم والتأثير عليهم • فعمل على المقاربة بين الكنيستين في تلك الفترة الحاسمة برفع قرار الحرمان الذى كان موقعا على الامبراطور البيزنطي (١) •

وفي مجمع كليرمونت الذى انعقد في ذي القعدة ٤٨٨هـ/تشرين الثاني نوفمبر١٠٩٥م برئاسة البابا اوربان الثاني ، وبحضور امراء من مختلف جهات اوربا وعدد كبير من رجال الدين ومندوبين عن الامبراطور البيزنطي وممثلين للمدن الايطالية ، استطاع البابا ان يثير حماس السامعين وان يدعو المسيحيين الى قتال المسلمين • فتجاوب في ارجاء المجمع هتاف بترديد عبارة ـ هكذا اراد الله ـ • وقد استقر الرأى على أن يحيك كل محارب صليبا من القماش الاحمر على ردائه الخارجي من ناحية الكتف رمزا للحركة التي اشترك فيها ، والفكرة التي خرج ليحارب من اجلها (٢) • وتحددت سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٧م موعدا لرحيل الصليبيين • وجعلت القسطنطينية مركزا لاجتماع قاتهم لترتيب خطة الهجوم على اسية الصغرى والشام (٣) • كما اصدر المجمع قرارا بان كل من يشترك في الحرب المقدسة تغفر له • فضلا عن أن ممتلكات الصليبيين ستوضع تحت حماية الكنيسة ورعايتها طوال مدة غيابهم • كما عزف البابا على وتر المصالح المادية عندما اشار الى الامكانيات التي توفرها اراضي الكفار ـ يقصد المسلمين ـ في المشرق للفرسان المسيحيين الفقراء • واخذ البابا ينتقل بين المدن والبلدان داعيا للحرب الصليبية ، فاستطاع ان يضم اليه امراء متعددين من مقاطعات فرنسا وان

---

١ ـ عاشور الحركة الصليبية ،جزء١ ص ١٣١

ـ اسد رستم : المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦

٢ ـ انظر عاشور : المرجع السابق ، جزء١ ص ١٣٤

ـ الباز العريني : المرجع السابق ، ص ١٠

٣ ـ الباز العريني : المرجع السابق ، ص ٩ ـ ١٠

يحصل على دعم جنوة للدعوة .

الحملة الصليبية الأولى

١ ـ بنية الحملة

تألفت الحملة الصليبية الاولى من قسمين ، ضم القسم الاول العامة ، على حين شمل القسم الثاني الامراء . كان رأس العامة بطرس الناسك (١) الى جانب زعيم آخر اسمه والتر ، جمعا عددا ضخما من الاتباع قدر بخمسة عشر الفاء اصطحب بعضهم نساءهم واطفالهم . واتخذوا جميعا طريق البر عبر هنغاريا ثم الاراضي البيزنطية . وقد قام هؤلاء بمذبحة رهيبة في هنغاريا قتل فيها حوالي اربعة الاف من المسيحيين الابرياء ، الى جانب سلب ونهب كل ما يصل الى ايديهم (٢) . فوصلوا في نهاية المطاف الى اسية الصغرى. وحين اصطدموا بالسلاجقة انهزموا هزيمة منكرة ، وانتهى امرهم كحملة منفردة (٣) .

اما الشطر الثاني من الحملة حملة الامراء ،فقد اعد اعدادا جيدا ،وتألف من مجموعات متعددة لكل منها طابعها المميز الذي لازمها منذ اول الأمر ، وميز نشاطها في الشرق . وبعبارة اخرى فان الروح الاقطاعية بدت واضحة في الشطر النظامي من الحملة الصليبية الاولى . اذ تولى زعامتها عدة امراء لكل منهم اتجاهاته وجنده ، وسياسته الخاصة . مما جعل تلك الحملة في حقيقة امرها عبارة عن عدة حملات ربما عملت احيانا في اتجاهات متعارضة(٤) .

---

١ ـ هو رجل متقدم في السن ، متحمس لقتال المسلمين . كان واسع التأثير في الجماهير لفصاحته وهيئته الغريبة وحماسه .

٢ ـ انظر رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ص١٨٣ ـ ١٨٤

٣ ـ عاشور :الحركة الصليبية ،جزء ١ ص١٣٥ ـ ١٤٠ ـ اسد رستم :المرجع السابق ،جزء ٢ ص ١٢٧ ـ ١٢٩

٤ ـ عاشور : المرجع السابق ،جزء ١ ص١٤٥ ـ آرنست باركر :الحروب الصليبية مكتبة النهضة المصرية ، ترجمة الباز العريني ص٣٢

مع ملاحظة ان المشتركين في هذه الحملة كانوا من القطاع اللاتيني في الامبراطورية الرومانية المقدسة • ولم يكن من القطاع الالماني سوى القليل •

الف المتجهون الى المشرق ثلاث مجموعات كبيرة ، ترأس الاولى غودفري بوايون وبرفقته اخوه بلدوين [1] • وهم من فرسان اللورين • وترأس الثانية بوهيموند وابن اخته تنكرد • وهم من النورمان • وترأس المجموعة الثالثة ريموند دي تولوز المعروف بالرابع من فرسان اقليم بروفنسال وبصحبته الاسقف اد همار ليكون مندوبا يمثل البابوية في زعامة الصليبيين في الشرق [2] الى جانب زعماء آخرين [3] • والتقت هذه الجموع الثلاثة في القسطنطينية ، وكان عددهم يتراوح بين ستين الفا ومائة الف [4] •

اقسم جميع زعماء الحملة الصليبية الاولى — باستثناء ريموند وتنكرد — يمين الولاء والتبعية للامبراطور البيزنطي الكسيوس كومينين ، وتعهدوا له برد كافة الممتلكات البيزنطية القديمة التي يستطيعون استردادها من السلاجقة ، من نيقية حتى انطاكية • وفي مقابل ذلك تعهد الامبراطور البيزنطي بمساعدة الصليبيين في مهمتهم بكل قواه ، وان يقدم لهم المؤن ، وان يسهم بدوره في الحرب الصليبية ، وان يمدهم بفرق من الجيش البيزنطي

---

١ — يرد اسم بلدوين في المصادر العربية (بغدوين) وتنكرد (طنكري) و بوهيموند (بيمنت او بيمند)

٢ — اسد رستم : المرجع السابق ، جزء ٢ ص ١٢٧ — ١٢٨ — عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ١ ص ١٥٦ — ١٥٧

— باركر : المرجع السابق ، ص ٢٩

٣ — عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٥٤ — باركر : المرجع السابق ص ٢٩ — ٣٠

٤ — انظر رنسيمان : المرجع السابق ص ٢١٠ — ٢١٩ — انظر حول الاختلاف على عددهم : باركر : المرجع السابق ، ص ٣٠

في حال عدم تمكنه من مرافقتهم شخصيا (١) .

عبرت الحملة الاناضول الخاضعة لقلج ارسلان سلطان سلاجقة الروم ، فاحتلوا نيقية ،ثم هزموا السلاجقة في الموقعة الفاصلة عند اسكي شهر ، واستخلصوا بذلك منطقة غربي الاناضول كلها (٢) .

٢ — تأسيس الامارات الأربع :

أ — امارة الرها (٤٩١—٥٣٩هـ/١٠٩٨—١١٤٤م)

اجتاز الصليبيون الحاجز الجبلي الضخم (جبال طوروس)، فانقسموا الى قسمين ، ترأس احدهما تنكرد وبلدوين ، اتجها باتجاه الشمال الشرقي ، في حين اتخذ بقية الصليبيين وعلى رأسهم المندوب البابوي وغودفري وبوهيموند وريموند طريق الشام .

حين وصل الصليبيون برئاسة بلدوين الى القرى والضياع الارمنية ، رحب بهم الارمن (٣) واستولوا بمساعدتهم على مدينة الرها ، واسسوا بها سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م اولى الامارات الصليبية في الشرق (٤) وكان لهذه الامارة اهمية دينية كبيرة الى جانب اهميتها في حماية ممتلكات الصليبيين في الشام ضد اي هجوم من الشرق (٥) .

---

١ — اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة وتعليق حسن حبشي ،دار الفكر العربي ١٩٥٨م ،ص ٣٠—٣١
— رنسيمان :المرجع السابق ،ص ٢١٩—٢٢٢ — عاشور :المرجع السابق ،جزء ١ ، ص ١٦٣—١٦٤ — ارنست باركر :الحروب الصليبية ، ص ٣٣
— اسد رستم :المرجع السابق ،جزء ٢ ،ص ١٢٩
٢ — عاشور :المرجع السابق ،جزء ١ ص ١٦٥—١٦٦ — رنسيمان :المرجع السابق ، ص ٢٤٩—٢٧٦ — باركر : المرجع السابق ،ص ٣٥
٣ — هاجر الارمن الى قليقية هجرة كبيرة في القرن الخامس الهجري من بلادهم حول بحيرة فان امام غزوات السلاجقة .انظر عاشور :المرجع السابق ،جزء ١ ، ص ١٧٣ — رنسيمان :المرجع السابق ،ص ٢٧٧ وانظر ص ٢٨٧—٢٨٨
٤ — رنسيمان :المرجع السابق ،ص ٢٩٤—٢٩٥ — اسد رستم :المرجع السابق : جزء ٢ ،ص ١٢٩ .
٥ — عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ،ص ١٧٧—١٨٠

كانت إمارة الرها من عدة نقاط ضعف منها :

- عدم وجود حدود طبيعية تحميها وتزود عنها وتكسبها وقاية ومناعة مما جعلها عرضة لهجمات صاحب الموصل، وهجمات صاحب حلب • فاخذت حدودها بالانكماش تارة والاتساع تارة اخرى •

- عدم تجانس سكانها • اذ كانوا خليطا من المسيحيين الشرقيين والصليبيين الغربيين ، فضلا عن تركز المسلمين في مدن باكملها داخل تلك الامارة مثل سروج ، فأصبح من الصعب على امراء الرها في تلك الظروف ان يحكموا امارتهم حكما مركزيا يضمن لهم اشرافا دقيقا على مختلف اجزاء الامارة • ولذلك فانهم لجأوا الى تحصين المدن والقلاع التابعة لهم ، وجمع الضرائب من المناطق المحيطة بتلك المدن (١) •

- ان هذه الامارة كانت محرومة من الواجهة البحرية التي تمتعت بها الامارات الاخرى ، وجعلتها على اتصال عن طريق البحر باوربا ، ومكنتها من تلقي المعونات العسكرية البحرية بسهولة ويسر•

- كانت امارة الرها اقرب الامارات الى مدينة الموصل التي اصبحت في ذلك الحين المركز السلجوقي المتقدم لتسيير الجيوش لقتال الفرنجة • فهوجمت من قبلها اربع هجمات متتابعة في سنوات متتالية من سنة ٥٠٥ ـ ٥٠٨ هـ / ١١١٠ ـ ١١١٤ م عدا الحملات التي تلت الاحتلال مباشرة (٢) •

---

١ ـ عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٤٣٧

٢ ـ انظر حول ذلك ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١٠ ، ص ٤٨٥ وص ٤٩٢ وص ٤٩٥ و ٥١٠ وانظر رنسيمان : المرجع السابق ص ٢٩٩ •

ب — امارة انطاكية (٤٩١ـ٦٦٦هـ/١٠٩٨ـ١٢٦٨م)

حين كان بلدوين البولوني يعمل في اراضي الجزيرة ،زحف القسم الاخر من الجيش الفرنجي على شمال الشام قاصدا انطاكية • فاستولى في طريقه على مرعش وحصن بغراس وقلعة ارتاح •

كانت مدينة انطاكية حين حاصرتها الجيوش الصليبية بيد السلاجقة منذ انتزعها سليمان بن قتلمش سلطان سلاجقة الروم من البيزنطيين في شعبان سنة ٤٧٧هـ/ شباط فبراير ١٠٨٥م (١) ثم اصبحت من املاك تتش الذى سلمها لاحد رجاله من التركمان المعروف باسم ياغي سيان سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٧م (٢) •

كان ياغي سيان على درجة من الكفاية مكنته من الاحتفاظ بحكم مدينة انطاكية حتى وصول الصليبيين اليها •وتحمل مهمة الدفاع عنها امامهم، وبذل جهودا مذكورة في هذا المجال (٣) • فعمل على حفر خندق يحيط بالمدينة ، وشحن القلاع بالجند والمقاتلين ، واختزن المؤن الكافية داخل اسوار المدينة (٤) • وحين القى الصليبيون الحصار على المدينة لمدة تسعة اشهر، ظهر في اثنائها من شجاعة ياغي سيان وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره ، حتى هلك اكثر الفرنج موتا (٥) •كما حاول الحصول على مساعدة جيرانه امراء المسلمين في المنطقة ،ومساعدة الخليفة العباسي وسلاجقة فارس ،

---

١ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١٠ ،ص ١٣٨ـ١٣٩ ـ حسن حبشي : الحرب الصليبية الاولى ، دار الفكر العربي، ص ١١١ •
٢ ـ ابن الاثير :المصدر السابق ، جزء ١٠ ،ص ١٤٧ ـ١٤٨ ـ حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ١١١
٣ ـ ابن القلانسي :ذيل تاريخ دمشق،ص ١٣٢ ـ رنيسمان :المرجع السابق ،ص ٣٠٥ ؛
٤ ـ عاشور :المرجع السابق ،جزء ١ ،ص ١٩٣ ـ حسن حبشي :المرجع السابق ، ص ١١٢ •
٥ ـ ابن الاثير :المصدر السابق ،جزء ١٠ ، ص ٢٧٤ ـ ابو الفداء :المختصر في اخبار البشر ،دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت جزء ٢ ،ص ٢١٠
ـ انظر رنسيمان : المرجع السابق ، ص ٣١٦ •

فلم يحصل على معونة عاجلة [١] . ولكنه استمر في مقاومة الغزاة بكل ما استطاع . ونتيجة لهذه المقاومة الشديدة التي لقيها الصليبيون في المنطقة ، فر قسم منهم وعلى رأسهم بطرس الناسك ، على حين رأى بوهيموند (بيمند) ان يجمع بقية الصليبيين تحت امرته ليستخدمهم في تحقيق اهدافه في تأسيس امارة لنفسه . واخذ يعمل جهده لينفرد بامارة انطاكية ، فحاول منع وصول المساعدات الى ياغي سيان . كما بدأ باتهام البيزنطيين بالتآمر مع السلاجقة ضد الصليبيين ليتخلص من وعوده التي قطعها على نفسه لهم [٢] . كما عمل على التحالف مع الفاطميين ووعدهم بان يترك لهم بيت المقدس مقابل انطاكية [٣] . واراد بوهيموند ان يستفيد اكثر من ذلك من تعزق اوضاع بلاد الشام السياسية في تلك الفترة ، فراسل دقاق بن تتش مطمئنا له ، واستمال اخيه رضوان بن تتش [٤] .

وقد نجحت هذه الخطة مع بعض الامراء وفشلت مع بعضهم الاخر ، حيث قرر رضوان صاحب حلب نجدة انطاكيه لانها تعتبر من املاكه ، وضم اليه بعض الامراء المحليين . وقد اجتمعت هذه القوات المتحدة في مدينة حارم ، وكانت على اتصال بامير انطاكية ياغي سيان . ووضع الفريقان خطة جيدة فيما لو تمكنوا من تحقيقها ، ملخصها خروج ياغي سيان لمهاجمة الصليبيين في نفس الوقت الذى تطبق عليه هذه القوات من الخلف وتمنعه من الابتعاد عن

---

١ ـ حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ١١٢

٢ ـ تمكن بوهيموند من ابعاد القائد البيزنطي الذى كان يرافق الصليبيين في حصارهم لانطاكيه ثم اتهمه بالجبن . انظر اسد رستم : المرجع السابق ، جزء ٢ ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ـ رنسيمان : ص ٣٠٩ ـ ٣١١ ، المرجع السابق .

٣ ـ انظر باركر : الحروب الصليبية ، ص ٣٧

٤ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢٧٥

اسوار انطاكية • ولكن خيانة بعض انصار الصليبيين من السريان والارمن في المنطقة افشلها ، وهاجم بوهيموند هذه القوات المتحدة وهزمها قبل ان تنفذ مشروعها ، واستولى على حارم [١] • حيث حصل على مؤونة كافية شجعته على متابعة الحصار ، ونهض لبناء قلعة مطلة على المدينة مكان مقابر المسلمين ، مستخدما حجارة مقابر سكان المنطقة في ذلك • كما وصل الى ميناء السويدية اسطول انكليزي يحمل المزاد والسلاح وآلات الحصار [٢] وهكذا تغير ميزان القوى لصالح الفرنجة • فعلى حين كان موقفهم في تحسن ، فان امير انطاكية ياغي سيان يئس من وصول دعم اسلامي • ويبدى المؤرخ ابوالمحاسن عجبه من موقف الفاطميين وعدم مشاركتهم القوى الاسلامية التي نهضت للدفاع عن انطاكية ضد الصليبيين فيقول : " ولم ينهض الافضل باخراج عساكر مصر ، وما أدري ما كان السبب في عدم اخراجه مع قدرته على المال والرجال [٣].

راسل الصليبيون المحاصرون لانطاكية احد المستحفظين للابراج ، مستغلين اوضاعه الخاصة ، وبذلوا له مالا واقطاعا مقابل مساعدتهم في فتح باب المدينة لدخولها ، فوافق [٤] • وبذلك اتيح للصليبيين دخولها • فقاموا

---

١ ـ عاشور :المرجع السابق ،جزء ١ ، ص ١٩٩ـ ٢٠١ ـحسن حبشي : المرجع السابق ص ١١٥ ـ ١١٦ وانظر ص ١٢٤ ـ ١٢٦ •

٢ ـ حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ١١٦

٣ ـ ابوالمحاسن بن تغري بردي الاتابكي :النجوم الزاهرة ، جزء ٥ ، ص ١٤٧ ـ وانظر حسن حبشي :المرجع السابق ص ١٢٧

٤ ـ اختلفت المصادر حول اسم الشخص الذي فتح باب انطاكية • فهو برزويه في بعضها ، وفيروز في بعضها الاخر • وراسله الصليبيون في مصادره وراسل هو الصليبيين في اخرى :انظر ابن الاثير :المصدر السابق ، جزء ١٠ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ ـ ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب تحقيق سامي الدهان جزء ٢ ص ١٣٤ ـ مؤلف مجهول :اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ص ٦٦ ـ ٦٧ •
ـ حسن حبشي :المرجع السابق ، ص ١٢٩ ـ ١٣٢

كعادتهم بقتل السكان والنهب والسلب ، فاستولوا على كل ما بها • وقتلوا اميرها باغي سيان [١] • وقد قدر المؤرخون الصليبيون عدد المسلمين الذين ذبحهم الصليبيون في انطاكية بعشرة آلاف نفس [٢] •

لقد كان لسقوط انطاكية وقع كبير في نفوس العرب والمسلمين في ذلك الحين ، لأهمية المدينة ومكانتها في نفوسهم • كما صادف سقوطها اثرا معاكسا في نفوس الفرنجة لمكانتها الدينية عندهم •

تربع بوهيموند على عرش هذه الامارة ، فصادف صعوبات جمة في بداية الأمر [٣] ، كما جابه هجمات متعددة ومحاولات لتحريرها من قبل عدد من حكام المسلمين في حلب والموصل ودمشق وغيرها ، واستمرت هجمات العرب المسلمين عليها قوية في عهد خلفائه • وقد تزعم امراء الموصل في البداية هذه الهجمات من امثال كربوغا ومودود وآق سنقر البرسقي [٤] ، حتى كان عهد ايلغازي ثم عماد الدين زنكي وابنه محمود ومن بعدهما صلاح الدين الايوبي وخلفائه • وقد استطاعت قوى هؤلاء الامراء والسلاطين المسلمين تقليص حدود امارة انطاكيه احيانا ، واسر امرائها احيانا اخرى [٥] •

---

١ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ١٣٥ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢٧٥
ـ حسن حبشي : المرجع السابق ص ١٣٣

٢ ـ عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ص ٢٠٥ ـ رنسيمان : المرجع السابق ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤ ـ حبشي : المرجع السابق ص ١٣٤

٣ ـ عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ص ٢١٢ ـ ٢١٦ ـ حسن حبشي : المرجع السابق ص ١٤٧ وما بعدها

٤ ـ انظر عن الجيوش التي هاجمت انطاكيه : ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ١٧٣ وما بعدها
ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ص ٢٧٦ و ٢٧٨ و ٤٨٥ و ٤٩٥ ـ ٤٩٧ ـ ابو الفداء : مختصر تاريخ البشر ، جزء ٢ ص ٢١٠ ـ ٢١١

٥ ـ انظر ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ص ٥٥٣ ـ ٥٥٦

حـ ـ امارة بيت المقدس (٤٩٣ـ٥٨٣هـ/١٠٩٩ـ١١٨٧م)

عقد الصليبيون مجلسا في محرم سنة ٤٩٢هـ/تشرين الثاني نوفمبر ١٠٩٨م بكنيسة بطرس في انطاكية حيث اجمع الزعماء على استئناف الزحف نحو بيت المقدس [١] • وعلى الرغم من اشتراك بوهيموند امير انطاكية في هذا المجلس واقراره بالاشتراك بالزحف الى بيت المقدس، فانه حين بدأت الساعة الحاسمة ، تخلف وفضل البقاء في انطاكية [٢] • وكذلك فعل بلدوين امير الرها الذى كان مشغولا بتنظيم امارته [٣] •

قاد ريموند جموع الصليبيين المتوجهة الى بيت المقدس في صفر ٤٩٢هـ/ كانون الثاني يناير ١٠٩٩م • وتوغل في بلاد الشام ، متحاشيا المدن الداخلية الكبرى مثل حلب ودمشق • وفي اثناء تقدمه ،اتصل ببعض القوى الصغيرة المستقلة في بعض مدن الشام ، مثل حمص وطرابلس وشيزر متعهدا لهم بعدم مهاجمتهم اذا قدموا المساعدات للفرنجة ، فحصل منهم على رد بالموافقة [٤] وعبر الصليبيون اقليم العاصي ، الى مصياف ثم الى بعرين ومنها الى سهل البقاع • واستطاعوا احتلال حصن الاكراد في صفر ٤٩٢هـ/كانون الثاني يناير ١٠٩٩م [٥] • ثم حاصروا عرقه في شمال طرابلس فتركوها بعد ان استعصت عليهم [٦] ، كما حاصروا جبلة حيث عقدوا اتفاقا مع قاضيها تعهد فيه بدفع جزية من المال والخيل •

---

١ ـ اعمال الفرنجة ، ص ١٠١

٢ ـ عاشور : المرجع السابق ، جز• ١ ص ٢٢١ ـ حسن حبشي :المرجع السابق ، ص ١٥٦ـ١٥٧ و١٥٨ و٢٥٩

٣ ـ عاشور :المرجع السابق ،جز• ١ ، ص ٢٢٤ ـ حسن حبشي : المرجع السابق، ص ١٦١ • ٣ ـ عاشور : المرجع السابق ،جز• ١ ، ص ٢٢١

٤ ـ حسن حبشي :المرجع السابق ص ١٦٢ـ١٦٣ ـ عاشور :المرجع السابق ، جز• ١ ، ص ٢٢٧ وص ٢٢٨ـ٢٢٩ ـ رنسيمان :المرجع السابق ، ص ٣٧٦ـ٣٧٧ •

٥ ـ حسن حبشي :المرجع السابق ص ١٦٤ ـ عاشور :المرجع السابق ،جز• ١ ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ ـ رنسيمان : المرجع السابق ص ٣٧٩ـ٣٨١

٦ ـ رنسيمان : المرجع السابق ص ٣٨٢ـ٣٨٣ ـ عاشور : اوربا في العصور الوسطى جز• ١ ص ٤٣٧

لم يدعم الفاطميون نفوذهم في المناطق التي استرجعوها من الاراتقة في فلسطين والساحل حتى جنوبي نهر الكلب • ولذلك فقد كان من السهل بمكان ان تسقط المدن الساحلية والداخلية تترى بأيدى الفرنجة • فقد سالمهم اهالي بيروت ، على حين تعرضت صيدا لهمجيتهم لعدم اعلانها التبعية • وكذلك استعصت مدينة عكا عليهم (١) • وحين شقوا طريقهم الى الداخل سقطت بايديهم مدينتي اللد والرملة (٢) ، ثم بيت لحم التي غادروها الى بيت المقدس •

اتخذ حاكم بيت المقدس الفاطمي كافة الاحتياطات التي وجدها في رأيه كفيلة بحماية المدينة المقدسة • من جملتها تقوية تحصينات المدينة ،والتأكد من سلامة اسوارها وتأمين التموين من طعام وماء • واعتمد في الدفاع عن بيت المقدس على حامية كبيرة من الجند المصريين والسودان (٣) •

القى الصليبيون الحصار على المدينة المقدسة في رجب سنة ٤٩٢ هـ / حزيران ـ يونيو ١٠٩٩ م (٤) • وبعد اقل من اسبوع من حصارها، وصلتهم امدادات بشرية وعسكرية وغذائية ، فارتفعت معنوياتهم واحتلوا يافا (٥) ، فاصبح لهم نافذة على البحر في المنطقة ،على حين ان معنويات الحامية الفاطمية في بيت المقدس كانت سيئة •

---

١ ـ ابن الاثير :المصدر السابق، جزء ١٠ ،ص٢٨٣ ـ رنسيمان :المرجع السابق ، ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩ •

٢ ـ رنسيمان : المرجع السابق ،ص٣٩٠ ـ ٣٩٢ ـ عاشور :المرجع السابق ،جزء ١ ، ص ٢٣٨ ـ ٢٤٠ •

٣ ـ رنسيمان :المرجع السابق ،ص٣٩٤ ـ ٣٩٥ ـ عاشور :المرجع السابق ،جزء ١ ، ص ٢٤١ •

٤ ـ انظر رنسيمان : المرجع السابق ،ص٣٩٦ ولكنه يذكر ذلك في يوليو حزيران وحسن حبشي في مايو مايس، ص ١٧٤ •

٥ ـ اعمال الفرنجة ،ص١١٥ ـ ١١٧

استمر حصار بيت المقدس قرابة شهرين ، قام الفرنجة اثناءها بصنع برجين جعلاهما يطلان على سور المدينة ، وضعوا احدهما بباب صهيون ، والاخر بباب العمود ٠ فاحرق المحاصرون البرج الأول وقتلوا من فيه [١] ، اما البـــرج الثاني فقد زحف به الصليبيون حتى الصقوه بالسور ، واخذوا يطلون من خلاله على البلد [٢] ٠ ثم رموا المجانيـــق رمية رجل واحد ، فانهزم المسلمون فـي ليلة ٢٣ شعبان ٤٩٢هـ/ ١٤ تموز يوليو ١٠٩٩م ٠ وفر المدافعون عـن بيت المقدس من المسلمين للاحتماء بالمسجد الاقصى والدفاع عنه ٠ فدخــــــل الصليبيون المدينة ، واقتحموا المسجد واحدثوا بداخله مذبحـــة وحشية رهيبة [٣] ، عبر عنها مؤرخـو الغرب خير تعبير حين قال احدهم : (حتى ان جنودنا كانوا يخوضون حتى سيقانهم في دماء المسلمين) [٤] ٠ ولم ينج من مذابحهم الا الفئة القليلة التي اعتصمت بمحراب داود وقاتلت ثلاثة ايام برئاسة حاكم المدينة افتخار الدولة ، ولم تلق السلاح الا بعد ان بذل لهـم الفرنج الامان [٥] ٠ وقد ذكر مؤرخ صليبي حضر تلك الاحداث ، انه عندمـا زار الحرم الشريف غداة المذبحة الرهيبة التي احدثها الصليبيون لم يستطــع ان يشق طريقه وسط اشلاء المسلمين الا في صعوبة بالغة ، وان دماء القتلى بلغت حتى ركبتيه ٠ كما ذكر صاحب كتاب اعمال الفرنجة [٦] وهو من شهود

---

١ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١٠ ص ٢٨٣ ـ رنسيمان : المرجع السابق ص ٤٠١ ـ ٤٠٢
ـ حسن حبشي : المرجع السابق ص ١٧٨

٢ ـ انظر رنسيمان : المرجع السابق ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣ ـ حسن حبشي : المرجع السابق ص ١٧٨

٣ ـ انظر حسن حبشي : المرجع السابق ص ١٧٩

٤ ـ سعيد عاشور : المرجع السابق ، جز ١ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ نقلا عن وليم الصوري ، واعمال الفرنجة ـ حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ١٧٩ ـ رنسيمان : المرجع السابق ، ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥

٥ ـ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جز ١ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤

٦ ـ اعمال الفرنجة ص ١١٩ ـ ١٢٠ ـ عاشور : المرجع السابق ، جز ١ ص ٢٤٥ ـ
ـ حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ١٧٩

العيان كثرة القتلى من المسلمين ، وصور ذلك تصويرا بارعا فقال : (وصدر الأمر ايضا بطرح كافة موتى الشرقيين خارج البلدة لشدة النتن المتصاعد من جيفهم ، ولان المدينة كادت ان تكون باجمعها مملوءة بجثثهم . فقام الشرقيون الذين قيضت لهم الحياة بسحب القتلى خارج بيت المقدس ، وطرحهم امام الابواب . وتعالت اكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعا . وما تأتى لاحد قط ان سمع او رأى مذبحة كهذه ، المذبحة التي ألمت بالشعب الوثني - يقصد المسلمين - وجمعت اكوام من الحطب كأنها الاعلام ، ولا يعلم احد غير الله كم عددها ...) .

وقد صور لنا ايضا ابن الاثير (١) القتل والسلب والنهب الذى قام به الفرنجة فقال : (.. وقتل الفرنج بالمسجد الاقصى ما يزيد على سبعين الفا ، منهم جماعة كثيرة من ائمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الاوطان ، وجاور بذلك الموضع الشريف . واخذوا من عند الصخرة نيفا واربعين قنديلا من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة الاف وستمائة درهم . واخذوا تنورا من فضة وزنه اربعون رطلا بالشامي ، واخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا نقرة ، ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلا ، وغنموا ما لا يقع عليه الاحصاء) .

كان هناك اكثر من مرشح فرنجي لامارة بيت المقدس ، وعلى رأسهم غودفري بوايون ، وريموند الصنجيلي . واستقر رأى الغالبية على اعطاء العرش الى غودفري منذ نهاية شعبان ٤٩٢هـ/ ٢٢ تموز يوليو سنة ١٠٩٩م . وكان

---

١ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢٨٣-٢٨٤

اختياره للينه• وقد اكتفى غودفري بلقب حامي بيت المقدس• وبدأ بذلك تشكيل امارة بيت المقدس، تلك الامارة التي ارتبط بها امراء الصليبيين في الامارات الاخرى (١) •

احدث سقوط بيت المقدس موجة من الرعب في نفوس اهالي المدن والقرى المجاورة ، فخلت من المدافعين عنها ، واخذ الصليبيون يستولون على هذه المدن الواحدة تلو الاخرى • وتحرك الفاطميون اثر سماعهم بحصار بيت المقدس من قبل الفرنجة ، وعسكر جيشهم في عسقلان حيث بادرهم الفرنجة اليها وهزموهم واخذوا قطيعة من اهالي عسقلان اختلف المؤرخون حول مقدارها (٢) • وتكرر خروج الفاطميين بعد سقوط بيت المقدس الى عسقلان ، ووصلت بعض جيوشهم الى اللد والرملة ويازور ، وهاجمت يافا • كما انهم تعاونوا في سنة ٤٩٩هـ/١١٠٥م مع السلاجقة لقتال الصليبيين ، وكانت حصيلة الحروب بين الطرفين في الفترة بين ٤٩٣ـ٤٩٩هـ/ ١٠٩٩ـ١١٠٥م توسع الصليبيين في ارسوف وقيسارية وعكا ، واتبعوها ببيروت وصيدا • حتى انه لم يبق في يد العرب المسلمين من معاقل الساحل السوري سوى عسقلان وصور وطرابلس (٣) • ثم تابع الفرنجة الفتوح في سواحل الشام بعد ان وصلتهم امدادات من الغرب الاوربي ، لتامين طريق الحجاج وتنشيط التجارة مع الغرب• فاحتلوا مدن فلسطين الداخلية كطبرية وبيسان والناصرة ونابلس ، على حين ابقوا القرى والمزارع المحيطة بتلك المدن في

---

١ ـ سعيد عاشور :المرجع السابق، جز•١ ، ص٢٤٥ـ٢٥٥
ـ حسن حبشي : المرجع السابق ص ١٨١ـ ١٨٢ـ ١٨٤

٢ ـ ابن الاثير :المصدر السابق، جز•١٠ ص٢٨٦ـ وانظر رنسيمان :المرجع السابق ص ٤٣٤ـ٤٣٧

٣ ـ انظر ابن الاثير : المصدر السابق، جز•١٠ ص٣٧٢ـ وص٣٩٤ ، ص ٤١١ وص ٤١٤ •
رنسيمان : المرجع السابق ، ص ٤٣٦

ايدى اصحابها العرب(١) نظرا لقلة عدد فرسان الصليبيين ٠

كانت حروب الفاطميين مع الصليبيين بقيادة وزيرهم الافضل اشـــبه باستعراض عسكرى يعرض فيه الافضل كل ما لديه من عناصر عسكرية وسلاح ، دون ان يضع الخطط اللازمة من جهة ، ودون ان يدرس المنطقة التي يجب ان يعسكر بها او تلك التي يلاقي بها اعداءه ، ودون ان يستعلم خبراعدائه عن طريق جواسيسه او اهالي المنطقة من العرب ، او حتى ان يعمل على كتمان اخبار حملته او التضليل حولها ٠ وفوق هذا وذاك فانه لم يكن يستخدم عامل المباغتة الذى استخدمه الفرنجة مرات متعددة في وجه الفاطميين فنجحوا ٠ وزاد الطين بلة انه في غالب الاحيان لم يكن هناك تنسيق بين اقسام الجيش المختلفة ، بل كثيرا ما كان جيش الفاطميين يعسكر في نقط مكشوفة حتى وغير مكشوفة ولكنها قريبة من مراكز الفرنجة بانتظار امدادات اخرى بريـــة او بحرية ٠ فتصل الاخبار الى العدو الذى يعمل على مباغتة الجيش الفاطمي الكبير ٠ وفي اثناء ذهول الجنود ومحاولة الاستعداد للمواجهة يكـــون الفرنجة قد فرقوا شمل الجيش الفاطمي ، فيولي عناصره هاربين مـــــن الساحة(٢) ٠

تغير وضع امارة بيت المقدس بعد سنة ٤٩٩هـ/١١٠٥م ، حيـــث توقفت الحملات الفاطمية ، واخذ بلدوين الاول اميرها بعد اخيه غودفرى يعمل على السيطرة على المناطق الجنوبية في فلسطين لاهميتها الدفاعية من جهة ، ولعزل مصر عن مناطق العالم الاسلامي في الشرق ، وقطـــع

---

١ ـ عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ص ٢٦٢ـ٢٦٤

٢ ـ انظر ابن الاثير : المصدر السابق جزء ١٠ ص ٣٩٤ وص ٤٨٠ و حسن حبشي : المرجع السابق ، ص ١٩٢ـ١٩٣

الطريق البرى عنها • وقد تمكن من تحقيق هدفه ، واسس في المنطقة حصن الشوبك سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م • كما بنى في العقبة (ايلة) قلعة حصينـة للتحكم في الطريق البرى للقوافل بين مصر والشام ، ولتهديد الحجـاج المسلمين وهم في طريقهم الى الحرمين ، وقلعة اخرى في خليج العقبة فـي جزيرة فرعون للاشراف على شبه جزيرة سيناء ، ورابعة جنوب مدينة صـور للسيطرة عليها بعد ان فشل في اخضاعها • واستطاع بما قام به تمزيـق اوصال العالم الاسلامي في المنطقة ، والتحكم في المسالك المؤدية الـى الحجاز (١) . ثم فكر في مهاجمة الفاطميين في عقر دارهم للضغط عليهم ، وجعلهم يستعينون بحامياتهم في صور وعسقلان فيستولي عليهما (٢) .

د ـ امارة طرابلس ٥٠٣ـ٦٨٨هـ/١١٠٩ـ١٢٨٩م

عمل ريموند الصنجيلي على تأسيس امارة له على شاطئ الشام • وقـد اصطدم اثناء محاولته تلك بكل من اميرى انطاكية وبيت المقدس ، اللذيـن وضعا مخططا لامارتيهما ارادا به ان تكون المناطق الساحلية المواجهـة لامارتيهما تابعة لهما • ولم يستطع ريموند التحرك قدما نحو تحقيق مشروعه الا بعد ان عقد اتفاقية مع امير انطاكية •

اتخذ ريموند من مدينة طرطوس في جمادى الاولى ٤٩٥هـ/شباط فبراير ١١٠٢م قاعدة مؤقتة له بعد فشله في اخضاع مدينة طرابلس الخاضعـة للقاضي ابن عمار • فقد تمكن ابن عمار من افشال اكثر من حصار فرض حـول طرابلس ،ولكنه لم يتمكن من حماية المناطق القريبة منها كحصن الاكراد ومدينة

---

١ ـ عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ص ٣٣٧ـ٣٣٩

٢ ـ عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ص ٣٢٧ـ٣٢٩

جبيل التي سقطت في يد ريموند [١] .

بنى ريموند قلعة صنجيل في مواجهة طرابلس ليجبرها على الخضوع ، ولكنه توفي قبل ان يحقق امله . فنهض ابنه برترام وقريبه جوردان بحماية املاكه واتمام تأسيس الامارة فكان الاستيلاء على عرقة في رمضان سنة ٥٠٢هـ / نيسان ابريل ١١٠٨م [٢] ثم طرابلس [٣] . ولما انفرد برترام بحكم الامارة قام بتوسيعها باحتلال عدة حصون مثل المنيطرة وعكار ورفنيه وقلعة بعرين [٤] واستمرت امارة طرابلس بالتوسع حتى بلغت اقصى اتساع لها سنة ٥٢٦هـ / ١١٣٢م . وصارت تمتد من قلعة المرقب شمالا حتى نهر الكلب جنوبا ، ومن شاطئ المتوسط غربا ، حتى بعرين ورفنية وحصن الاكراد وعكار شرقا .

وهكذا استطاع الصليبيون في فترة قصيرة تأسيس الامارات الاربع ، وصار في ايديهم الجانب الاكبر من فلسطين وساحل الشام . فكانت دولتهم في اقصى اتساعها تمثل بشبه منحرف اكبر ضلعه في الشمال ، من انطاكية غربا الى الرها شرقا . وضلعه الشرقي من الرها شمالا الى العقبة (ايله) على البحر الاحمر . وضلعه الجنوبي من العقبة (ايلة) الى غزة ، وضلعه الغربي من غزة الى انطاكية مع تجاوز هذا التشبيه ، اذ امتلك الصليبيون اراضي ومدنا عديدة خارج تلك الحدود ، الى جانب وجود مدن كبرى داخله ظلت محتفظة بوضعها العربي الاسلامي دون ان يستطيع الصليبيون الاستيلاء عليها مثل حلب وحماه وحمص ودمشق [٥] .

١ـ عاشور : المرجع السابق ، جز١ ص٣٥٨ـ٣٥٩ـ رنسيمان : المرجع السابق ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩

٢ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جز١٠ ص ٤٦٧

٣ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جز١٠ ص٤٧٥ـ٤٧٦ـ ابوالمحاسن : المصدر السابق جز٥ ، ص ١٧٩

٤ـ عاشور : المرجع السابق ، جز١ ص٣٧٤ ـ ٣٧٦

٥ـ عاشور : المرجع السابق ، جز١ ، ص ٤٧٧

ويعتبر استيلاء الصليبيين على اراضي هذه الامارات بمثابة احتلال حربي لا فتحا منظما • فاملاكهم في اقصى اتساع لها شملت رقعة من الارض امتدت بطول خمسمائة ميل وعرض خمسين ميل (١) • ولا يعود انتصارهم الى تفوق جيوشهم في العدد فحسب ، بل الى انعدام المقاومة المنظمة ، وبسبب ما حدث من الحروب الداخلية بين الامراء السلاجقة ، وما وقع بين اتباعهم من التنازع على الاستيلاء على املاك البيت السلجوقي •

طبق الصليبيون في اماراتهم في الشام كثيرا من النظم الاقطاعية التي عاشوا في ظلها في الغرب الاوربي قبل حضورهم الى الشرق • وفازت الكنيسة بنصيب الاسد ،وامتلكت الاراضي والاموال الى جانب ما كان يدر عليها دائما ، مما ميزها بوفرة ثروتها واتساع املاكها التي لم تقتصر على بلاد الشام بل امتدت الى القارة الاوربية • وقد اثارت هذه الثروة الطائلة التي تمتعت بها الكنيسة حقد النبلاء في بلاد الشام ،ولا سيما ان ممتلكات الكنيسة معفاة من الضرائب ، كما كان رجالها معفيين من الخدمة العسكرية (٢) • كما شهدت بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية عددا من الهيئات الدينية اهمها هيئات الفرسان وخاصة الاسبتارية والداوية (٣) ، وهي منظمات جمع افرادها بين حياة الزهد والعبادة في ظل الكنيسة او الدير ، وبين قتال المسلمين والعمل في ميدان الخدمة الاجتماعية • وكان هؤلاء اثبت فئات الصليبيين على القتال واصلبهم عودا ،واكثرهم صبرا وشجاعة • وكان ملجؤهم

---

١ — Lane Poole: Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, Beirut 1964, P.26

٢ — عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ص ٤٨٤ — ٤٨٥

٣ — الاسبتارية هم فرسان المستشفى Hospitallers التي حرفت بالعربية الى اسبتارية • والداوية اي فرسان المعبد Tempelers والتي حرفت في العربية الى الداوية •

يتسع لالف حاج فضلا عن المشفى الكبير المخصص لعلاج المرضى والعناية بهم ، والتبرع للفقراء ، والعمل على حماية طرق الحجاج من يافا وعكا والى بيت المقدس • كما قاموا بتقديم تسهيلات ائتمانية للحجاج • وقد ترتب على ذلك عدد من المساوئ •• اذ كانت هاتان الهيئتان مستقلتان عن كل نفوذ سياسي ،فكانتا اشبه بدولة داخل دولة ،بامكانهما عقد الصلح او الهدنة دون ان تتقيدا بالسياسة العامة للدولة الصليبية [١] •

هذا ويمكن تقسيم المجتمع الصليبي في عصر الحروب الصليبية الى ما يلي :

١ ـ الارستوقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان وهم قلة •

٢ ـ طبقة عامة المحاربين من الصليبيين وهم فرق المشاة في الجيش •

٣ ـ طبقة الافراخ ، وهم نتاج التزاوج بين الصليبيين الغربيين ، والمسيحيين الشرقيين من ارمن وسريان وغيرهم •

٤ ـ طبقة المسيحيين المحليين الشرقيين الذين احتقرهم الصليبيون على الغالب •

٥ ـ التجار الايطاليون وهؤلاء تركزوا في المدن الصليبية وخاصة الموانئ الساحلية ، وظلوا يكونون طبقة مستقلة قائمة بذاتها ، يختلطون بغيرهم في نطاق المعاملات المالية والتجارية •

٦ ـ المسلمون وهم اهل البلاد الاصليين وسكان المدن والبلاد التي احتلها الصليبيون ، وهم في غالبيتهم تركوا المناطق المحتلة ماعدا مدن الساحل من بانياس الى عكا ، وفي حوض نهر العاصي وسهل البقاع ، اضافة الى قبائل البدو الرحل •

---

١ ـ عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٤٨٦ـ ٤٨٧ •

٧ ـ الرقيق والاقنان ، وينص قانونهم حول ذلك (ان العبيد والفلاحين والاسرى كالمواشي يخضعون لقانون البيع والشراء ، وان للسيد ان يفعل ما شاء بعبيده) .

كانت اللغة السائدة في المناطق الخاضعة للصليبيين اللغة الفرنسية بوجه عام والتي دخلتها بعض الالفاظ العربية ، الى جانب لغات اوربية اخرى اقل منها استعمالا (١) .

---

١ ـ عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ص ٤٩١ ـ ٤٩٥

الفصل الثاني

الزنكيون وتوحيد مصر والشام ، وموقفهم من الصليبيين

تمهيد

الدولة الزنكية وتأسيسها

جهود عماد الدين زنكي في توحيد الجبهة الاسلامية

عماد الدين زنكي والصليبيون

١ ـ موقفه من صليبيي انطاكية
٢ ـ استعادة امارة الرها

مقتل عماد الدين زنكي

نتائج سقوط الرها ـ نورالدين محمود والحملة الصليبية الثانية

١ ـ نتائج سقوط الرها
٢ ـ الحملة الصليبية الثانية

اعمال نورالدين محمود زنكي

١ ـ نورالدين والصليبيون
٢ ـ محاولات نورالدين توحيد بلاد الشام تحت امرته

أ ـ ضم حمص والرحبة
ب ـ فتح نورالدين لمدينة دمشق

٣ ـ نورالدين بين ضم دمشق والسيطرة على مصر
٤ ـ نورالدين وتوحيد مصر والشام

أ ـ حملة شيركوه الأولى على مصر
ب ـ حملة شيركوه الثانية على مصر
ج ـ حملة شيركوه الثالثة على مصر ، ووزارته

الفصل الثاني

الزنكيون وتوحيد مصر والشام

وموقفهم من الصليبيين

٥٢١ـ ٥٦٦١هـ/١١٢٧ـ ١٢٦٢م

تمهيد : حين كان الصليبيون يستقرون في اطراف الشام،كان اهتمام السلاجقة منصبا على قواعدهم الاساسية في ايران والعراق ،وكان الشغل الشاغل لخلفاء العباسيين استعادة سلطتهم في عقر دارهم ،وسلموا امر قتال الصليبيين الى الامارات الناشئة في اطراف الشام وعلى رأسها امارات الموصل ، التي اضحت قاعدة المواجهة الرئيسية وخط الدفاع الاول ، وقد تعاونت احيانا مع الامارات الاخرى الناشئة في بلاد الشام ، وكان هذا التعاون بدافع من الحفاظ على املاكهم المعرضة للخطر الصليبي ، واذا ما شعروا بان الخطر على ممتلكاتهم اصبح من قبل امارة اسلامية اخرى ، فانهم لا يترددون على الاستعانة بالصليبيين ضد اخوانهم ، حتى كان عهد الامارة الزنكية التي حملت على كاهلها عبء توحيد القوى المواجهة للصليبيين بشكل تام والوقوف بصلابة وحزم امامهم ،

الدولة الزنكية وتأسيسها :

كان آق سنقر جد نورالدين محمود زنكي اول من ظهر على الساحة السياسية من افراد هذه الاسرة التي تنتسب الى قبائل الساب يو التركمانية ، وقد بدأ حياته مملوكا ورفيقا لطفولة وشباب السلطان السلجوقي ملك شاه، ولما اعتلى الاخير عرش السلطنة ، جعله من المقربين ، وقبل اعطاء حجابته (١) ، واطلق عليه لقب قسيم الدولة (٢) ، وابدى آق سنقر

---

١ ـ ابن خلكان : وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ،تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٨م ، جزء ١ ص٢٤٢ـ٢٤٣

٢ ـ ابوشامة :تاريخ الروضتين في اخبار الدولتين ،دار الجيل بيروت ،جزء ١ ص٢٤

لملك شاه انه اهل لهذه الثقة الممنوحة له ، فساعده في القضاء على دولة العقيليين في الموصل وحلب ، وكانت مكافأته ولاية حلب (١) .

استطاع آق سنقر نتيجة لحسن سيرته مع الرعية في حلب (٢) ان يوطد حكمه فيها ويتخذ ها قاعدة لتوسيع حدود سلطان السلاجقة ، فضم اليه حمص وافاميه ، وحصل على اعتراف آل منقذ اصحاب شيزر بسيادة السلطان السلجوقي على املاكهم (٣) . وما لبث آق سنقر ان ذهب ضحية للنزاع بين افراد الاسرة السلجوقية في سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م (٤) . فحفظ بركياروق ابن ملك شاه ـ الذى تولى عرش السلطنة بعد ابيه ـ اليد البيضاء التي كانت لآق سنقر ، ومساعدته في الوصول الى العرش ، في ابنه عماد الدين زنكي الذى كان مايزال صبيا في العاشرة من عمره حين قتل ابوه . فضم اليه مماليك ابيه وجعله في حاشية والي الموصل (٥) .

اكتسب عماد الدين زنكي اولى تجاربه في الادارة والحرب من موقعه هذا في فترة مبكرة (٦) . اتيح له بعدها الدخول في مشاكل العراق والنزاع بين الخليفة واعدائه ، ثم دخل معترك الحياة السياسية حين حكم واسط

---

١ ـ ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١ ص ٢٤ ـ ٢٥

٢ ـ ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١ ص ٢٦ ـ ٢٧ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١٠ ص ٢٣٣

٣ ـ ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١ ص ٢٥ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١٠ ص ١٤٨ ـ ١٥٠ وص ٢٣٣

٤ ـ ابوشامه : المصدر السابق ، جز ١ ص ٢٦ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١٠ ص ٢٣٣ ـ ابن خلكان : المصدر السابق ، جز ١ ص ٢٤١ ـ ابن واصل : المصدر السابق ، جز ١ ص ١٠٣

٥ ـ ابو شامة : المصدر السابق ، جز ١ ص ٢٧

٦ ـ ابو شامة : المصدر السابق ، جز ١ ، ص ٣٧

والبصرة (١) ، وحين تولى شحنكية بغداد (٢) . ثم اتيح له الظهور في محيط الامراء المقربين من السلطان اثر تزوجه من ارملة احد كبار الامراء (٣).
وعند ما شغر منصب والي الموصل بالوفاة كان زنكي اكبر المؤهلين له في نظر اعيان الموصل والخليفة والسلطان على السواء ، فسلمت اليه في سنة ٥٢١ هـ/ ١١٢٧م مع الجزيرة (٤) ، مضافا اليه ما يغنمه من بلاد الشام . كما سلم اليه السلطان محمود ولديه الب ارسلان وفروخ شاه ليربيهما فعرف باسم اتابك (٥) .

جهود عماد الدين زنكي في توحيد الجبهة الاسلامية

عكف عماد الدين على تنظيم امارته الجديدة ، وتقويتها ليدفع عنها كيد المعتدين . فنهض لاختيار الرجال الصالحين ليجعل منهم اعوانا له في الملمات ، وعيونا ورصادا يقف بواسطتهم على مايحدث في ارجاء البلاد ، وجعل منهم وكلاء له في عواصم البلاد المجاورة ليكون على علم بكل ما يجرى (٦) .

شارك زنكي كأتابك غيره من الاتابكة في الصراعات الناشبة في فارس والعراق حول السلطنة (٧) ، واصيب اثر انهزامه في بعض حروبه عند مدينة سامراء في سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣٢م بجروح كادت تودى بحياته ، وفر

---

١ ـ ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٠
٢ ـ ابن الاثير المصدر السابق ، جزء ١٠ ص ٦٤١
ـ ابن خلدون : العبر وديوان المبتداء والخبر ، طبعة الاعلمي بيروت ١٩٧١م ، جزء ٥ ص ٢٢٣
٣ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ص ٦٤٣
٤ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ص ٦٤١ ـ ٦٤٣ ـ ٦٤٥ ـ ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٢٨ Muir: The Caliphate, p. 587
٥ ـ ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٢ ص ٣٢٨
٦ ـ Lane Poole: OP. Cit, p. 35
٧ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ص ٦٧٨ ـ ٦٧٩

هاربا حتى تكريت، حيث نهض نجم الدين ايوب لمساعدته وابقاءه عنده [١] .

وعلى الرغم من النكسات التي مني بها في عملياته تلك ، فانه نال مكاسب تذكر . فقد ضم مدينة اربل في الشرق الى املاكه ، كما اصبح له وزن وسمعة عسكرية طيبة ، فسعى المتصارعون على العرش لكسبه الى جانبهم ، واكتسب ولاء الاسرة الايوبية التي كان لها مركز عسكري محمود وسمعة طيبة [٢] .

تميز عماد الدين عن غيره من اتابكة عصره بسيره الحثيث نحو توحيد امارات بلاد الشام تحت سيادته والتوجه بالقوى الموحدة ضد الامارات الصليبية . فبدا قبل كل شيء بتقوية امارته بالاستيلاء على المناطق الستراتيجية التي تحيط بها مثل البوازيج [٣] ونصيبين [٤] وسنجار ومنطقة الخابور وحران [٥] وجزيرة ابن عمر [٦] . كما اهتم بالمناطق الجبلية المحيطة بالموصل ، تلك المناطق المشهورة بوعورتها والتي كانت تابعة للاكراد . فاكتفى بهدم قلاع المهاجمين وقبول ولاء من يدخل في طاعته من زعماء عشائرهم وابقاهم في امكنتهم [٧] .

---

١ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ص ٦٧٥

٢ ـ انظر مثلا ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ص ٦٧٤ ـ ٦٧٩

٣ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ص ٦٤٥

٤ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٦٤٦

٥ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ص ٦٤٧ ـ ابن قاضي شهبه : الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق محمود زايد ص ٩٤ ـ ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٥ ص ٢٢٤

٦ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ص ٦٤٥ ـ ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ص ٩٤ ـ ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٥ ص ٢٢٤

٧ ـ من القلاع التي استولى عليها قلاع الاكراد الحميدية ، والهكارية وكواشي كما بنى القلعة العمادية . انظر : ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٢٤ ـ ١٦ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ١١٤ ـ ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

اول اعمال عماد الدين في بلاد الشام ضمه حلب وقلعتها الى امارته في الموصل منذ محرم سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م ،كما ملك في طريقه اليها مدينتي منبج وبزاغة (١) . وما ان رتب اموره بها حتى توجه بانظاره نحو اواسط وجنوب بلاد الشام . وكانت هذه المناطق في غالبيتها تتبع للدولة البورية . وقد استعمل الحيلة والدهاء والسياسة والحرب حيث تمكن من دخول مدينة حماه سنة ٥٢٣هـ/١١٢٩م ، وحاصر بعدها مباشرة مدينة حمص دون جدوى (٢) ولكنه لم ييأس بل قام بعملية اخرى ضدها ففشل ، ومني بعملية عكسية ،اذ نهض البوريون واسترجعوا مدينة حماه سنة ٥٢٧هـ/١١٣٣م (٣) .

تردت الاوضاع الداخلية في الدولة البورية سنة ٥٢٩هـ/١١٣٥م ، واشتدت معارضة اهاليها لاميرها شمس الملوك اسماعيل ، ونسب اليه الظلم، ورأى نتيجة لشدة المعارضة ان يراسل عماد الدين زنكي ويسلم مدينة دمشق له ، وينذره ان تأخر بالوصول ، بتسليم المدينة للصليبيين (٤) .

سارع عماد الدين لاستغلال الظروف ، فجهز جيوشه واتجه اليها ، وقبل وصوله علم بان امور دمشق الداخلية قد تحسنت ، وان والدة شمس الملوك

---

١ — ابن الاثير :المصدر السابق ،جزء ١٠ ، ص ٦٤٩ — ٦٥١ — ابن خلدون المصدر السابق ، جزء ٥ ص ٢٢٤ — ٢٢٥

٢ — ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٢٧ — ٢٢٨ — ابن الاثير :المصدر السابق ،جزء ١٠ ص ٦٥٨ — ٦٥٩
— ابن قاضي شهبه :المصدر السابق ص ٩٤ — ابن العديم :المصدر السابق ، جزء ٢ ص ٢٤٥ — ٢٤٦
— ابن واصل :المصدر السابق ،جزء ١ ص ٤١ — ٤٢ — ابن خلدون :المصدر السابق ،جزء ٥ ص ٢٢٥ مع خلاف بالعام بين ٥٢٣ — ٥٢٤هـ

٣ — ابن منقذ :الاعتبار ،ط الولايات المتحدة ،١٩٣٠ ص ٩٧ — ٩٨ — ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١١ ص ٦ — ابن خلدون :المصدر السابق ، جزء ٥ ص ٢٢٨

٤ — ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٤٧ — ٢٤٨ — ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١١ ص ٢٠ — ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

اسماعيل تخلصت منه لصالح ابنها الاخر شهاب الدين محمود (١) . وعلى الرغم من ذلك ، فقد واصل زحفه اليها والقى عليها الحصار ، ففشل امام استبسال المدافعين عنها . واضطر الى فك الحصار عنها اثر رسالة وصلته من الخليفة العباسي المسترشد بالله ، يأمره فيها برفع الحصار عن المدينة ومصالحة اميرها (٢) ، والتوجه على رأس قواته الى بغداد للعمل سوية ضد السلطان مسعود (٣) . وقيل ان اهل دمشق ارسلوا الى الخليفة خمسين الف دينار ، ووعدوا بتقديم مثلها كل عام اذا دفع زنكي عنهم . وفك زنكي الحصار عن المدينة ، وعوض ذلك باستعادته لمدينة حماه (٤) .

عاود زنكي الكرة للتوسع على حساب الدولة البورية ، وحاصر حمص عدة مرات بين سنتي ٥٣٠ـ٥٣٢هـ/١١٣٦ـ١١٣٨م ، الا انه فشل في فتحها في تلك الفترة بسبب هجمات الروم والفرنجة على المناطق المحيطة بحلب ، واضطراره الى حمايتها (٥) . ونقل عماد الدين ميدان عملياته سنة ٥٣٣هـ/١١٣٩م الى بعلبك ،فاعترف حاكمها بالولاء له ، وتعهد بدفع مبلغ من المال (٦) . وما لبث ان ضمها اليه وعين عليها نجم الدين أيوب واليا ،وتابع عملياته في المنطقة المجاورة ،ففتح المجدل وبانياس .

---

١ ـ ابن القلانسي :المصدر السابق ص٢٤٧ـ٢٤٨ـ ابن الاثير :المصدر السابق ،جزء ١١ ص٢٠ ـ ٢١ـ ابن قاضي شهبه :المصدر السابق ص١٠٣

٢ ـ ابن الاثير :المصدر السابق ،جزء ١١ ص٢٢ـ ابن خلدون :المصدر السابق ، جزء ٥ ص ٢٣٠

٣ ـ ابن الجوزى :المنتظم في تاريخ الملوك والامم ،طبعة حيدر آباد ١٣٥٨هـ ، جزء ١٠ ص ٤٣

٤ ـ ابن القلانسي :المصدر السابق ص ٢٤٨ـ ابن العديم :زبدة الحلب ،جزء ٢ ، ص ٢٥٩ .

٥ ـ ابن القلانسي :المصدر السابق ص٢٦٣ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص٥٠ـ٥٦ـ ابن العديم :المصدر السابق ، جزء ٢ ص ٢٦٣ـ ٢٦٤ .

٦ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص٢٦٩ـ ٢٧٠ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٦٨ ـ ٧٠

انتقل عماد الدين بعد ان حقق جزءا من اهدافه الى التقرب من البوريين عله يحقق في ذلك ما عجز عن تحقيقه في القتال . فعقد بينه وبينهم مصاهرة ، فتزوج من والدة حاكم دمشق المعروفة بزمرد خاتون (١) ، وزوج حاكمها بابنته . وكان حصيلة ذلك تنازل البوريين له عن مدينة حمص ، تخلصا من تكاليف الدفاع عنها .

تغيرت اوضاع دمشق بعد هذه المصاهرة ، اذ نهض معين الدين انر مدبر أمر حاكم دمشق ـ بعد ان تضررت مصالحه بالتدخل في شؤون الاسرة الحاكمة . فقتل حاكم دمشق ، وعين اخاه عوضا عنه ، مما دفع عماد الدين للتحرك باتجاه دمشق لحصارها للمرة الثانية . واستمر الحصار قرابة سبعة شهور من ربيع الاول سنة ٥٣٤هـ حتى نهاية السنة/شباط فبراير ١١٤٠م ، واعقب ذلك مفاوضات فشلت ، فعاد عماد الدين لمهاجمة المدينة ، مما دفع انر لمراسلة صليبيي بيت المقدس طالبا منهم المساعدة في فك الحصار عن دمشق ، مقابل تسليمهم مدينة بانياس بعد الاستيلاء عليها . ووجد عماد الدين نفسه مضطرا الى الانسحاب شمالا . وفقد بذلك حصن بانياس الحصين الذى سلم للصليبيين (٢) .

---

١ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ ـ سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، جزء ٨ ص ١٦٥ ـ ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ص ١٠٨

٢ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ ـ ابن الاثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، تحقيق عبد القادر طليمات ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة ١٩٦٣م ، ص ٥٨ ـ ٥٩

ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٧٣ ـ ٧٥ ـ ابن العديم : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ١١٠ ـ ١١١

وهكذا فشل عمالدين في اتمام خطته بتوحيد الجبهة العربية الاسلامية في بلاد الشام وفتح مدينة دمشق ، وذلك بسبب تعاون حكام دمشق مع الصليبيين •

عماد الدين زنكي والصليبيون :

لم يبخل عماد الدين زنكي على الرغم من اهدافه في تحقيق الوحدة ، بقتال الصليبيين كلما سنحت له الفرصة بذلك • ولكن خططه المنظمة في قتال الصليبيين لم تبدأ الا بعد ان ثبت مركزه في امارته الجديدة ،وعزز امكانياتها الاقتصادية والعسكرية ، ووحد ما يمكن توحيده من الامارات الصغيرة المتناثرة التي تحيط بها في كل مكان ، وكانت تشكل عوائق امام اية خطة يستهدف من ورائها اعلان الجهاد العام ضد الصليبيين (١) ، وذلك لان المصالح الخاصة لهؤلاء الامراء ، مضافة الى المنافسات المستمرة بينهم ، كانت تمنع تشكيل حلف متماسك ضد الاعداء ،كما كان هؤلاء الامراء يشكلون خطرا مباشرا على عماد الدين نفسه في حال تقدمه لقتال الاعداء ، ويخشى من بعضهم ان يعملوا ضده ويقطعوا عليه خط الرجعة ، او ان يتحالف البعض مع الصليبيين (٢) •

هذا ويمكن تقسيم المجابهة بين عماد الدين والصليبيين الى قسمين ، اولهما وقائعه ضد امارة الرها المجاورة لمقر ولايته الموصل ،والتي تفصل بينها وبين ممتلكاته الجديدة في شمال بلاد الشام ، وثانيهما وقائعه ضد امارتي انطاكية وطرابلس المجاورتين لاملاكه الجديدة •

---

١ ــ انظر فيما سبق : عماد الدين وجهوده في توحيد الجبهة الاسلامية •
٢ ــ عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي : الدار العلمية بيروت ١٩٧١م ، ص ١٣٨

— Lane Peole: OP. Cit.p.49

١ ـ مع انطاكية :

بدأت علاقات عماد الدين مع امارة الرها بعقد هدنة مؤقتة مع اميرها لمدة سنتين ،فرضتها عليه ظروف الساعة (١)·وقد استغل عماد الدين هذه الهدنة ، فنهض لفتح مدينة حلب واتخذها نقطة انطلاق في توحيد جبهة بلاد الشام (٢) · كما استغلها لقتال صليبيي انطاكيه ، وابعادهم عن سواد حلب ، ففتح حصن الأثارب سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م (٣) ، ذلك الحصن الذى وضع فيه صليبيو انطاكية قوة ما فتئت تهدد حلب (٤) · وقد كان لهذا العمل نتائج على جانب كبير من الاهمية ، على رأسها ان الامور في بلاد الشام بدأت تسير لصالح المسلمين · وقد اوضح ذلك ابن الاثير وابن قاضي شهبة (٥) ، فقال الاول معبرا عن ذلك (··· وقد استدار المسلمون بتلك الاعمال ، وضعفت قوى الكافرين ، وعلموا ان البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم في حساب · وصار قصاراهم حفظ ما بأيديهم بعد ان كانوا قد طمعوا في ملك الجميع) · ثم توغل زنكي عبر اراضي انطاكيه ، فنزل على حصن حارم المنيع ، ولم يتراجع عنه حتى منحه اهاليه نصف دخلهم ، وبهذا عكس عماد الدين الاوضاع القائمة بين حلب وفرنجة انطاكيه لمصلحة حلب (٦) · واتبع ذلك بالاستيلاء على خمسة معاقل اشهرها معرة النعمان وكفرطاب وزردنا وتل اغدى (٧) ، فابعد بذلك صليبيي

---

١ ـ ابن الاثير : التاريخ الباهر ،ص ٣٧ Lane Poole:Ibid,p.49

٢ ـ أنظر فيما سبق

٣ ـ اختلف المؤرخون حول تاريخ فتح هذا الحصن انظرحول ذلك عماد الدين خليل :المرجع السابق حاشية ٢٣ ص١٤١ ـ ١٤٢

٤ ـ ابن الاثير :التاريخ الباهر ص٣٩ ـ ٤٢ ـ ابن الاثير :الكامل في التاريخ ،جزء ١٠، ص٦٦٢ ـ ابن قاضي شهبة :المصدر السابق ، ص٩٧

٥ ـ ابن الاثير :الكامل في التاريخ ،جزء ١٠، ص٦٦٣ ـ ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ، ص ٩٧

٦ ـ ابن الاثير :التاريخ الباهر ص٤٢ ـ ٧ ـ ابن العديم :المصدر السابق ،جزء ٢ ، ص ٢٥٩

انطاكيه بشكل واضح عن مدينة حلب ٠

أدت هذه الانتصارات التي حققها عماد الدين ضد الصليبيين الى تنبههم الى تزايد خطره على ممتلكاتهم في بلاد الشام ، والى ضرورة توحدهم لتوجيه ضربة حاسمة اليه ، فاستغلوا انشغاله في حصار حمص ، وجمعوا قوات الامارات الصليبية المختلفة لمباغتته٠ ورأى عماد الدين زنكي بمهارته العسكرية ان يدع حصار حمص ، ويعمل على مهاجمة حصن بعرين الحصين التابع للصليبيين (١) ، وليفرض عليهم مكان المعركة٠ وما ان بدأ زحفه اليه حتى واجهته القوات الصليبية ، ودارت بينهما معركة كانت لصالح عماد الدين ، فشتت شملهم ، واسر امير طرابلس ريموند ، على حين فر فولك ملك بيت المقدس ملتجئا الى حصن بعرين (٢) ٠ ووجد من بقي على قيد الحياة منهم عظم الكارثة ، فاتجهوا الى مسيحيي المشرق والمغرب طالبين النجدة ضد عماد الدين زنكي ٠

تقدم عماد الدين زنكي اثر انتصاره المذكور سنة ٥٣١هـ/١١٣٧م نحو حصن بعرين وحاصره حصارا شديدا ومنع عنه وصول العدة والعتاد ، وعزله عن العالم الخارجي عزلا تاما ، مما جعل موقف المحاصرين واملهم ضعيفا في النصر ، فطلبوا الصلح ، فأجابهم اليه عماد الدين زنكي لعلمه بأن نجدات عسكرية فرنجية وبيزنطية في طريقها لنجدة الحصن بقيادة الامبراطور البيزنطي حنا كومنين ، واشترط عليهم تسليم الحصن ، ودفع مبلغ قدره خمسون الف دينار ، مقابل اطلاق سراح امرائهم الاسرى (٣) ٠

---

١ ـ ويكتب ايضا بارين ، انظر خريطة رقم

٢ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ص٢٥٨ـ٢٥٩ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ٥١

٣ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ص٢٥٨ـ٢٥٩ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص٥١ـ٥٢ ، ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص٣٤ـ٣٦ وابن الاثير : التاريخ الباهر ص٥٩ـ٦١ وابن قاضي شهبه : المصدر السابق ، ص١١١ـ١١٢ فيذكر ان فتح بعرين مع خلاف في تاريخ الفتح ، اذ يذكر انه سنة ٥٣٤هـ

وصل المتحالفون من صليبيين وبيزنطيين الى المنطقة ، فوجدوا ان حصن بعرين قد سقط في يد عماد الدين زنكي ،واراد حنا كومينين ان لا يعود الى بلاده دون ان يحقق شيئا ، فقرر الاستيلاء على الاملاك الزنكية في بلاد الشام وعلى راسها حلب وشيزر وحماه وحمص، ومن اجل ذلك عقد اتفاقا مع امير انطاكيه ، ينص على تسليم امير انطاكيه للامبراطور البيزنطي مدينة انطاكيه ، مقابل اعطائه المناطق التي قرر الاستيلاء عليها في الشام (١) .

بدأ الامبراطور البيزنطي في تحقيق ما قرره بالتقدم الى حصن براغة القريب من حلب ، واستولى عليه ، ثم انتقل الى حلب والقى الحصار عليها ، فجوبه بمقاومة عنيفة دعته الى فك الحصار عنها ،وفي طريقه احتل حصن الاثارب ، كما استولى على معرة النعمان ،والقى الحصار على شيزر ، ولكن صمود عماد الدين زنكي مع آل منقذ ، واخبار قرب وصول نجدات من الامارات العربية الاسلامية المجاورة ، اضافة الى وجود خلاف بين امراء الصليبيين حول الاهداف ، وتخوف الصليبيين من البيزنطيين أدى الى انهاء حصار القوى المتحالفة لشيزر ، وعودتها الى انطاكيه ، وفسح بذلك المجال امام عماد الدين زنكي للاستيلاء على آلات الحصار الثقيلة ونقلها الى قلعة حلب (٢) .

وهكذا فشل المتحالفون من بيزنطيين وصليبيين في تحقيق اهدافهم ،

١ـ انظر عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ١٤٣ ـ ١٤٤

٢ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٦٦ ـ ابن منقذ : المصدر السابق ، ص ٢ .
ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ص ٥٣ ـ ٦٠ ـ التاريخ الباهر ، ص ٥٥ ـ ٥٦ ـ ابن العديم : المصدر السابق ، جزء ٢ ص ٢٦٨ ـ ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ص ١٠٨ ـ ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٢٣٣

وتوحيد كلمتهم • وانتهى امرهم بالخلاف ، وادى ذلك الى تردى العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين ، وعدم استطاعتهم القيام بعمل سريع ضد عماد الدين زنكي في المستقبل • على حين ان عماد الدين استطاع في خلال مدة تقل عن سنتين من استرجاع كل ما احتله البيزنطيون من حصون محيطة بحلب (١) •

٢ ـ سقوط امارة الرها

حقق عماد الدين زنكي قمة انتصاره على الصليبيين ، حين بدأ بمواجهة الجبهة الصليبية الثانية ، واقصد بذلك قضاؤه على امارة الرها • وقد كان هناك عدة اسباب تدفع عماد الدين الى القضاء على هذه الامارة ، لن ادخل تفاصيلها ، ويكفي ان اذكر انها كانت تفصل بين املاكه في الموصل والشام ، وان امراءها كانوا يتحالفون مع بعض الامراء المسلمين ضد عماد الدين زنكي • ومن ذلك تحالف اميرها جوسلين الصليبي مع امير حصن كيفا الارتقي ، فكان ذلك من الاسباب المباشرة التي دفعته الى تحقيق حلمه • وقد ساعد عماد الدين في عمله هذا عوامل متعددة منها :

أ ـ ضعف الامارات الصليبية في نهاية العقد الرابع من القرن السادس الهجري ، بسبب ما حل في قياداتهم من الضعف ، وما ذر بينهم من الخلاف • ففي بيت المقدس توفي كبيرهم فولك وخلفه بلدوين الثالث الصغير • وفي الشمال كان التنافس شديدا بين امير انطاكيه وامير الرها ، ذلك التنافس الذى انقلب الى عداء • وبذلك فقد اميرالرها جوسلين المساعدة من اقرب الامارات الصليبية اليه (٢) كما كان

---

١ ـ انظر ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٨٣ ـ ابن العديم : المصدر السابق ، جزء ٢ ص ٢٦٨ ـ عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ١٤٨

٢ ـ عماد الدين خليل : المرجع السابق ، ص ١٥٠ نقلا عن رنسيمان

صليبيو الرها قد فقدوا الامل في المعونات البيزنطية (١) .

ب ـ لم يكن جوسلين الثاني امير الرها يماثل اباه في شجاعته وقوته وبلائه ضد المسلمين ، بل كان من ذلك النوع الذى يوثر الراحة والعافية ، الى جانب انه لم يكتسب قلوب رجاله من الفرنجة ، ذلك لانه كان يميل الى الارمن وغيرهم من طوائف المسيحيين الشرقين كالسريان ، ويفضلهم على المسيحيين الغربيين ، مما سبب قلقا بين فرسانه الصليبيين ، واوجد نوعا من عدم الاستقرار داخل الرها . وقد يكون لنشأته الاولى اثر في ذلك باعتبار ان أمه ارمنية (٢) .

حـ ـ متانة موقف عماد الدين في شمال بلاد الشام في سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م ، وحصانة حدوده من الغرب ، وامكانية توجهه نحو الشرق .

د ـ سوء الوضع الداخلي في امارة الرها . فقد كان سكان الامارة في غالبيتهم من السريان واليعاقبة والارمن ، اضافة الى وجود بعض مدن اسلامية ضمن الامارة . ولم يعمل الفرنجة على اقامة حكومة مركزية ،بل استعاضوا عن ذلك بما شيدوه من حصون منيعة شحنوها بالجند .

هـ ـ رغبة عماد الدين زنكي باستعادة الرها وعمله الدؤوب من اجل تحقيق ذلك (٣) . ومما يغذى هذه الرغبة ، اهمية موقع الامارة . فهي تتوسط

---

١ ـ انظر فيما سبق

٢ ـ الباز العريني : الحروب الصليبية ، ص٥٢٣ـ٥٢٤ـ عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ١ ، ص ٦٠٤

٣ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٧٩ ـ ابن العديم : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٧٨

بين دويلات اسلامية ، وتشكل خطرا كبيرا على خطوط المواصـــلات الاسلامية بين الموصل وحلب ، وبين بغداد وسلاجقة الروم في آسيه الصغرى (١) • وقد شعر جوسلين برغبة عماد الدين تلك ، فوضع يده في يد بني ارتق في ديار بكر للوقوف في وجه زنكي •

قرر عماد الدين زنكي مهاجمة الاراتقة ، وانتزع منهم عدة قلاع في ديار بكـــر• ويبدو ان اتجاه عماد الدين ضد الاراتقة كان خدعة منه ليطمئـــن اهل الرها ، فيأخذهم على حين غرة (٢) • ويبدو ان جوسلين الثاني خاف عماد الدين ، او انه صدق ما اعلن من ان عماد الدين جاء لتأديب الاراتقة ، وانه مشغول بهم عن مهاجمة الرها ، فترك عاصمته وعبر الفرات الى تل باشـر على الضفة الغربية للفرات ، ليهاجم ممتلكات عماد الدين في منطقة بعيدة عن اماكن تجمعه (٣) •

علم عماد الدين بوضع الرها عن طريق رجاله ، فترك ما هو فيه ، وانقض عليها فورا ملقيا عليها الحصار في جمادى الاولى ٥٣٩هـ/٢٨ تشرين الثاني نوفمبر سنة ١١٤٤م•ولم يستطع جوسلين العودة بمفرده ، فبقي في مكانــه بانتظار وصول امدادات من انطاكية وبيت المقدس (٤) •

عمل زنكي جاهدا على دخول مدينة الرها بشكل سلمي ، فلم يوفق (٥)

---

١ ـ The Stevenson: The Crusaders in the east (Combridge 1907),p.153

٢ ـ ابن الاثير :المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٩٨

٣ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ٩٨ـ٩٩ـ التاريخ الباهر ، ص ٦٧ـ ٦٨ •

٤ ـ عماد الدين خليل : المرجع السابق ص ١٥٠ـ ١٥١

٥ ـ ابن الاثير: التاريخ الباهر ، ص ٦٨ـ ٦٩

اذ رفض اهالي المدينة التسليم ، وقاوموا الحصار الذى استخدم فيه عماد الدين الآلات الضخمة ثمان وعشرين يوما • ومالبثت المدينة ان سقطت بيده في السادس والعشرين من شهر جمادى الثانية سنة ٥٣٩هـ/ ٢٣ كانون الأول ديسمبر ١١٤٤م (١) اثر نسف ابراجها بالنقب في الارض حتى اساساتها وايقاد الحطب •

عمل عماد الدين على كسب ود اهالي الرها ، فاتبع معهم سياسة حكيمة تدل على بعد نظر • فلم تكد موجة الاضطراب التي اعقبت تدفق المسلمين داخل المدينة تنتهي ، حتى امر عماد الدين رجاله بالكف عن القتل ، وشمل الاهالي من المسيحيين المحليين بحمايته ، ومنع جنوده من الاعتداء على احد واضاف بان امر جنوده برد كل ما استولوا عليه من غنائم ، واعادة كل من اسروه من الرجال والاطفال والنساء الى منازلهم (٢) • كما سمح لمن غادر المدينة من المسيحيين الشرقيين بتأثير الاضطهاد الصليبي بالعودة الى مدينتهم • كذلك احتفظ عماد الدين لهم بكنائسهم ، في حين انه دمر كنائس الصليبيين الكاثوليك وبذلك أوجد عماد الدين لنفسه زعامة محلية تؤيده بوجود حاميته فقط في المدينة للدفاع عنها • وعادت الرها بذلك مدينة تدين بالتبعية لاتابكية الموصل •

عمل زنكي بعد سقوط الرها على الاستيلاء على بقية المعاقل الصليبية شرقي

---

١ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١١٥

٢ ـ ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٦٩ ـ الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٩٩ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ، جزء ١ ، ص ٨٨ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١١٦ •

الفرات ، فاستولى على سروج الحصن الهام الثاني في رجب ٥٣٩هـ /كانون الثاني يناير ١١٤٥م [١] ، وحاصر البيرة التي تقع على اهم مخاضة في نهر الفرات ،الا انه علم بموءامرة تدبر ضده في الموصل ، وبمقتل نائبه فيها ، فاضطر الى رفع الحصار والذهاب الى الموصل لاقرار الامور فيها[٢].

مقتل عماد الدين زنكي

لم يكد زنكي يفرغ من اخماد فتنة الموصل ،حتى اعد حملة كبيرة ،وزودها بالات الحصار ، واعلن انه في صدد قتال الصليبيين دون ان يحدد وجهته . وفي اثناء خروجه ،علم بتآمر الارمن في الرها فاسرع اليها وقضى على الموءامرة ، ثم توجه الى قلعة جعبر على الفرات وهي تتبع لبني عقيل ، فحاصرها بقصد فتحها [٣] . وفي اثناء حصارها قتل فجأة على يد احد خصيانه في جمادى الثانية ٥٤١هـ/ تشرين الثاني نوفمبر١١٤٦م[٤] . فانصرف غالبية قادة الجند وزعماء الموصل لتسليم الامارة الى ابن عماد الدين زنكي الاكبر المعروف بغازي . على حين ان بعض قادة الجند كأسد الدين شيركوه رأوا اعطاء الامارة الى نورالدين محمود ، والاسراع بالسير حثيثا مع جند الشام الى حلب [٥] . وقد أدى اختلاف الآراء والمصالح حول السلطان بعد عماد الدين زنكي الى تقسيم امارته الى قسمين ، في حلب والموصل . ولم يكن هذا الانقسام نهائيا ، بل بقي التضامن والرابطة بين زعماء الزنكيين قوية . وقد بدا التضامن في هذه الاسرة في قضية تمتع ابناء الامير المتوفى بحكم مناطقهم حكما مستقلا ،

---

١ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٨٠ ـ ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ٦٩ ـ الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ٢٩ ـ ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٢٣٦

٢ ـ ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٧٠ ـ ٧١ ـ ابن خلدون :المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٢٣٦

٣ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ١٠٩

٤ ـ ابن الاثير :المصدر السابق ،جزء ١١ ص ١١٠ ـ ابن قاضي شهبة:المصدر السابق ص ١١٩ ـ ٥ ـ ابوشامة :المصدر السابق ،جزء ١ ص ٤٦ ـ ٤٧ ـ ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٨٤ ـ ٨٦ ـ ابن قاضي شهبة:المصدر السابق ص ١٥ و ١٢١ و ١٢٢

وتبقى للابن الاكبر مكانة الزعامة ، ويتعاون الجميع لصد الاخطار المشتركة [١].

نتائج سقوط الرها ـ نور الدين محمود والحملة الصليبية الثانية

١ ـ نتائج سقوط الرها

كان لسقوط الرها في يد المسلمين رد فعل عنيف في الغرب الأوروبـــي والعالم العربي الاسلامي . فقد وجد العالم الاوربي في سقوط الرها نذيـــرا وايذانا بتضعضع البناء الصليبي بكامله ، وتنبيها بخطورة الاوضاع فـــي الجزيرة والشام التي استعادت نشاطها ، مما دعاهم الى ارسال حملـــة صليبية ثانية . كما دفع ذلك امير انطاكيه الى ادراك عدم تمكنـــه مـــن مجابهة عماد الدين زنكي بمفرده ، فاعلن تبعيته للامبراطور البيزنطي مقابل مساعدته ضد عماد الدين [٢] . اما نتائج هذا الفتح على العالم العربي الاسلامي ، فبدا في شعور المسلمين بقوتهم ، وشعورهم بامكانية القضاء على الصليبيين . فدفع هذا من جاء بعد عماد الدين لتحقيقه [٣] . وقـــد حقق هذا الفتح على صعيد الامارة الزنكية نتائج على درجة كبيرة من الاهمية. فقد ادى بالدرجة الاولى الى اتصال املاك الزنكيين ، وفتح الطريق الـــى آسية الصغرى . واعطى لعماد الدين مكانة هامة امام السلطان السلجوقـــي والخليفة العباسي [٤] .

---

١ ـ ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٤٧ ـ ٤٨ ـ ابن الاثيـــر : التاريخ الباهر ، ص ٨٧ ـ ٨٨ .

٢ ـ عماد الدين خليل : المرجع السابق ، ص ١٥٤

٣ ـ ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ٦٩

٤ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٨٤ ـ ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ٦٩ ـ ٧٠ .

ـ الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ١١٢

٢ ـ الحملة الصليبية الثانية

اثر سقوط الرها اتخذ القرار بارسال حملة صليبية عرفت باسم الحملة الصليبية الثانية ،قاد ها كل من لويس السابع ملك فرنسا ،وكونراد الثالث امبراطور المانيا (١) . ورافق كل منهما جيشا يتألف من سبعين الف مقاتل في مصادر ، وعشرين الفا في بعضها الآخر . كما اتخذت هذه الحملة طريق البر دون البحر ، لئلا تعتمد على اسطول جزيرة صقلية .

واجهت الحملة صعوبات في القسطنطينية واسية الصغرى لاسباب متعددة كان على رأسها :

١ ـ انعدام الثقة بين الصليبيين والبيزنطيين مما دفع البيزنطيون الى عقد صلح مع السلاجقة بعد ان كانوا على وشك الانتصار عليهم . وقد بدا ذلك في بعض الأمور منها :

ـ ما فعله الصليبيون من اعتداء على اهالي البلاد التي مروا بها ، وما قاموا به من نهب وسلب .

ـ اشترط البيزنطيون لمساعدة الحملة ، تعهد رؤسائها باعلان تبعيتهم للبيزنطيين من جهة ، الى جانب تسليمهم كل ما يستولون عليه في آسية الصغرى من السلاجقة . وكانت الصعوبة في اعلان التبعية لبيزنطية تنبع من كون زعماء الحملة من كبار ملوك الغرب الاوربي ، وليسوا مجرد امراء محليين كما هو الحال في الحملة الاولى .

---

١ ـ زكي النقاشي : العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية ، دار الكتاب اللبناني ١٩٥٨م ص٤٠

رفض كونراد الثالث الاعتراف بالتبعية للامبراطور البيزنطي لذلك فانه حرم من المساعدات البيزنطية ، كما انه اخطأ باجتيازه طريق اواسط آسية الصغرى ، فتعرض لهجمات شديدة من قبل السلاجقة أدت الى فشله (١) . على حين اذعن الملك لويس السابع لرغبة الامبراطور البيزنطي بتقديم يمين الولاء والتبعية ، وسلك الطريق المحاذي لساحل البحر الابيض المتوسط ، حتى انطاليا ، ومنها ركب البحر الى انطاكيه .

حين وصل لويس السابع مع جنوده ، الى انطاكية ، وجد نفسه وسط تيارات متعارضة امام محاولة امراء الصليبيين في كل امارة جذبه الى طرفه ، لتحقيق اهداف خاصة . وافلح ملك بيت المقدس في صرف الحملة عن اهدافها التي خرجت من اجلها ، واقنع ملك فرنسا بمهاجمة مدينة دمشق والاستيلاء عليها .

لقد اتخذ هذا القرار الخاطيء الذي يدل على خيال ضيق ،من خلال أفق المصلحة الانانية لمملكة بيت المقدس وزعمائها ، علما بانه لا عداوة بينهم وبين ملوك دمشق الذين لم يحاولوا التوسع على حساب الصليبيين ، بل كانوا أقرب الى العطاء ، وعلى ايديهم سلمت مدينة بانياس للصليبيين (٢) . على حين كان الزنكيون يشكلون خطرا كبيرا ،عملت قادتهم على التوسع على حساب الصليبيين ،فقضوا على امارة الرها ، وقلصوا حدود امارة انطاكية . ويبدو ان هذا القرار اتخذ للثأر والانتقام من حكام دمشق الذين نهضوا للدفاع عن مدينة بصرى بالتعاون مع نورالدين زنكي في العام السابق . اضافةالى مطامعهم في المنطقة الغنية والخصبة التابعة لامارة دمشق ، وقطع الطريق بين مصر

---

١ ـ عاشور : اوربا في العصور الوسطى ، ص ٤٤٠

٢ ـ انظر فيما سبق

وبلاد الشام • وفوق هذا وذاك فان اسم مدينة دمشق ورد في الكتاب المقدس فاحتلالها ترديد لمجد المسيح في سائر الانحاء •

وصل الصليبيون الى دمشق ، والقوا الحصار عليها في ربيع الاول سنة ٥٤٣ هـ/ ٢٤ تموز يوليو ١١٤٨ م (١) • وعلى الرغم مما بذلوه من جهد ، فانهم فشلوا في تحقيق اهدافهم لعدة اسباب (٢) :

١ ـ قوة دفاع معين الدين انر عن المدينة ، وتهديد الصليبيين بتسليمها للزنكيين مع استخدام السياسة ايضا بوعدهم باعطائهم حصن بانياس اذا جلوا عنها •

٢ ـ خوف الصليبيين من وصول الزنكيين وانصارهم لنجدة المدينة وهم في وضع لا يحسدون عليه ، فيقعون بين قوة المدينة وقوة القوات الاسلامية المتحدة (٣) •

٣ ـ شدة الحر وقلة الماء ، بسبب سوء المعسكر الذي اتخذه الصليبيون وذلك بعد انتقالهم من غرب المدينة الى شرقيها (٤)

٤ ـ انقسام الصليبيين على انفسهم حول وضع مدينة دمشق بعد فتحها ، هل تصبح تابعة لامارة بيت المقدس ، ام تشكل امارة مستقلة جديدة ؟ •

نتج عن فشل الحملة في تحقيق اهدافها ، ان قويت نفوس العرب والمسلمين الذين كانوا يخشون دائما من وصول حملة صليبية جديدة فتعمل على تأسيس امارات اخرى • ولكن هذا الوهم انكسر ، فوصلت الحملة ولم

---

١ ـ النقاش : المرجع السابق ص ٤١

٢ ـ انظر تفاصيل المعركة في : ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٩٧ ـ ٣٠١ ـ ابوشامه : المصدر السابق ص ٥١ ـ ٥٢ ـ ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ٨٨ ـ ٨٩ ـ الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ١٢٩ ـ ١٣١

٣ ـ ابن الاثير : الباهر ص ٨٨ ـ ٨٩

٤ ـ ابن الاثير : الباهر ، ص ٨٩ ـ الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ١٣٠

تستطع الوقوف امام جزء من القوات العربية الاسلامية • وانتعشت آمال أهل الشام ووثقوا بقوتهم ، وبدا لهم ان الاجهاز على الصليبيين كلهم ليس بالامر المستحيل • وبدأ نورالدين محمود امير الزنكيين في حلب يعمل على استغلال الفرقة بين الصليبيين ، ليتفرد بكل دولة صليبية على حدة • اما عن الصليبيين ، فقد زرع هذا الفشل الفرقة بين صفوفهم ، وبينهم وبين البيزنطيين •

اعمال نورالدين محمود زنكي

١ — نورالدين والصليبيون

كانت المنطقة التي اصبحت من املاك نورالدين من اخطر المناطق ، لاحاطتها بالاعداء الذين كانوا يترقبون الفرص للانقضاض• وقد استطاع نورالدين على الرغم من كل شيء التغلب على اكثرها • ثم تابع مسيرة والده في جهاد الصليبيين واتمام عملية التوحيد •

دق ناقوس الخطر للمرة الاولى بعد مقتل عماد الدين زنكي بسبعة ايام ، اذ نهض امير انطاكية بوهيموند[١] بعد علمه بما جرى لعماد الدين ،، فجمع قواته بسرية تامة ، فوجه قسما منها الى حماه ،وقاد القسم الاخر باتجاه حلب ، ففاجأ الناس وهم آمنين • وكان لعنصر المفاجأة هذا وقع سيء على الناس مما مكن بوهيموند من قتل وسبي عدد كبير منهم ، وغنم غنائم كثيرة استاقها أمامه (٢) .

نهض اسد الدين شيركوه الذي كان يعمل في قيادة نورالدين لرد هذه الغارة وتخليص الاسرى ،فتمكن من تحقيق جزء من اهدافه ، واستنقذ

---

١ — بوهيموند يعرف بالمصادر العربية باسم بيمند او بيمنت
٢ — ابوشامة : المصدر السابق ،جزء ١ ص ٤٨

عددا كبيرا من الاسرى • ثم عرج على ارتاح ، واستاق جميع ما كان للفرنج بها ، وعاد الى حلب مظفرا (١) .

كما تلقى نورالدين محمود هجمة اخرى من قبل ابن حاكم الرها السابق جوسلين (٢) الذي نهض من قاعدته الجديدة تل باشر محاولا استعادة الرها • فتمكن من الاستيلاء على المدينة دون القلعة ، الا ان نورالدين محمود قدم لانقاذها جادا في السير في زهاء عشرة آلاف فارس بعد ان طلب النجدة من اخيه في الموصل • وتمكن من دخول المدينة ، وهزم ابن جوسلين • وحين وصل المدد من الموصل كان نورالدين قد قضى على هذه المحاولة نهائيا (٣) .

كما واجه نورالدين صليبيي بيت المقدس حين استنجد به صاحب دمشق معين الدين انر يسأله النجدة • وملخص الوضع ان معين الدين انر كان على علاقة سيئة مع التونتاش (٤) نائبه في حكم صرخد وبصرى • فاستغل خروجه من صرخد لمقابلة الصليبيين ، والاتفاق معهم ضد حكام دمشق ، فارسل جيوشه الى المنطقة حيث منع التونتاش من العودة اليها •

حاول صليبيو بيت المقدس اعادة التونتاش الى املاكه ، فراسلوا انر بالتهديد والوعيد والتلطف — دون ان يرعوا من جانبهم المعاهدة بينهم وبين امارة دمشق — • وحين علم بتجمعهم للمسير اليه ، راسل نورالدين محمود النجدة ، فاستجاب له نورالدين مظهرا كل اعتدال في طلب الثمن اذ حصره

---

١ — ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١ ص ٤٨ — ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٨٨ — ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١١ ص ١٢٢

٢ — ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١ ص ٤٨ — ٤٩ — ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ٢٣ أ ، ١٠ اما في ابن الاثير : المصدر السابق ، جز ١١ ص ١١٤ فهو جوسلين نفسه

٣ — ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١ ص ٤٨ — ٤٩ — ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٢٣

٤ — هو غلام امين الدولة كمشتكين الاتابكي

باستعادة حماه فقط • واجتمع الطرفان على مقربة من دمشق لاعداد العدة لمواجهة الفريج • ثم تقدمت جيوشهما فضرب جزء منها الحصار على بصرى ، وبقي الجيش الرئيسي على مقربة من صرخد ، في الوقت الذي وصلت فيه انباء تقدم صليبيي بيت المقدس باتجاه بصرى •

توجه نورالدين محمود ومعين الدين انر بجيوشهما الى بصرى ، حيث اجبرا الصليبيين على الانسحاب ، ومن ثم استسلمت بصرى وصرخد الى معين الدين انر (١) ، الذى اكتفى بهذا القدر من النصر ، ومنع جنوده من متابعة الجيش الصليبي مدعيا انه يخشى ان يكون انسحابهم خدعة • وواقع الامر ان معين الدين انر كان حريصا على توازن القوى في المنطقة ، اذ وجد في تحطيم الجيش الصليبي خطرا عليه من نورالدين نفسه • (٢) حدث هذا التعاون بين نورالدين محمود والدولة البورية ، على الرغم من ان البوريين استغلوا ظروف نورالدين محمود اثر مقتل ابيه ، فاستعاد وامدينة بعلبك (٣) •

بدأ نورالدين اعماله العسكرية الهادفة ضد الصليبيين بالهجوم على الاراضي التابعة لامارة انطاكيه بقصد تحريرها ، والانتقام من الهجمات المتكررة التي كانت توجهها هذه الامارة على حلب • وقرر القضاء عليها ان استطاع ، او على الاقل ان يجعل من نهرالعاصي حاجزا طبيعيا بينهما • وبدأ عمله بالهجوم في سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م على الحصون المحيطة بحلب ، فاستولى منها على حصون ارتاح (٤) ومابولة ، وكفرلاثا وبصرفون (٥) •

---

١ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٩٠
٢ ـ ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٥٠ ـ ٥١ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٢٨٨ ـ ٢٩٠
٣ ـ ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٤٨
٤ ـ حصن من اعمال حلب انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان ، طبعة دار صادر بيروت ، جزء ١ ص ١٤٠
٥ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ١٢٢ ـ ابوالمحاسن ـ المصدر السابق ، جزء ٥ ص ٢٨٠

ولكنه ما لبث ان واجه تهديد الحملة الصليبية الثانية [1] التي خرجت في الاصل كرد فعل لسقوط الرها ، وحين انجلى خطر هذه الحملة استغل نورالدين محمود نتائجها خير استغلال ، وخاصة ماحدث من فرقة بين الامارات الصليبية . وبدأ يوسع املاكه على حسابها ، وينفرد بكل امارة صليبية على حده .

بدأ نورالدين اعماله ضد امارة طرابلس بالتعاون مع معين الدين انر اثر استنجاد اميرها بهما طالبا منهما التدخل السريع لاخذ حصن العريمة القريب من طرابلس [2] . وكان الداعي لذلك ان برتراند ابن عم امير طرابلس ومن امراء الحملة الصليبية الثانية ، قد استولى على حصن العريمة الهام بعد فشل الحملة الثانية في تحقيق اهدافها . واتخذ من موقعه هذا يهدد ابن عمه في عاصمته ، ويتهمه بقتل ابيه .

سار نورالدين وانر في ربيع الاخر سنة ٥٤٣ هـ/ ايلول سبتمبر ١١٤٨م باتجاه حصن العريمة مجدين في عساكرهما ، ونازلا الحصن حتى ملكاه . واسرا من به وقفلا عائدين [3] .

عاد نورالدين محمود بعد ذلك لمتابعة اعماله في امارة انطاكية [4] . ففتح حصن انب شرقي العاصي ، ثم تقدم باتجاه انطاكيه ، فضرب عليها الحصار ، واستمد العون من امير دمشق [5] . ونهض قاطنوا المدينة

---

١ ـ انظر تفاصيل الحملة فيما سبق

٢ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٠٠ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ١٣١

٣ ـ ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٥٥ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ١٣٢ ـ التاريخ الباهر ص ٩٠ ـ ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٥ ص ٢٣٩

٤ ـ ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٥٥ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣ ـ ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ص ١٢٩

٥ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٠٤ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ١٣١

بتنظيم الدفاع بجدية عنها ريثما تصلهم المعونات الصليبية من الامارات الاخرى . وشغلوا نورالدين بالمفاوضات التي قرروا على اثرها قبولهم بالتسليم بعد هدنة موقتة ، وحين ينقطع املهم في الحصول على المعونة المرتقبة (١) . فوافق نورالدين على ذلك ، واستغل هذه الهدنة بفتح مدينة افامية آخر حصن للصليبيين في شرقي العاصي (٢) في ١٨ ربيع الاول من سنة ٥٤٥هـ/ تموز ١١٤٩م . وكان لفتحه اهمية كبيرة بسبب تهديده لمدينتي حماه وشيزر ، ولان فتحه أدى الى دفع اراضي امارة انطاكية الى ما وراء نهرالعاصي واقتصارها على الساحل . ومن ثم فان نورالدين هادن اهالي انطاكية ، وقرر معهم ان يكون ما قرب من الاعمال الحلبية لنورالدين وما قرب من انطاكية للصليبيين (٣) .

اهتم نورالدين اثر ذلك مع غيره من امراء المسلمين بتصفية بقايا اراضي امارة الرها . وذلك اثر تنازل ارملة اميرها جوسلين عن ممتلكاتها الى الامبراطور البيزنطي . وكان نصيب نورالدين منها راوندان وتل باشر قاعدة الامارة الجديدة ، وعينتاب واعزاز وقورس وحصن البارة وتل خالد وكفرلاثا وكفرسوت وحصن بسرفوث (٤) ودلوك ومرعش ونهر الجوز وبرج الرصاص (٥) .

---

١ ـ ابوشامة :المصدر السابق ،جزء ١ص٥٨ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٠٥ .

٢ ـ ابوشامة :المصدر السابق ، جزء ١ص٦٢ ـ ابن الاثير :الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص١٤٩ ـ التاريخ الباهر ص١٠٠ ـ ١٠١ ـ ابن قاضي شهبة :المصدر السابق ص١٣١ ـ ابوالمحاسن :المصدر السابق ،جزء ٥ ص٢٨٥

٣ ـ ابن القلانسي :المصدر السابق ص ٣٠٥

٤ ـ حصن من اعمال حلب في جبال بني عليم

٥ ـ ابوشامة :المصدر السابق ،جزء ١ ص٧٢ ـ ابن الاثير :التاريخ الباهر ص ١٠٢ ـ ١٠٤ ـ الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ص ١٥٤ ـ ١٥٥ ـ وانظر ايضا ارنست باركر : المرجع السابق ص٩٦

٢ ـ محاولات نورالدين لتوحيد بلاد الشام تحت امرته

أ ـ ضم حمص والرحبة

على الرغم من مشاغل نورالدين مع الصليبيين ، فانه كان مهتما بتوحيد بلاد الشام تحت امرته • وكان يستغل الظروف الطارئة لمصلحته •وقد واتته الظروف حين وفاة اخيه الاكبر صاحب الموصل سيف الدين غازي الذي توفي سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م ، وحل محله في امارته اخوه الاصغر قطب الدين مودود • ورأى نورالدين انه قد اصبح رأس الاسرة ، ولا بد له من ان يثبت حقه هذا ، ويجني ما يمكن من مكاسب مع الحفاظ على تضامن البيت الزنكي •

تقدم نورالدين الى سنجار في الجزيرة في مناورة عسكرية ،حيث التقى هناك باخيه قطب الدين • وانتهت هذه المناورة باتفاق الطرفين على تسوية اوضاع الامارة بحيث يأخذ نورالدين كلا من الرحبة وحمص اللتين كانتا من املاك سيف الدين غازي ، على ان يسلمه سنجار وبذلك ازيل التداخل بين املاكهما ، واعترف بنورالدين راسا للاسرة الزنكية •

ب ـ فتح نورالدين لمدينة دمشق

اتخذت الدولة البورية التي كانت تحكم دمشق وما يحيط بها سياسة المحافظة على املاكها من المحيطين بها من مسلمين وصليبيين ،وكثيرا ما حالفت الصليبيين لتعمل على وقف تقدم الزنكيين في اراضيها (١) • ولذلك عمل الزنكيون جاهدين لضمها اليهم ، والقضاء على الدولة البورية •
بدأت المحاولات من قبل عماد الدين زنكي الذي فشل في تحقيقها على الرغم مما قام به • وحين تولى الامر ابنه نورالدين محمود سار على سياسة ابيه • ولكن الظروف اختلفت الى حد ما ، فالصليبيون قاموا بالهجوم على

---

١ ـ آرنست باركر : المرجع السابق ص٦١ـ٦٢

عاصمة حلفائهم دمشق سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م ، واضطر معين الدين انـــر حاكمها الى الاستعانة بنور الدين ضدهم . وفشل الحصار [١]. مما جعـــل لنور الدين مكانة خاصة في المنطقة .

توفي معين الدين انر مدبر امور دمشق ، وعادت امورها الى صاحبها مجير الدين ابق بن محمد بن بوري . ولم يكن على قدر المسؤولية التي حملها ، وتسبب في اثارة الصراع داخل امارته ،مما اطمع فيها جيرانها من الشـمال والجنوب . ولما كان مجير الدين يخشى نور الدين اكثر مما يخشى الصليبيين، لذلك فانه عاهدهم واتفق معهم ان يكونوا يدا واحدة على من يقصدهم مـن عساكر المسلمين [٢] . على حين جعل نور الدين من نفسه حاميا للمناطـق المهددة من الصليبيين ، مما اكسبه مكانة خاصة في قلوب المتدينين ، وفرض على حكام دمشق احترامه . ووصل الامر بهم حين نهض لمساعدة اهالـي حوران ضد صليبيي بيت المقدس [٣] ان عملوا على بذل الطاعة لنور الدين ، واقاموا له الخطبة على منابر دمشق بعد الخليفة والسلطان ، ونقشوا اسمه على السكة بعدهما ايضا ، مع ابقائهم على دفع المال لحلفائهم الصليبيين [٤].

وهكذا اصبح اسم نور الدين علما في مدينة دمشق منذ اوائل ســنة ٥٤٤هـ/ مايس مايو ١١٤٩م ، واصبحت دمشق تتبع له اسميا . وعرفه الاهالي فاحبوه [٥] . واراد نور الدين ان يستغل وضعه هذا ووجود انصار له فـي المدينة ، فتوجه في السنة التالية الى مقربة من دمشق ولكنه فشل في فتحها بسبب تحرك فرنجة بيت المقدس لنجدتها ، ومقاومة مدينة دمشق لـــه .

---

١ ـ ارنست باركر : المرجع السابق ص ٩٥ ـ ٩٦
٢ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٠٨
٣ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩
٤ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣١٠
٥ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣١٠

فانسحب (١) .

لم يكن انسحاب نورالدين نهائيا بل كان ينتظر الفرصة السانحة . وقد وجدها بعد ثلاث سنوات من هجمته السابقة على المدينة . وكانت الاسباب المباشرة لعمله هذا تكمن في احتلال الصليبيين لمدينة عسقلان على الساحل (٢) مما اشعره بانهم اخذوا يمدون حدودهم بعد تقليصها . وان الامر يتطلب السرعة لاشعارهم بان العرب المسلمين واقفون لهم بالمرصاد . ولما كانت امارة البوريين في دمشق تقف حائلا في طريقه ، لذلك قرر فتح دمشق والقضاء على هذه الامارة (٣) .

اتخذ نورالدين في هذه الجولة كافة الاحتياطات وعلى راسها تحطيم الدولة البورية من الداخل ، واثارة الشكوك بين مجيرالدين واعوانه ، وبينه وبين اهالي المدينة ليشعرهم بعجزه عن حمايتهم . ولذلك فانه اتخذ عدة اجراءات كان على رأسها :

- التضييق الاقتصادي على دمشق . ومنع وصول غلات الشمال اليها مما تسبب في غلاء الاسعار وتحرك الشعب ضد الحكام (٤) ، وهي سياسة كان لنورالدين يد فيها ليجعل من التخلص من البوريين قضية تهم كل الناس .
- عمل على التقرب من مجيرالدين حتى وثق به ، ثم اخذ يثير شكوكه ضد

---

١ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣١٣ ـ ٣١٤

٢ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ ـ ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ـ الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ١٨٨ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٤٤ .

٣ ـ ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٠٦

٤ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٧ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ١٤٤

احد كبار رجاله وهو عطاء الخادم ، لانه على رأي ابن القلانسي [١] (لن يكون له امر في دمشق مع وجود عطاء) ثم تابع عمله هذا ببث عدم الثقة بين مجيرالدين وبقية رجاله مما دفع به الى التخلص منهم واحدا بعد الآخر [٢] .

- راسل احداث البلد وزناطرتـه واستمالهم . ووسع شقة الخـــلاف بينهم وبين مجيرالدين ، ثم استمال الغاضبين الى صفه نوعـــدوه بمساعدته وتسليم البلد اليه [٣] . كما احسن الى الاهالي فأحبوه [٤] .

- قام انصاره بنشر دعاية فحواها أن مجيرالدين سبب كل المساوئ .

- استغل قضية تخاذل البوريين امام الصليبيين وتساهلهم مع اسراهم ، ودفعهم اموال الاهالي لاعدائهم ، مع تعرض دمشق نفسها لمخاطرهم ووقوف حكامها سدا في وجه تأديب الصليبيين ، لإثارة الاهالي ضـد البوريين [٥] .

استخدم نورالدين كافة الاحتياطات لفتح مدينة دمشق دون اراقـــة دماء . ولذلك فانه ادعى بانه في سبيل قتال الصليبيين ، وأرسل الى مدينة دمشق قطعة صغيرة من جيشه بقيادة اسد الدين شيركوه ليوهم انها سفارة لا اكثر [٦] . وحين قابلت هذه السفارة مجيرالدين ، اتضح الخلاف الكبير بينهما ، وخرج شيركوه ليعسكر خارج دمشق في الوقت الذي وصلت فيه قوات نورالدين

---

١ – ابن القلانسي : المصدر السابق : المصدر السابق ص ٣٢٦ – ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٠٦ – ١٠٧
٢ – ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ١٩٧
٣ – ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ١٩٨
٤ – ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٢٨ – ٣٢٩
٥ – ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٠٦
٦ – ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٢٧

وعسكرت شرقي المدينة في صفر سنة ٥٤٩هـ/تموز ١١٥٣م [١] • ولم يجد جيش نورالدين كبير مقاومة لا خارج الاسوار ولا داخلها ، بل مابدا كان عكس ذلك• اذ وجد مساعدة من بعض حرفييها الذين فتحوا له الباب الشرقي [٢]، ثم فتح له باب توما [٣] •

وهكذا دخل نورالدين مدينة دمشق على الرغم من استنجاد صاحبها بالصليبيين ،واستقبلها اهاليها بالحفاوة والتكريم [٤] • وقضى بذلك نورالدين على دولة البوريين ، وأصبحت أملاكه تمتد من شمال الجزيرة السورية الى شرقي الأردن في الجنوب •

٣ — نورالدين بين ضم دمشق والسيطرة على مصر

تميز نورالدين خلال فترة العشرسنوات التي سبقت سيطرته على مصر بالحذر الشديد ، فاتخذ مع الصليبيين موقفا أقرب للدفاع منه الى الهجوم • وقد بدا موقفه هذا في عقده هدنة مع ملك بيت المقدس لمدة سنة كاملة ، تعهد له فيها بدفع ثمانية الاف دينار صورية [٥] ، وهو نفس المبلغ الذى كان يدفعه مجيرالدين صاحب دمشق لهم • وقد هدف من وراء ذلك ابعاد شبح الخوف من مملكة بيت المقدس ، لتقف عن مهاجمته ريثما يدبر أموره مع سلاجقة الروم في الشمال ،ويتم سيطرته على بقية ممتلكات الدولة البورية •

لم يثق الصليبيون بهذا الاتفاق ، وأدركوا غاية نورالدين من وراء عقده ، ولذلك فانهم لم يبخلوا باقتناص الفرص لمهاجمة الاراضي التابعة له • ومن

---

١ — ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٢٧
٢ — ابن الاثير :التاريخ الباهر ص١٠٧ — الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ، ص١٩٨
٣ — ابن القلانسي :المصدر السابق ص٣٢٧
٤ — ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٢٧
٥ — ابن القلانسي :المصدر السابق ص ٣٣٦

ذلك ما قاموا به من السطو على مواشي العرب بالقرب من بانياس وأسر من استطاعوا من السكان (١) ثم عودتهم ثانية لنفس العمل وهزيمتهم الساحقة (٢) .

نهض نورالدين لتأديبهم ، وقام بهجمة مرتدة واستطاع على اثرها فتح مدينة بانياس دون قلعتها ، تلك المدينة التي كانوا يهددون منها مراعي الجولان . ثم ما لبث أن تركها بعد تجمع جيوش الصليبيين فيها ، وفاجأ سكان مدينة طبرية فأوقع بهم خسائر فادحة (٣) .

أدرك ملك بيت المقدس انه لن يستطيع وحده الوقوف في وجه نورالدين ، ولذلك سعى الى ايجاد حليف خارجي له . فتحالف مع الامبراطور البيزنطي مقابل اعطائه بعض الصلاحيات في انطاكية ، وأراد ان يثبت وجوده ، فسار حتى داريا (٤) ، ثم ترك الجنوب الى انطاكيه حيث التقى بالامبراطور البيزنطي وتوجها سوية الى حلب .

استخدم نورالدين السياسة لتفرقة صفوف الحليفين . فوعد الامبراطور البيزنطي باطلاق ستة الاف اسير مسيحي مقابل عودته فوافق (٥) . وقد تكون موافقة الامبراطور البيزنطي على ذلك لعدم ثقته بالصليبيين الذين لا يرحبون بصداقته الا حين يهددهم عدو آخر ، اضافة لما يجمع بينه وبين نورالدين من العداء المشترك ضد سلاجقة الروم . وبذلك فشل هذا التحالف . وعاد المتحالفون من حيث أتوا . وورد نورالدين بحصار قلعة حارم مرات(٦) متعددة

---

١ ـ ابن القلانسي :المصدر السابق ص ٣٣٧
٢ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص٣٣٩
٣ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٤٠ـ ٣٤١
٤ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٥٥
٥ ـ ابن القلانسي : المصدر السابق ص٣٥٧ـ ٣٥٨ـ ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ، ص١٥٦
٦ ـ ابن الاثير :التاريخ الباهر ص١٠٩ و١١٦ـ ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ص١٤٩ و ص ١٦٠

وحصار حصن الاكراد (١) .

شغل نورالدين في تلك الفترة عن مهاجمة الصليبيين في عقر دارهم بمشاكل متعددة على رأسها محاولة مجيرالدين اثارة الفتنة في دمشق ضد نورالدين ، مما اضطره الى ابعاده عن حمص حيث كان قد استقر منذ فتح نورالدين لمدينة دمشق (٢) . كما عانت دمشق من وباء انتشر فيها مات فيه الكثير من الشيوخ والشباب والصبيان (٣) . ويضاف الى هذا اضطراب اوضاع حلب بسبب موقف شيعتها من نورالدين (٤) . كما هددت الزلازل المتعددة مدن بلاد الشام بالدمار والخراب ، وصرف نورالدين وقتا وجهدا ومالا في سبيل اعادتها (٥) . وفوق هذا وذاك فان نورالدين اصيب بمرض كاد يقضي على حياته ، حتى ان اشاعة بموته سرت بين الناس (٦) .

٤ ــ نورالدين وتوحيد مصر والشام

عانت الدولة الفاطمية آلام الموت البطيء . وحل بها منذ سقوط عسقلان بيد الصليبيين ازمة خانقة تجلت في مظاهر متعددة . فاخذ الطامعون والمتنافسون يتسابقون على ضمها لاملاكهم . وازداد الوضع الداخلي سوءا منذ تسلم الفائز الخلافة وهو طفل صغير اثر مقتل ابيه سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م . وما لبث ان توفي سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م . فخلفه العاضد وكان صغيرا ايضا . فنهض الوزراء للتنافس على السيطرة ، على شؤون الخلافة ، وتنافس العادل

---

١ ــ ابن الاثير :التاريخ الباهر ص١١٦ ــ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٦٠ ــ ١٦١
٢ ــ ابن الاثير : التاريخ الباهر ص١١٨
٣ ــ ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٣٠
٤ ــ ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٤٩
٥ ــ ابن القلانسي : المصدر السابق ص٣٣٤ وص ٣٣٥ ــ و٣٤٢ ــ و٣٤٣ و ٣٤٥ ــ و ٣٤٦ ــ ابن الاثير :التاريخ الباهر ص١١٠
٦ ــ ابن القلانسي :المصدر السابق ص٣٤٩ وص٣٥٥ ــ ٣٥٦ ــ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص١٥٣

بين طلائع بن رزيك وشاور حاكم الصعيد عليها ، وانتهى الامر بنجاح شـاور وقتل العادل وتسلمه للوزارة سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م . وما لبث التنافس ان دب بين شاور وضرغام صاحب الباب ،وأدى هذا التنافس الى الاستنجاد بنورالدين زنكي (١) .

لم يكن التنافس بين الوزراء ، واستنجاد احدهم بنورالدين ، وضعـف الفاطميين عن مجابهة اعدائهم هو السبب الوحيد الذى دعا نورالدين الى دخول مصر ومن ثم ضمها الى املاكه ، بل كان لمطامع الصليبيين فيها اكبـر الاسباب . وقد بدأ ذلك منذ ان استقر الصليبيون في بيت المقدس . وفكر اول ملوكهم غودفرى بذلك . كما قام بلدوين خلفه في سنة ٥١٠هـ/١١١٦م بحملة استطلاعية وصل بها حتى تنيـس على شاطئ بحيرة المنزلة ، حيث مرض . وتوفي في العريش في طريق عودته سنة ٥١٢هـ/١١١٨م . وحـاول بلدوين الثالث احتلالها وهددها ، فدفع له الخليفة الفاطمي اتاوة قدرها ٦٠ الف دينار . وسعى كذلك عموري الاول (أملريك) الى احتلال مصر بعـد ثلاث سنوات بسبب توقف الدفع (٢) . وقام بغزوها سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م . ولكنهم جميعا لم يستطيعوا تحقيق هدفهم كاملا . ولا يخفى علينا ان هناك سببا قويا ربما حرك عند نورالدين الرغبة في غزو مصر ، وأعني بذلك العامـل المذهبي . ذلك ان الخلافة الفاطمية في مصر كانت مصدرا من مصادر الفرقة في العالم الاسلامي ،لأنها جعلت ولاء المسلمين تتقاسمه خلافتان ومذهبان

---

١ — أبوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ١٠٧ — ١٠٨ — ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية او سيرة صلاح الدين ، طبعة اولى ١٩٢٤ ص ٤٣ — ابن خلكان : وفيات الاعيان جزء ٢ ص ٤٩٩

٢ — LANE-POOLE :OP.Cit.,P.81

احداهـا الخلافة العباسية السنية في بغداد ، والاخرى الخلافة الفاطميـة الشيعية في القاهرة • لذلك كان من الطبيعي ونورالدين متعصب لسنتيـه ، أن يفكر في القضاء على الخلافة الفاطمية في القاهرة [١] • ويمكن القـول بأن نورالدين تمكن من ضم مصر الى املاكه اثر ثلاث حملات ارسلها الـى مصر بأعداد ضئيلة قياسا الى عظمة الهدف•

أ ـ حملة شيركوه الأولى الى مصر :

التجأ شاور الى نورالدين زنكي اثر انتصار صاحب الباب ضرغام عليـه وتسلمه للوزارة ، وأخذ في تحريض نورالدين على غزو الديار المصرية ، فوجد ذلك هوى وقبولا لدى نورالدين •

كانت الحملة الاولى الى مصر في سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م بقيادة أسـد الدين شيركوه ،وبصحبته شاور وصلاح الدين (ابن أخي شيركوه) [٢] ، وكان في السابعة والعشرين من عمره [٣] •وقد ارسلها نورالدين بعد ان تعهد له شاور بثلث دخل البلاد [٤] بعد اقطاعات العسكر • وأن يتصرف بأمر نورالدين ويسمح لجيش شيركوه بالاقامة في مصر [٥] •

رأى ضرغام انه لن يستطيع مقاومة جيش نورالدين بمفرده ، لذلك لم ير بدا للمحافظة على منصبه من الاستنجاد بالصليبيين ، مقابل جعل مصر تابعة لهم [٦] • ولكن مهارة شيركوه وسرعته في قطع الصحراء على الرغم من تقـدم

---

١ ـ عاشور : مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ،طبعة دار النهضة بيروت ١٩٧٢م ، ص ١٣ـ١٤ •
٢ ـ LANE-POOLE :OP.Cit.p.81
٣ ـ سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص١٢
٤ ـ LANE-POOLE :OP.Cit.,p.80
٥ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ص٢٩٨
٦ ـ عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ٢ ص ٦٨٣

سنه جعله يسبق الصليبيين في الوصول الى الدلتا ،فانتصر على جيش أرسله ضرغام ، ونجح في الوصول الى القاهرة في رجب سنة ٥٥٩ هـ/مايو ايار ١١٦٤م [١]
ولم يلبث الجميع ان تخلوا عن ضرغام ، الاعوان والخليفة والجيش ، فقتل اثناء محاولته الفرار [٢] ، وتولى شاور الوزارة [٣] .

لم يرع شاور العهود التي قطعها على نفسه لنورالدين ، فلم يكد يتولى الوزارة حتى تنكر لأسد الدين شيركوه ،وطلب منه الخروج من مصر [٤] .
وقد رد شيركوه على تصرفات شاور باحتلال بلبيس [٥] ، فاسقط في يده ، ولم يجد بدا من الاستنجاد بالصليبيين [٦] . ووعد عموري الأول باعطائه مبلغا من المال مقابل مساعدته في اخراج جيش نورالدين من مصر ، وذلك بأن يدفع لهم عن كل مرحلة بين بلادهم ونهر النيل البالغة سبع وعشرين مرحلة ألف دينار ،وأن يقدم هدية لفرسانهم مع نفقات العلف كاملة .

حضر عموري على رأس جيش صليبي كبير الى الدلتا ،فانضم اليه شاور .
وعلى الرغم من أن شيركوه تلقى مساعدات من عرب كنانة في الشرقية [٧] ، وقوى مركزه في بلبيس ، الا انه حوصر بها [٨] . وقد نهض نورالدين لتخفيف

---

١ ـ عمارة اليمني : النكت العصرية ص٦٨ وما بعدها ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ص ٢٩٨ .

٢ ـ عمارة اليمني : المصدر السابق ص٧٣ ـ ابن الاثير :الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ٢٩٩
ـ احمد بن ابراهيم الحنبلي :شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ،تحقيق ناظم رشيد ،وزارة الثقافة والفنون في العراق ١٩٧٨م ص٢ ـ ابوشامة : المصدر السابق ،جزء ١ ص ١٣٠
ـ LANE-POOLE : op.cit.,p.81-82

٣ ـ LANE-POOLE : op.cit.,p.83

٤ ـ الحنبلي :المصدر السابق ص٢٦ـ٢٧

٥ ـ ابوشامة :المصدر السابق ،جزء ١ ص١٣١ ـ الحنبلي :المصدر السابق ، ص٢٦ ـ عاشور : مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ص١٢ـ١٣ ـ LANE-POOLE :op.cit.p.83

٦ ـ الحنبلي :المصدر السابق ص٢٧ ـ LANE-POOLE :op.cit.p.83

٧ ـ عاشور : المرجع السابق ص١٣

٨ ـ ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص

الضغط عن شيركوه بتشديد هجماته على الصليبيين في الشام ، وجعل هدفه الاول حصن حارم ، فتمكن من فتحه ، وسجن كلا من بوهيموند امير انطاكية ، وريموند كونت طرابلس [١] .

ادرك عموري ان مصلحته في العودة ، ولم يكن شيركوه بوضع يحسد عليه [٢] ، ولذلك جرى اتفاق بينهما على ان يغادر كل من شيركوه وعموري مصر . وتم ذلك فعلا في ذي الحجة سنة ٥٥٩ هـ/تشرين الاول ١١٦٤ م [٣] .

لقد كان لهذه الحملة اهميتها ، اذ تعرف شيركوه عن كثب على سوء احوال الفاطميين ، وتطلع الى القضاء عليهم ، وخاصة لما رآه من ثروتها وغناها وضعف الدفاع عنها [٤] .

<u>ب ـ حملة شيركوه الثانية على مصر سنة ٥٦٢ هـ/١١٦٦ـ١١٦٧م</u>

غادر شيركوه مصر الى بلاد الشام وكان في وده العودة اليها ، لذلك بقي مدة في بلاد الشام يعد العدة في تجهيز حملة ثانية . واستمر حتى سنة ٥٦٢ هـ/١١٦٦ـ١١٦٧م يدبر الخطط بالاشتراك مع نور الدين [٥] على

---

١ ـ ابوشامه :المصدر السابق ،جز ١ ص١٣٢ ـ ابن الاثير :الكامل في التاريخ ، جز ١١ ص٣٠١ـ٣٠٤ .
ـ الحنبلي :المصدر السابق ص٧ ـ LANE-POOLE :op.cit.,p.84
٢ ـ LANE-POOLE :op.cit.,p.84
٣ ـ عاشور :المرجع السابق ص١٣
٤ ـ ابوشامة :المصدر السابق ، جز ١ ،١٣٩ ـ ابن الاثير :التاريخ الباهر ، ص١٣٠ـ١٣١ .
ـ الكامل في التاريخ ،جز ١١ ص٣٠٤ـ٣٠٥ ـ LANE-POOLE:op.cit. p. 84
٥ ـ الحنبلي :المصدر السابق ، ص٢٨

الرغم من تحفظه وخشيته من القيام بمحاولة جديدة ضد مصر في الوقت الذى كثرت اشتباكاته مع الصليبيين (١) . ولكن الظروف اجبرت نورالدين على ارسال حملته الثانية حين ارسل الخليفة الفاطمي العاضد اليه ، يشكو من استبداد وزيره شاور وظلمه وسفكه للدماء (٢) .

بادر نورالدين بارسال حملة شيركوه الثانية على مصر في ربيع الثاني سنة ٥٦٢هـ / ديسمبر ويناير ١١٦٦ـ١١٦٧م . وكان بصحبته في تلك المرة ايضا ابن اخيه صلاح الدين (٣) . ويبدو ان شيركوه علم باستنجاد شاور بالصليبيين ، فلم يشأ أن يغامر بقواته في القيام بهجوم على القاهرة ، واختار ان يعبر النيل الى الجيزة حيث عسكر في مواجهة الفسطاط على الضفة الغربية للنيل (٤) .

اسرع عمورى الاول ملك بيت المقدس ليغزو مصر بجيوشه للمرة الثالثة . فخف شاور لاستقباله عند بلبيس ، واتجه معه جنوبا حيث عسكرا على الضفة الشرقية للنيل ، في حين كان شيركوه لا يزال معسكرا على الضفة الغربية (٥) .

---

١ ـ ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ١٣٩ ـ ١٤١ ـ ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٠ ـ ١٣١
ـ الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ و ص ٣٢٢

٢ ـ ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٥ ص ٣٤٨ ـ عاشور : المرجع السابق ص ١٤ ويورد الحنبلي أن ذلك في ربيع الاول

٣ ـ ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٢ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ١٦٩ .

٤ ـ ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٢ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٣٢٤ ـ عاشور : المرجع السابق ، ص ١٤
ـ LANE-POOLE :op.cit.,p.85

٥ ـ عاشور : المرجع السابق ص ١٤ ـ حسن ابراهيم حسن : الدولة الفاطمية ، ص ١٩٢

أراد الصليبيون أن يعقدوا اتفاقية مع شاور تضمن لهم أجرهم قبل أن يساعدوه في محاربة شيركوه ،فتعهد لهم بدفع اربعمائة ألف دينار في حال بقائهم حتى طرد شيركوه من مصر على أن يدفع نصف هذا المبلغ مقدما [١] . وكانت هذه الاتفاقية تجعل من الصليبيين حماة لمصر والخلافة الفاطمية ، ولذلك فانهم رحبوا بها . وحرص عموري على اعطائها صفة رسمية ، فأرسل سفارة الى الخليفة الفاطمي زارته في قصره حيث تم اعتماد الاتفاق [٢] .

أخذت قوات عموري وشاور تستعد لعبور النيل لمهاجمة شيركوه ،فعبروا الى جزيرة الروضة ، وأراد شاور ان يجعل ساحة المعركة مكانا آخر ،فاتجه الى الصعيد حيث لحق به عموري وشاور . وكان ان دارت معركة بين الطرفين قرب الاشمونين في المنيا ، حيث عسكر في خرائب هيرومويوليس القديمة (البابين فيما بعد) [٣] . وجرت بينهما معركة البابين في ٢٥ جمادى الاخرى سنة ٥٦٢هـ/آذار ١١٦٧م . وقد انتهت هذه المعركة بانتصار شيركوه ،نظرا لما استخدمه من خطط عسكرية جيدة [٤] . وارتد عموري حيث عسكر على الضفة الشرقية للنيل قرب الفسطاط [٥] .

لم يسرع شيركوه لاستغلال انتصاره ودخول القاهرة ، بل تباطأ وآثر ان يستمر على الضفة الغربية للنيل لفتح الاسكندرية . فتلقاه اهلها طائعين ورحبوا به معبرين عن استيائهم لتحالف شاور مع الصليبيين [٦] .

---

١ ـ LANE-POOLE :op.cit.,p.86

٢ ـ عاشور : المرجع السابق ص١٤ـ١٥

٣ ـ ابن الاثير :الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ص٣٢٥ـ٣٢٦ ـ الحنبلي : المصدر السابق ص٣٠ـ عاشور :المرجع السابق ، ص١٥

٤ ـ الحنبلي ص٣٠

٥ ـ ابوشامة :المصدر السابق،جزء ١ ص١٤٣ ـ ابن الاثير :الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص٣٢٦ ـ التاريخ الباهر ص١٣٣ ـ حسن ابراهيم حسن :الدولة الفاطمية ص١٩٢ ـ عاشور : المرجع السابق ، ص١٥

٦ ـ ابوشامة :المصدر السابق،جزء ١ ص١٤٣ ـ ابن الاثير :الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص٣٢٦ ـ ابوالمحاسن :المصدر السابق ،جزء ٥ ص٣٤٩

ترك شيركوه صلاح الدين في الاسكندرية مع خمسمائة فارس [(١)] ، واتجه بباقي قواته الى الصعيد ليتم سيطرته عليه . وفي تلك الأثناء خرج عموري لحصار صلاح الدين بالاسكندرية برا وبحرا . ولم يكن مع صلاح الدين سوى الف رجل الى جانب قلة الزاد . وعلى الرغم من ذلك فانه صبر مع اهالي المدينة على الحصار ،وارسل يستنجد بعمه شيركوه الذى حضر بالمؤن والأموال [(٢)] .

استمر القتال نحو خمسة وسبعين يوما . وعندئذ ادرك عموري أنه لا فائدة من مواصلة القتال ، وخاصة حين علم عموري بسوء موقف الصليبيين في الشام في ذلك الوقت تحت ضغط هجمات نورالدين محمود على حصون امارة بيت المقدس خاصة [(٣)] . فدارت المفاوضات بشأن عقد الصلح ، وبذل الصليبيون والفاطميون لشيركوه خمسين الف دينار واقطاعا بمصر على ان يرجع هو والصليبيون كل الى بلاده [(٤)] ، بعد ان يتم تبادل الاسرى .

لم يغادر عموري مصر في هذه الجولة الا بعد ان اتفق مع شاور على ان يترك بالقاهرة حامية تحمي ابوابها . وان يتعهد بدفع جزية سنوية للصليبيين قدرها مائة الف دينار ذهبي سنوية [(٥)] ، وتعيين مندوب للملك الصليبي في القاهرة يكون له رأى مسموع في شؤون الحكم . وبهذا يكون عموري قد حقق حلما كبيرا في هذه الجولة ، وهو حصوله على السيادة على الخلافة

---

١ — الحنبلي :المصدر السابق ص٣٠

٢ — ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص١٧١ — الحنبلي :المصدر السابق ، ص٣٠

٣ — حسن حبشي : نورالدين والصليبيون ص٤٠ — ٤١

٤ — الحنبلي :المصدر السابق ص٣٠ — LANE-POOLE :op.cit;,p91

٥ — الحنبلي :المصدر السابق ص ٣٠ — ٣١

الفاطمية [1] .

ح ـ حملة شيركوه الثالثة على مصر ووزارته

كان نتاج الحملة الصليبية الثانية كسبا للصليبيين ، يتمثل في جانب من جوانبه بايجاد موضع قدم لهم • ولم يخرج عموري من مصر سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧م الا مضطرا • فقد طمع بما فيها من ثروات ، كما طمع بحماية بلاده من ناحية الجنوب ، اضافة لما لمسه من ضعف القائمين عليها [2] • ولكنه أدرك ان هدفه لا يتحقق الا بمساعدة قوة خارجية ، بسبب وقوف نورالدين محمود موقف المدافع والحامي ، والذاب عن اراضي العروبة والاسلام ، فتحالف مع الامبراطورية البيزنطية على غزو مصر ، واستعجل الأمر • الا أن البيزنطيين طلبوا منه التمهل في التنفيذ ريثما ينهون امورهم في البلقان •

وقد حدث ما شجع عموري على الهجوم بمفرده • من ذلك أن جند الحامية الصليبية في مصر كاتبوه لفتحها ، وهونوا عليه امرها [3] • فأسرع بالتوجه اليها • ويذكر ابن الاثير وأبوشامه [4] بأن جماعة من المصريين كاتبوه عداوة منهم لشاور ، الى جانب طمعه بالانفراد بالصيد الثمين وحده دون البيزنطيين ، وعلمه بأحوال البلاد السيئة [5] ، اضافة الى ان شاور تنكر لالتزاماته السابقة • فقد أثقل دفع ضريبة مائة ألف دينار كاهل ميزانية

---

١ ـ ابوشامة : المصدر السابق ، جز• ١ ص ١١ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ١٧٢ ـ أبوالمحاسن : المصدر السابق ، جز• ٥ ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠ ـ LANE-POOLE :op.cit.,p.91

٢ ـ الحنبلي : المصدر السابق ص ٣٢

٣ ـ ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٣٧ ـ الكامل في التاريخ ، جز• ١١ ص ٣٣٥

٤ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ الباهر ، جز• ١١ ص ٣٣٦ ـ أبوشامه : المصدر السابق ، جز• ١ ص ١٥٤

٥ ـ ابوشامه : المصدر السابق ، جز• ١ ص ١٥٤

الفاطميين ، في الوقت الذي ضعفت تلك الدولة ونقصت موارد ها ، الى جانب ان الرأى العام الاسلامي قد أزعجه وجود حامية صليبية تسيء الى الاهالي ، مما أشعر شاور معه بضرورة تغيير سياسته (١) .

اتصل كل من الخليفة العاضد وشاور بنورالدين (٢) وطلبا مساعدته للتخلص من الحماية الصليبية ، فانتظر نورالدين حتى ينهي حل بعض المشاكل مع بعض الأمراء المسلمين في العراق والشام ، ثم يتوجه الى مصر (٣) .

سار عموري بجيشه الى مصر في منتصف محرم سنة ٥٦٤ هـ/اواخر تشرين الاول اكتوبر سنة ١١٦٨ م (٤) ، فلمس انقلابا كبيرا ، اذ وجد الصد ور المصرية تقف في وجهه مقاومة له ، فلم يستطع دخول مدينة بلبيس في صفر من نفس السنة الا باستخدام العنف ، مما ترك أسوأ الأثر في نفوس الناس (٥) . وزاد الألم والكره في قلوب الناس حين تقدم اسطول قادم من الغرب الى بحيرة المنزلة وعبر النيل من هذا الفرع باتجاه تنيس فدخلها وأنزل بأهلها مذبحة مروعة كتلك التي حلت بأهل بلبيس ، وحين تقدم الجيش البرى باتجاه القاهرة عمل شاور على حرق الفسطاط خشية احتلالها وادخل أهاليها الى

---

١ ــ عاشور : المرجع السابق ، ص١٧

٢ ــ ابوشامه : المصدر السابق ، جز١ ص١٥٤ ــ ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جز٥ ص٣٥٠ ــ الحنبلي : المصدر السابق ص٣٢ و ص ٣٥ ــ LANE-POOLE :op.cit.:p.93

٣ ــ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جز١١ ص٣٣٤ ــ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص١٧٤ ــ ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جز٥ ص٣٥٠ ، LANE-POOLE:op.cit.,p.99.

٤ ــ ابوشامة : المصدر السابق ، جز١ ص١٥٤ ــ ابن واصل : المصدر السابق ، جز١ ص١٥٩

٥ ــ ابوشامة : المصدر السابق ، جز١ ، ص ١٥٤ ــ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جز١١ ، ص ٣٣٦ ــ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٧٥ ــ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٣٢ ــ ٣٣ ــ ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جز٥ ، ص ٣٥٠

القاهرة [١] . وأدرك عموري صعوبة الاستيلاء على مدينة كبيرة كالقاهرة ، وخشي وصول جيش نورالدين بعد أن استنجد به الخليفة العاضد ، فقبل عوضا لشاور بالعودة عن مصر مقابل الف الف دينار مصرية ، على ان يعجل البعض ويؤخر البعض . ولما لم يدفع شاور الا مائة ألف دينار وماطل بالباقي [٢] ، فان عموري لم يغادر مصر بل خرج للقاء جيش نورالدين قبل ان يتحد مع القوات المصرية .

خرج شيركوه الى مصر في ربيع الاول سنة ٥٦٤ هـ/ديسمبر كانون الاول ١١٦٨م ، فبلغ القاهرة بعد شهر تقريبا حيث رحب به الاهالي والتفوا حوله طالبين حمايتهم من الصليبيين ، وهكذا فان عموري فشل هذه المرة ايضا في الاعتماد على حليف ، ووجد ان الجميع اتحدوا ضده . فلم يجد بدا من الانسحاب وعاد الى فلسطين في ربيع الثاني ٥٦٤ هـ/كانون الثاني يناير ١١٦٩م [٣] .

دخل شيركوه مدينة القاهرة فاستدعاه الخليفة العاضد اليه وأخذ ارباب الدولة يترددون عليه لقضاء حوائجهم ، فعلت منزلته وخافه شاور على نفسه . فأرسل خلسة الى الصليبيين يستدعيهم لنجدته ، ويطلب منهم الحضور الى مصر عن طريق دمياط . وأخذ يماطل شيركوه للوفاء بالتزاماته نحوه كسبا للوقت . وانتظارا لوصول الصليبيين لنجدته . وبالاضافة الى ذلك فانه أُخذ

---

١ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص١٠٤ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص٣٣٦ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ١ ص١٥٩ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص١٧٥ - الحنبلي : المصدر السابق ، ص٣٣٦ .

٢ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص١٧٦ - الحنبلي : المصدر السابق ص٣٣

٣ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ١ ص١٦١

LANE-POOLE : op.cit., p.95

يدبر مؤامرة لقتل شيركوه وانصاره اثناء وليمة يدعوهم اليها • ولم تخف مؤامرات شاور على شيركوه وعلى الأمراء في مصر ، فاجتمعوا للتشاور، وارتأى الجميع قتله وانقاذ المسلمين من شره• وتم الامر في ربيع الثاني ٥٦٤هـ/ كانون الثاني يناير١١٦٩م (١) • ومنح شيركوه منصب الوزارة ولقب بالمنصور (٢) • على ان شيركوه ما لبث ان توفي بعد شهرين في آذار من نفس السنة (٣) ، فخلفه في الوزارة ابن اخيه صلاح الدين وتلقب بالناصر (٤) •

---

١ ـ LANE-POOLE : op.cit.,p 96

٢ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص١٧٨ـ١٧٩ ـ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٣٥ـ ٤٢ LANE-POOLE:op.cit., p 96

٣ ـ الحنبلي : المصدر السابق ، ص٤٣ـ E-POOLE:op.cit.,p 97

٤ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٧٩ـ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٦٨ وما بعدها •

الفصل الثالث

الأيوبيون : أصلهم ، علاقاتهم مع الزنكيين

أصل الأيوبيين

وزارة صلاح الدين الأيوبي للعاضد الفاطمي

١ ـ أعماله في القضاء على الثورات الداخلية

٢ ـ أعماله ضد الصليبيين فترة وزارته

أ ـ صد الصليبيين عند دمياط

ب ـ هجوم صلاح الدين على الصليبيين

سقوط الخلافة الفاطمية

العلاقات بين صلاح الدين ونور الدين بعد سقوط الخلافة الفاطمية

الفصـل الثالـث

الأيوبيـــــون

أصلهم ، علاقاتهم بالزنكييـن

أصل الأيوبيين

ينتسب الأيوبيون الى أيوب بن شاذى من الأكراد الروادية ، وهـــم بطن من الأكراد الهذبانية • وقد استقرت هذه القبيلة في بلدة دوين في آخر اذربيجان قرب خلاط ، وبلاد الكرج (١) • وقد جعل البعض اصلهم من العرب المهاجرين من الجزيرة العربية ، ونسبوهم الى بني أمية (٢) • ويبدو أن هذا النسب أورده من أراد التقرب منهم حين أضحوا ملوكـــــا وسلاطينا • ويمكن القول بأن هذه القضية لا تستحق الوقوف عندها ، لأن العروبة في أيام الأيوبيين لم تكن ذات مضمون عرقي ، ولم تعد بالتالـــي قاصرة على المتحدرين من قبائل عربية ، بل أضحت ذات مضمون حضـارى ، وتشمل كل القاطنين في أرض الوطن العربي من الذين تكلموا اللغة العربية وتثقفوا بها •

كان لشاذى من الولد أيوب وهو الأكبر وشيركوه • قدم بهما العـــراق حيث خدما شحنتها في تكريت (٣) • وتعرفا بها بعماد الدين زنكي في ربيع الآخر سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م اثر انهزامه الى تكريت من قراجة الساقي (٤) • وقدما له معونات مختلفة ، ثم التحقا بخدمته في الموصل في حدود سنة ٥٣٢

---

١ ـ احمد بن ابراهيم الحنبلي :المصدر السابق، ص٢١ـ٢٣ـ ابوالمحاسن : المصدر السابق ،جزء٦ ، ص٣ـ٤ •

٢ ـ ابوشامة :المصدر السابق ،جزء١ ص ٢١٠

٣ ـ الحنبلي : المصدر السابق ، ص٢٣

٤ ـ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٣٤١ـ ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء١ ، ص ٤

هـ/١١٣٧م ، فأحسن اليهما ،وجعل أيوب على بعلبك اثر فتحها اوائل سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م فحفظ لعماد الدين معروفه (١) ،كما قلد شيركوه قيادة الجيش (٢) .

لم تستمر بعلبك في يد أيوب ،بل خضعت لنفوذ أمير دمشق الـذي استخلصها من أيوب مقابل اقطاعات كبيرة منحها له (٣) . فانتقل أيـوب بعدها ليقيم مع أخيه في دمشق ،حيث أصبحا من كبار أمرائها (٤) .

ولد لنجم الدين أيوب ليلة رحيله من تكريت الى الموصل سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧ـ١١٣٨م ولد اسماه يوسف ،ولقب بصلاح الدين . نشأ في احضـان اسرته في بعلبك . وأخذ عن أبيه أيوب براعته في السياسة وشجاعته فـي الحروب . فنشأ متشبعا بالدهاء السياسي والروح الحربية ، كما تعلم علوم عصره فحفظ القرآن ودرس الفقه والحديث (٥) .

بقي أفراد الأسرة الأيوبية في دمشق منذ سقوط بعلبك ، حتى اتصل أسد الدين شيركوه بنورالدين محمود صاحب حلب ، فأكرمه وجعله من أكابر أمراء دولته ، وأقطعه حمص والرحبة ، وأسند اليه قيادة الجند (٦) . وكان لشيركوه دورا بارزا في ضم مدينة دمشق لنورالدين . فقد كاتب أخاه نجـم الدين أيوب فيها طالبا منه المساعدة فوافق (٧) . ولما تبعت دمشـق للزنكيين أصبح شيركوه ونجم الدين أيوب من كبار أمراء جيش نورالدين (٨) .

---

١ ـ الحنبلي :المصدر السابق ص١٢ـ٢٤ـ ابوالمحاسن :المصدر السابق، جزء٦ ص٤ـ٥
ـ محمد حمدي المناوي : الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ص ٢٦٠
٢ ـ ابن شداد : المصدر السابق ص٦
٣ ـ الحنبلي : المصدر السابق ص٢٣ـ ابوالمحاسن:المصدر السابق،جزء٦ص٥
٤ ـ ابوالمحاسن : المصدر السابق ،جزء٦ ، ص ٥
٥ ـ ابن شداد :المصدر السابق ص ٥ـ٦ وص ٩ـ١٠
٦ ـ ابوالمحاسن :المصدر السابق ،جزء٦ ص٥
٧ ـ ابوالمحاسن :المصدر السابق ،جزء٦ ص٥
٨ ـ ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء٦ ص٦

وكان ذلك ايذانا بجعل نورالدين لأسد الدين شيركوه قائدا لحملاته الثلاث التي أرسلها الى مصر ، وانتهت باعتلاء صلاح الدين الأيوبي لدست الوزارة ٠

وزارة صلاح الدين

١ ـ أعماله في القضاء على الثورات الداخلية

تولى صلاح الدين الوزارة بعد وفاة عمه شيركوه في جمادى الثانية سنة ٥٦٤هـ/ آذار مارس ١١٦٩م ٠ وتلقب بالناصر ٠ وكان من الصعوبة بمكان ان يحافظ صلاح الدين على منصبه في مصر ،وذلك للأسباب الآتية :

ـ كان اختيار الخليفة الفاطمي العاضد لصلاح الدين ،لصغر سنه وعدم خبرته ورجا أن يكون اسلس قيادة وأطوع لأمره ٠ ويغى من وراء ذلك أن يجعله أداة سهلة في يده ، يستعين به على بقية امراء نورالدين في مصر ٠ ولكن أمله خاب حين نهض صلاح الدين ليثبت انه ليس العوبة وأنه يتصرف بمركزه بنفسه وبقوة واقتدار (١) ٠

ـ كان جيش شيركوه في مصر يضم جماعة من أكابر النورية الذين تطلعوا جميعا الى منصب الوزارة عقب وفاة شيركوه ، وامتعضوا لتعيين صلاح الدين وزيرا ،ووقفوا منه موقفا أقرب الى العداء (٢) ٠

نهض صلاح الدين بأعباء الوزارة بهمة واقتدار ، فاستمال الناس اليه بالبذل والعطاء ،وعمل على السيطرة على الجند في مصر بشكل تام ، في الوقت

---

١ ـ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٦٧
ـ سعيد عاشور :الحركة الصليبية ، جزء٢ ص ٧٠٦ـ٧٠٧

٢ ـ أبوشامه : المصدر السابق ، جزء١ ، ص ٧٣ ـ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٦٦ ـ ٦٧ ـ أبوالمحاسن : المصدر السابق ،جزء٦ ص ١٧ـ١٨

الذى تسلم قوة من بلاد الشام ـ على رأسها أخوه شمس الدين توران شاه ـ أمده بها سيده نور الدين محمود [١] . وقضى على المشاكل والمؤامرات التي واجهته منذ مطلع حكمه وعلى رأسها فتنة رئيس بلاط قصر الخليفة العاضد ، الخصي النوبي مؤتمن الخلافة جوهر ، زعيم الجند السودانيين وقائدهم .

طمع مؤتمن الخلافة بمنصب الوزارة ، وساءه أن يرى سيطرة صلاح الدين على قصر الخلافة الفاطمية ، وكان يملك ما يشجعه على التحرك ، ذلك ان الجند السودانيين كانوا يشكلون الكثرة الغالبة في الجيش الفاطمي ، اضافة الى أنه يستطيع أن يجعل من الصليبيين أعوانا له لتحقيق هدفه [٢] .

حاك مؤتمن الخلافة خيوط المؤامرة ، وأرسل خطابا الى ملك بيت المقدس عموري طالبا منه المساعدة . فوقع الخطاب في يد رجال صلاح الدين [٣] الذين اطلعوه على خيوط المؤامرة ، فأمهله قليلا ، ثم ما لبث أن قبض عليه وقتله في ذي الحجة سنة ٥٦٤ هـ / ٢٠ آب اغسطس ١١٦٩ م [٤] ، وأتبع صلاح الدين ذلك بابعاد جميع الخدم الخصيان من السودان عن قصر الخلافة الفاطمية ، اثر نهوض ما يزيد على خمسين الف منهم بالثورة

---

١ ـ ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ١ ص ١٧٤ ـ الباز العريني : المرجع السابق ، ص ٣٥ .

٢ ـ ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ١ ص ١٧٤ ـ ١٧٥ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ١٨٣ ـ ١٨٤ ـ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٧١ ـ Wiet : L'Egypte Arabe.,Paris.,p.300

٣ ـ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٧٢ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ١٨٤ .

٤ ـ ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ١٧٨ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦ ـ الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٧٢ ـ على حين جاء في المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جزء ٣ ، ص ٣١٢ ـ أن قتله كان في ذي القعدة

ضده[1]، فقضى على بعضهم من المشاغبين[2]، وجعل أمر الأشراف على القصر الى بهاء الدين قراقوش وهو خصي أبيض من أتباع صلاح الدين[3].

وهكذا تخلص صلاح الدين من عناصر الخيانة، ولم يبق أمامه إلا كبار الاقطاعيين وملاك الأراضي الذين يدفعهم الخوف على ممتلكاتهم وضياعهم الواسعة الى مساندة الفساد والحرص على عدم تغيير الأوضاع القائمة. فتخلص صلاح الدين منهم، واحل محلهم في أراضيهم جماعة من رجاله من اهل الشام[4].

كان صلاح الدين في هذا الدور يقوم بأعماله بوصفه نائبا عن نور الدين في مصر، لا على أنه وزير للخليفة الفاطمي. وقد احتفظ صلاح الدين بذلك بعطف نور الدين ورعايته، فخاطبه في مكاتباته بلقب أمير. وحقيقة الأمر ان صلاح الدين لم يكن باستطاعته حتى هذا الوقت الاستغناء عن معونة نور الدين، ومازال الطريق أمامه مليئا بالصعاب في داخل البلاد، في الوقت الذى كان فيه الصليبيون يتحفزون على الحدود الشرقية للبلاد[5].

---

١ - ابوشامه : المصدر السابق، جز١ ص ١٧٨
- ابن الاثير : الكامل في التاريخ، جز١١، ص٣٤٥-٣٤٦ - الحنبلي : المصدر السابق ص٧٢ - على حين جاء في المقريزى : اتعاظ الحنفا، جز٣ ص٣١٢، أن قتله كان في ذى القعدة.

٢ - ابن الاثير : المصدر السابق، جز١١ ص٣٤٦-٣٤٧ - المقريزى : اتعاظ الحنفا، جز٣ ص٣١٢ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ١٨٤-١٨٥ - الحنبلي : المصدر السابق ص٧٢
- Wiet:op.cit.p.301 - عاشور : مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ص٢٠

٣ - المقريزى : اتعاظ الحنفا، جز٣ ص٣١٢ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ١٨٤ - الحنبلي : المصدر السابق ص٧٢

٤ - المقريزى : المصدر السابق، جز٣ ص٣١٣ - عاشور : مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ص٢٠

٥ - عاشور : الحركة الصليبية، جز٢ ص ٧٠٩

٢ ـ أعماله ضد الصليبيين فترة وزارته

أ ـ صد الصليبيين عن دمياط

شعر الصليبيون في الشام بالقلق والرعب بعد أن استقرت أمور مصر ، وأصبحت تابعة لنورالدين . وأدركوا أنهم أصبحوا بين فكي كماشة ، وأن القوات النورية أحاطت بمملكة بيت المقدس الصليبية من الشمال الشرقي والجنوب الغربي ، واضافة الى ذلك فان الدولة النورية سلبت الصليبيين السيادة على الجزء الشرقي من البحر المتوسط لتملكها الاسكندرية ودمياط وغيرهما من الموانئ .

أدى هذا الفزع والقلق على المستقبل بعموري الى ان يرسل سفارة الى الغرب الأوربي لطلب معونة عاجلة ،وشملت دعوة السفارة كل من المانيا وفرنسا وانجلترة وصقلية ، ويضيف كل من أبي شامة والحنبلي دعوة الفرنج في الأندلس (١) ، لانقاذ اخوانهم الصليبيين في الشرق . ولكن الاوضاع السياسية في غرب اوربا عندئذ لا سيما ما يتعلق منها بالنزاع بين البابوية والامبراطورية حالت دون تحقيق امنية عموري الأول ، وبذلك لم يبق أمام الصليبيين في الشام سوى الاتجاه للدولة البيزنطية ، طالبين مساعدتها (٢).

لم يكن الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين يقل خوفا عن عموري من اتحاد مصر والشام تحت زعامة نورالدين ،فرحب مانويل فورا بهذا العرض متناسيا خطأ عموري السابق وتجاهله للتحالف مع مانويل حين أسرع بالهجوم

---

١ ـ ابوشامة : المصدر السابق ،جزء١ ص١٨٠ ـ الحنبلي : المصدر السابق ، ص٧٣ ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا ،جزء٣ ص٣١٥ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص١٨٦

٢ ـ الشيال : تاريخ مصر الاسلامية في العصرين الأيوبي والمملوكي ، جزء٢ ، دار المعارف ١٩٦٧م ، ص ٢٢ ، نقلا عن وليم الصوري

على مصر وحده • وأعد اسطولا كبيرا غادر الدردنيل في شوال ٥٦٤هـ/تموز ١١٦٩م قاصدا قبرص، ومنها الى صور ثم عكا للاتفاق مع الصليبيين على الخطة المشتركة لغزو مصر (١) • وتم الاتفاق على غزو مصر برا وبحرا عن طريق دمياط • فأقلع الأسطول البيزنطي تجاهها، في حين زحف الصليبيون برا في صفر ٥٦٥هـ/ تشرين اول اكتوبر ١١٦٩م (٢) من عسقلان الى الفرما قاصدين دمياط ومعهم المنجنيقات والدبابات والات الحصار (٣) • واذا استطاع الصليبيون نصب معسكرهم أمام دمياط، فان الاسطول البيزنطي لم يستطع دخول الميناء بسبب المآصر (٤) •

أصبح صلاح الدين في موقف حرج • فقد كان يخشى المؤامرات الداخلية ضده، كما كان لا يثق بالاعتماد على الجيش المصرى (٥) ، ومن جهة ثالثة فانه فوجئ بالقاء الجيش البيزنطي الحصار على دمياط التي لم يهتم بتحصينها • فقد كان يظن أنهم سيقتفون اثر الحملات السابقة، وينزلون بلبيس التي حصنها مع القاهرة والاسكندرية وغيرها من المراكز الامامية •

ارسل صلاح الدين الى نورالدين طالبا النجدة (٦) ، فوصلته نجدات متتالية، فعمل على ارسال قوة الى دمياط بقيادة ابن أخيه تقي الدين عمر،

---

١ — عاشور : مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك، ص٢١

٢ — الحنبلي : المصدر السابق ص٧٣

٣ — ابن واصل : المصدر السابق، جزء١ ص١٨٠

٤ — هي السلاسل الحديدية الممتدة بعرض الميناء لتمنع دخول سفن الأعداء

٥ — ابوشامة :المصدر السابق، جزء١ ص١٨٠ — ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ١٨٦
— المقريزى : اتعاظ الحنفا، جزء٣ ، ص ٣١٥

٦ — ابوشامة :المصدر السابق، جزء١ ص١٨ —الحنبلي :المصدر السابق، ص٧٣

وخاله شهاب الدين ، استطاعت دخول دمياط (١) . وأخذ صلاح الدين يمد هذه القوة بكل ما يستطيع عن طريق النيل . كما استغل اهالي دمياط جريان النيل من الجنوب الى الشمال ،واطلقوا على سطح الماء اواني فخارية مملئة بمواد مشتعلة ، أنزلت أبلغ الضرر بالأسطول البيزنطي . فاضطر للابتعاد عن لسان النيل والمدينة .

وقد انتشرت شائعة بين رجال عموري بأن البيزنطيين انما ينوون ان يستأثروا بدمياط لأنفسهم عند سقوطها ، الأمر الذى أضعف ثقة الصليبيين بالبيزنطيين وبدأ الانقسام في معسكر العدو ، فكان البادرة الأولى من بوادر الفشل ، ودخل الشك في نفوس الحليفين ،فأضعف قوتهم . وأخيرا وجد الصليبيون ان انتظارهم طال أمام دمياط دون جدوى ، في الوقت الذى كانت قواتهم فيها معرضة لهجوم صلاح الدين من الخلف ، ومراكزهم في الشام تعرضت لهجمات نورالدين (٢) . ولذلك فانهم قرروا رفع الحصار عن دمياط ، وعادوا الى عسقلان خائبين ، فوجدوا بلادهم خرابا وأهلها بين قتيل وأسير . حتى ان المؤرخ ابن الاثير وابن قاضي شهبة وصاحب الروضتين ونقل عنهم كل من سعيد عاشور وحسن ابراهيم حسن (٣) شبهوهم بالنعامة التي خرجت تطلب قرنين ،فرجعت بلا

---

١ ـ أبوشامة : المصدر السابق ،جز.١ ص١٨٠ ـ ابن واصل :المصدر السابق ، جز.١ ، ص١٨٣ ـ المقريزي :المصدر السابق ،جز.٣ ، ص٣١٥ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص١٨٦ـ١٨٧ ـ الحنبلي : المصدر السابق ، ص٧٣ ـ Wiet:op. cit.,p. 301

٢ ـ ابوشامة :المصدر السابق ،جز.١ ص١٨٠ ـ ابن شداد : المصدر السابق ، ص٤٣ ـ ابن الاثير :الكامل في التاريخ ،جز.١١ ص٣٥٢ـ٣٥٣ ـ ابن قاضي شهبة :المصدر السابق ص١٨٦ ـ المقريزي :اتعاظ الحنفا ،جز.٣ ص٣١٥

٣ ـ الكامل في التاريخ ،جز.١١ ص٣٥٢ ـ الكواكب الدرية في السيرة النورية ، ص١٨٦ ـ ابوشامة ،جز.١ ص١٨٦
ـ الحركة الصليبية ،جز.٢ ص٧١٣
ـ تاريخ الدولة الفاطمية ، ص١٩٩

أذيين • وكذلك انسحبت السفن البيزنطية ، فغرق كثير منها ، وظلت الامواج تقذف جثث بحارتها على الشاطئ • طوال ايام متتالية (١) ، ولعل اهم نتائج هذه الحملة انها ثبتت اقدام صلاح الدين في مصر ،وجعلت الخلافة الفاطمية تفقد آخر أمل تبقى لها في التخلص من قبضته القوية • وكان ان ارسل الخليفة الفاطمي — عقب انسحاب الصليبيين — الى نورالدين يرجوه سحب جند الاتراك من القاهرة بحجة انهم بثوا الرعب في قلوب اهلها • ولكن نورالدين ارسل اليه يعتذر عن عدم اجابته الى طلبه • ويوضح له ان بقاء اولئك الجند أمر ضروري لحماية مصر من خطر الصليبيين (٢) • ومن نتائجها ايضا تأكد الصليبيين بأن نورالدين أصبح خطرا حقيقا على امارتهم في الشام ،لأن ضم مصر الى الشام جعل هذه الامارات الصليبية بين فكي كماشة من الشمال والجنوب (٣) •

ازداد موقف نورالدين قوة في تلك الفترة بجعل الموصل تحت سلطانه ، اثر وفاة اخيه • كما سيطر على نصيبين ووادي الخابور • وليس أدل على قوة نورالدين في العالم الاسلامي حينئذ من ان الخليفة العباسي المستضيء أرسل اليه وهو على حصار الموصل خلعة تكريما له،واعترافا بقدره (٤) •

ب — هجوم صلاح الدين على الصليبيين

كان انتصار صلاح الدين على الصليبيين والبيزنطيين في دمياط ، نقطة تحول هامة في العلاقات بين الطرفين ، فما أن ثبت أقدامه في مصر ،

١ — عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ٢ ص ٧١١ — ٧١٣

٢ — عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٢٢ — ٢٣ — الشيال : المرجع السابق ص ٢٥

٣ — الشيال : المرجع السابق ص ٢٥

٤ — ابوشامة : المصدر السابق ،جزء ١ ص ١٨٦ — ١٩٠ — ابن الاثير الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ص ٣٦٢ — ٣٦٤ — ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٩٠ — ١٩١

حتى بدأ يوجه جهوده ضد الصليبيين • ففي اوائل ربيع الأول ٥٦٦ هـ / كانون الأول ديسمبر ١١٧٠ م خرج صلاح الدين من مصر لمهاجمة قلاع الصليبيين على شواطئ فلسطين ، فبدأ بحصار قلعة الداروم جنوب غزة ، ثم حاول الاستيلاء على غزة نفسها • ولكن صلاح الدين لم يستطع تنفيذ غرضه بسبب موقف عموري الحازم الذي خرج على رأس قواته لمواجهته (١) •

استعد صلاح الدين لمهاجمة الصليبيين ثانية في ١٥ ربيع الاول ٥٦٦ هـ / كانون الاول ديسمبر ١١٧٠ م ، وتوجه الى ايلة ، وكان بها قلعة منيعة • وقد استعد لهذا الهجوم بحمله مراكب مفصلة على الجمال ، فألقى المراكب المحمولة معه بعد اقامتها واصلاحها في البحر وشحنها بالرجال والسلاح • فهاجم قلعة ايلة برا وبحرا حتى افتتحها في ٢٠ ربيع الثاني من تلك السنة ، وسلمها لثقات من اصحابه بعد أن أسر أفراد حاميتها ونقلهم الى القاهرة (٢) •

كما شدد نور الدين هجماته على الصليبيين ، فارسل قوة لمهاجمة امارة انطاكية في ذي الحجة ٥٦٦ هـ / ايلول سنة ١١٧١ ، وفرقة اخرى احتلت قلعتي عرقه وصافيتا • في حين هاجم بنفسه امارة طرابلس • وقد قام بهذه

---

١ — انظر ابن الاثير : الكامل في التاريخ : جز• ١١ ، ص ٣٦٥ — المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جز• ٣ ، ص ٣٢٠ — ابن واصل : المصدر السابق ، جز• ١ ص ١٩٩ — ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٩٤ — ١٩٥ — ابو المحاسن : المصدر السابق جز• ٥ ص ٣٨٥ — Wiet: op.cit.,p.302

٢ — المقريزى : المصدر السابق ، جز• ٣ ص ٣٢٠ — ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٩٥

— الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٧٤ — ابو المحاسن : المصدر السابق ، جز• ٥ ص ٣٨٥ — ٣٨٦

الهجمات الشديدة والمتابعة عقوبة للصليبيين الذين نقضوا الهدنـــة ، واستولوا على مركبين للمسلمين مملوءين بالأمتعة ، ولم يدع الهجوم إلا بعد أن أفرج الصليبيون عن السفينتين .

وقد شعر الصليبيون نتيجة لذلك بتضييق المسلمين عليهم ،وانه اصبح لزاما عليهم أن يوزعوا قواتهم بين الشمال والجنوب لمواجهة نورالدين وصلاح الدين . فحاول ملكهم عموري الإستعانة بالبابوية والغرب الأوربي ، إلا أن أمله في الحصول على نجدة سريعة كان ضعيفا . ولم يكن أمامه إلا اللجوء الى الامبراطورية البيزنطية ،فأبحر للقاء امبراطورها مانويل كومينين ، وأوضح له الحالة السيئة التي أمسى فيها الصليبيون ، وطلب منه معونة عاجلة ، وقبـل مقابلها أن يعترف بالتبعية للامبراطور البيزنطي . (٢)

ســقوط الخلافة الفاطمية :

كان نورالدين يلح على صلاح الدين بالعمل على اسقاط الخلافـــــة الفاطمية . وكذلك كان الخليفة العباسي المستنجد بالله يرسل لنورالديـن معاتبا لـه على تأخير اقامة الخطبة العباسية بمصر،ومن اجل ذلك ارسـل نورالدين نجمالدين أيوب والد صلاح الدين حاثا له على الاسراع باعـلان الخطبة (١) .

ولم يكن صلاح الدين الأيوبي أقل تحمسا للمذهب السني ، ولكنه لم يكن يستطيع اتخاذ اجراء كهذا قبل اتخاذ الاحتياطات اللازمة بشـــكل

---

١ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ، ص٣٥٣ ـ ابن واصل : المصدر السابق ،جز١ ص ٢٠
ـ المقريزى : اتعاظ الحنفا ،جزء٣ ص٣١٦ ـ ٣١٧ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص١٨٨
ـ ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٧

تدريجي . ولئلا يثير حوله النقمة وغضبة الخليفة العاضد ، الذى لم يبخل في تقديم المعونة له ابان هجوم الصليبيين والبيزنطيين على دمياط (١) . ولذلك فإنه عمل على التقرب من الأهالي ، والتضييق على أنصار العاضد تدريجيا ، فأمر برفع جميع المكوس بديار مصر ، وأبطلها (٢) . ثم اخذ بهدم الأساس المعنوى الذى قامت عليه الخلافة الفاطمية بعد حرمانها من بقايا قواتها العسكرية ، وهو التشيع الفاطمي فأبطل مجلس الدعوة بالجامع الأزهر (٣) ، واخذ ببناء مدارس تدرس على المذاهب السنية . فنهض بهدم حبس المعونة وعمرها مدرسة للشافعية ، وهي أول مدرسة عمرت بمصر لالقاء العلم (٤) . كما انشأ بدار الغزل مدرسة للمالكية بجوار جامع عمرو بن العاص ، عرفت باسم المدرسة القمحية (٥) . كما جعل تقي الدين عمر منازل العز بمصر مدرسة أخرى للشافعية ، عرفت باسم المدرسة التقوية ، ووقف عليها الأوقاف (٦) . وكذلك عزل قضاة مصر من الشيعة ، وولى فيها صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعي قاضيا للقضاة ، وجعل اليه الحكم في جميع بلاد مصر (٧) .

---

١ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٨٦

٢ ـ المقريزى : المصدر السابق ، جزء ٣ ص ٣١٩

٣ ـ المقريزى : المصدر السابق ، جزء ٣ ص ٣١٩ ـ ٣٢٠ ـ الحنبلي : المصدر السابق ص ٧٤
ـ ابن قاضي شهبة ، المصدر السابق ، ص ١٩٤

٤ ـ المقريزى : المصدر السابق ، جزء ٣ ص ٣١٩

٥ ـ المقريزى : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٣١٩

٦ ـ المقريزى : المصدر السابق ، جزء ٣ ص ٣٢٠ وحاشية ٣ لنفس الصفحة ـ الحنبلي : المصدر السابق ص ٧٤ ـ ٧٥ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٩٤ ـ ابو المحاسن : المصدر السابق ، جزء ٥ ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦

٧ ـ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جزء ٣ ص ٣٢٠ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٩٤ ـ ابو المحاسن : المصدر السابق ، جزء ٥ ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦

ونهض ليثبت مركزه بالعمل على زيادة جنده ، وتحصين مصر ، كما حضر اقاربه واصحابه اليها (١) ، واهتم بعمارة السور الجديد لمدينة القاهرة (٢) ، وأمر باصلاح السور والأبراج في الاسكندرية ، فعمر ما تهدم منه (٣) . وحين وجد ان اقدامه اصبحت ثابتة ، عمل على اظهار ما يخفيه . فواعد امراء الشاميين على ان يمضوا الى بيوت الامراء المصريين في الليل ، ويقف كل أمير منهم بجنده ، على باب أمير من امراء مصر ، فاذا خرج للخدمة ، قبض عليه واحتاط على داره وما فيها ، واخذها لنفسه (٤) . ولم ينتشر الضوء حتى صار الامراء الشاميون مكان المصريين ، على حين أصبح الأخيرون أسرى ، ولما بلغ ذلك العاضد ، شق عليه ، وأرسل الى صلاح الدين يسأله عن سبب القبض على الامراء ، فبعث اليه بأن هؤلاء الأمراء كانوا عصاة لأمرك ، والمصلحة قتلهم واقامة غيرهم ممن يمتثل أمرك ، فأرضاه بذلك (٥) .

أقطع صلاح الدين جنوده ، الاقطاعات ، وقبض على جميع بلاد العاضد ، حتى لم يبق له شيئا وقبض على القصور وسلمها الى الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي ، ثم أمر بتغيير شعار الفاطميين ، وأبطل ذكر اسم العاضد من الخطبة ، واستعاض عنه بالدعوة للامام ابي محمد على سبيل التمويه على رأي المقريزي (٦) (فتخاله العامة والروافض العاضد ، وهو يريد أبا محمد الحسن المستضيء بأمرالله أمير المؤمنين الخليفة) .

---

١ ـ المقريزي : المصدر السابق ، جزء ٣ ص ٣٢٠
٢ ـ أبوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٣٢١ ـ المقريزي : المصدر السابق ، جزء ٣ ص ٣٢١
٣ ـ المقريزي : المصدر السابق جزء ٣ ص ٣٢٠ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ١٩٥
٤ ـ المقريزي : المصدر السابق ، جزء ٣ ص ٣٢١
٥ ـ المقريزي : المصدر السابق ، جزء ٣ ص ٣٢١
٦ ـ المصدر السابق ، جزء ٣ ص ٣٢٢

ساعد صلاح الدين على اتمام طريقه الذى بدأه مرض العاضد الذى غلب على الظن انه لن يشفى منه. فجمع اصحابه اليه واستشارهم في ذلك فاختلفوا [١] . وكان في مصر وقتذاك رجل أعجمي اسمه الخبوشاني [٢] . فأعلن استعداده لاعلان سقوط الخليفة الفاطمي ، فألقى بالفسطاط أول خطبة باسم الخليفة العباسي المستضيء بنور الله في اول جمعه من المحرم سنة ٥٦٧ هـ / ١٠ ايلول ١١٧١ م [٣] ، ولم يحتج احد على ذلك. وكان العاضد قد اشتد به المرض فتوفي بعد ثلاثة ايام دون ان يدرى بشيء مما حدث. فقد منع صلاح الدين رجال العاضد من ازعاجه بهذا الخبر اثناء موضه. وبذلك سقطت الخلافة الفاطمية [٤] . واتخذ صلاح الدين بعض الاجراءات الاحتياطية ،منها انه قبض على ابناء العاضد واقاربه ونقلهم الى قلعة الجبل [٥] . وقام بازالة معالم الخلافة الفاطمية ،فنزع المناطق الفضة التي كانت بمحاريب جوامع القاهرة والتي كانت تحمل اسماء الخلفاء الفاطميين [٦].

---

١ — ابن الاثير :التاريخ الباهر ص١٥٦ — حسن ابراهيم حسن : الدولة الفاطمية ص١٩٩ — ٢٠٠

٢ — المقريزى :اتعاظ الحنفا ،جز٣ ص٣٢٩ — ٣٣٠ — وهو نفسه في نفس الكتاب ،جز٣ ص٣٢٣ يذكر ان الذى انتدب مغربي يقال له اليسع بن عيسى بن حزم .ويذكر ابن قاضي شهبة ص١٩٦ وابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جز١١ ص٣٦٩ على انه اعجمي يعرف بالامير العالم

٣ — ابن واصل : المصدر السابق ،جز١ ، ص٢٠١ — المقريزى :المصدر السابق ،جز٣ ص٣٢٩ — ٣٣٠

— ابن قاضي شهبة :المصدر السابق ص٩٦ — Wiet: op. cit., p.302

٤ — ابن واصل :المصدر السابق ،جز١ ص٢٠١ — ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص١٩٦ — ١٩٧ يذكر نقلا عن ابن ابي طي ان العاضد علم بقطع الدعاء له في الخطبة قبل وفاته.

٥ — المقريزى :المصدر السابق ، جز٣ ص٣٤٧ — ويذكر ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص٢٠٠ — وابو المحاسن :المصدر السابق ،جز٦ ، ص٢٠ ذلك دون ان يذكرا اسم المكان الذى نقلوا اليه.

٦ — المقريزى : السلوك في معرفة دول الملوك ، جز١ ، ص٤٣

كان سقوط الخلافة الفاطمية حدثا خطيرا في تاريخ العالم العربي الاسلامي . فقد عادت وحدة الخلافة ، وأصبحت الخلافة العباسية السنية الخلافة الوحيدة التي يدين لها المسلمون بالولاء الديني . وقد أقيمت بهذه المناسبة الاحتفالات في عاصمة العباسيين في بغداد ، تعبيرا عن شعور الفرح بذلك النصر العظيم . وأنعم الخليفة العباسي بهذه المناسبة على نورالدين وصلاح الدين . فأرسل لهما الخلع والأعلام والرايات السود .

العلاقات بين صلاح الدين ونورالدين زنكي بعد سقوط الخلافة الفاطمية .

ما أن سقطت الخلافة الفاطمية ، حتى اصبح هناك صعوبة في تحديد العلاقة بين نورالدين محمود وتابعه صلاح الدين . فقد كان صلاح الدين أيام الخلافة الفاطمية يمارس سلطانه في مصر بوصفه وزيرا للخليفة الفاطمي في نفس الوقت الذي ينفذ فيه تعليمات نورالدين بوصفه نائبا عنه في مصر وقائدا لقواته فيها . ولكنه بعد ان عمل على اسقاط الخلافة الفاطمية ، وشعر بدوره الكبير في هذا المجال ، اراد ان لا تضيع جهده هباء ، وان يثبت مكانته والخدمات الجلى التي قدمها . فخطب لنفسه بعد الخطبة للخليفة العباسي وللملك العادل نورالدين . وقد يكون صلاح الدين لا يقصد بذلك الاستقلال عن سيده نورالدين ، كما انه لم يكن اول من قام بهذا العمل . ولكن الأمر أعطي هالة كبيرة لعدة أمور : أولها ان نورالدين كان يخشى من قوة صلاح الدين وصلابته ، وثانيها أن صلاح الدين كان يحكم بلادا أكبر اتساعا وقوة من تلك التي يحكمها سيده ، اضافة الى انها اكثر استقرارا . وثالثها أن صلاح الدين حقق في مصر أمورا متعددة بجهده الخاص ولذلك فانه لا بد وان يشعر بأنه ليس مقيدا كليا بنورالدين .

وقد يحلو لبعض المؤرخين ان يظهروا صلاح الدين يحاول الاستقلال عن نورالدين منذ فترة مبكرة وعلى رأس هؤلاء ابن الاثير ، وابن ابي طي . فقد جعل ابن الاثير من تأخر صلاح الدين في القضاء على الخلافة الفاطمية محاولة منه لجعلها ستارا بينه وبين نورالدين . فأورد [1] قوله : (وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم (يقصد للفاطميين) ويريد بقاءهم خوفا من نورالدين . فإنه كان يخافه أن يدخل الى الديار المصرية يأخذها منه . فكان يريد أن يكون العاضد معه ،حتى اذا قصده نورالدين ،امتنع به وبأهل مصر عليه) . كما انه جعل احجام صلاح الدين عن قتال الصليبيين على نطاق واسع في الفترة التي تلت سقوط الخلافة الفاطمية ليبقيهم ستارا يفصل بينه وبين نورالدين [2] . وقد يكون موقف ابن الاثير هذا من صلاح الدين لأنه ينتمي الى أسرة تعمل في خدمة الزنكيين ، الذين أصبحوا أعداء ألداء للايوبيين .

أما موقف المؤرخ الآخر ابن ابي طي . فقد بدا واضحا من الروايات التي وردت على لسانه في ثنايا كتاب ابن قاضي شهبه . فقد حاول تشويه موقف نورالدين باظهار وتأكيد عدم ابتهاجه للنجاح الذى حققه الأيوبيون في مصر بقيادة أسد الدين شيركوه على شاور والصليبيين [3] كما صور غضب نورالدين لتسلم صلاح الدين للوزارة الفاطمية فقال : (ولما استولى الملك الناصر (يقصد صلاح الدين) على الوزارة ومال اليه العاضد وبلغ

---

١ ـ ابن الاثير:الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ص ٣٦٨

٢ ـ ابن الاثير : التاريخ الباهر ص١٦١ ـ الكامل في التاريخ جزء ١١ ، ص ٤٠٢

٣ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص١٨١ ـ ١٨٢ وانظر في الكتاب أسباب الخلاف بين الطرفين .

ذلك نورالدين أعظم ذلك وأكبره ، وتأنف منه وأنكره · وقال : كيف أقـــدم صلاح الدين أن يفعل شيئا بغير أمري · وكتب عدة كتب ، فلم يلتفت الملـك الناصر الى قوله ،الا أنه لم يخرج عن طاعته) (١) · وقد يكون سبب موقف ابن ابي طي· هذا من نورالدين ،ما حلّ باسرته من فقدان لنفوذها الديني فــــي حلب بسبب موقف نورالدين المتشدد فيها من الشـيعـــــــة الاثني عشرية ·

وهكذا يصور لنا المؤرخين ان خلافا مبكرا نشب بين نورالدين وصلاح الدين وهما على الرغم من نزاهتهما في الكتابة التاريخية ، الا انهما كانـا من اصحاب الأهواء · اما ضد الايوبيين اوضد الزنكيين · وحقيقة الأمر ان العلاقة بين الطرفين كانت طبيعية للغاية في مطلع الأمر ،ثم بدأ تخـوف الطرفين من بعضهما لمحاولة نورالدين الاهتمام بالوحدة بين املاكه فـي الشام وأملاكه في مصر ، ومحاولة صلاح الدين الحفاظ على مكاســـبه ، وخشيته من عوله من قبل نورالدين · وقد تبدت هذه الوحشـــــــة وخوف صلاح الدين من نورالدين على رأي بعض المؤرخين بما يلي :

١ — حين خرج صلاح الدين في جولتين ضد الصليبيين الى الكرك والشوبك ففي المرة الأولى كان نورالدين قد أصدر أوامره الى صلاح الديــــن بمهاجمـة الشوبك ، فخرج اليها في مطلع سنة ٥٦٧ هـ/ اواخـر ايلول سنة ١١٧١ م ، وهاجم الحصن · وحين علم بسير نورالديــن اليه لمساعدته ، خشي ان تكون غايته عوله عن منصبه والقبض عليه · فأسـرع بالانسحاب الى مصـر قبـل وصـول نورالديـــن فـــي صفـــر سنة ٥٦٧ هـ / اواخر تشـرين الأول ١١٧١م ، معتذرا

---

١ — انظر رواية ابن ابي طي· في كتاب ابن قاضي شهبة :المصدر السابق ، ص١٨١

بأنه لا بد له من الاسراع لمساعدة أخيه الذي كان يحارب بقايا اتباع الفاطميين في الصعيد ، وبأن الثورة تنذر بالاشتعال في القاهرة ، مما تطلب سرعة عودته (١) .

لم يقتنع نورالدين بذلك ، واستاء من مسلك صلاح الدين ، وعظم عليه تصرفه ، وبدأ يستعد للزحف على مصر لتأديبه . فعقد صلاح الدين اجتماعا من أهل بيته وأمرائه ، وقر رأى بعضهم الوقوف موقفا صلبا من نورالدين ، وقتاله اذا حاول مهاجمة البلاد . ولكن نجم الدين أيوب حسم الموقف بذكاء وحسن تقدير ، اذ أوضح لابنه بأنهم قادة لنورالدين تجب عليهم طاعته . وانه لو أمرهم بقتله قتلوه . وطلب من ولده صلاح الدين ان يكتب الى نورالدين يعبر عن ولائه ، ففعل ذلك . وارسل الى سيده ايضا هدية ثمينة من الحيوانات النادرة والجواهر والاقمشة والمصنوعات والعطور (٢) .

ثم جرت مفاوضات بين نورالدين وصلاح الدين على أن يخرجا معا لحصار حصن الكرك ثانية والاستيلاء عليه . وبدأ صلاح الدين الحصار ، وحين بلغه قرب مجيء نورالدين ليساعده ، خشي منه ، فترك حصار الكرك وعاد الى مصر ، معللا عمله هذا بمرض أبيه نجم الدين أيوب ، الذي كان صلاح الدين قد استخلفه في مصر ، وانه يخشى ان توفى خروج البلاد من أيديهم (٣) . فلم يقتنع نورالدين بهذا الاعتذار ، وبدأ يوجس خيفة من نوايا صلاح الدين .

---

١ — ابوشامه : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ — ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ٢١٢ — ٢١٣ — ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ص ٢١ — ٢٢

٢ — ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٢٠٤ — ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ٢١٣ — ٢١٤ — ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ص ٢٢

٣ — ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٢٠٦ — ٢٠٧ — ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ص ٢٢

٢ — اتخذ البعض من حركة التوسع التي قام بها صلاح الدين في اليمن وبلاد النوبة ،أنه قام بها ليبحث لنفسه وأسرته عن ملك جديد • حتى اذا أخرجه نورالدين من مصر انتقل بأسرته الى ملكه الجديد (١)• ولتحقيق غايته ، ارسل صلاح الدين أخاه توران شاه سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢ م لفتح بلاد النوبة • فاستولى على قلعة بلدة ابريم ثم عاد لأنه وجد البلاد قاحلة جرداء لا تصلح للغاية التي توجه للفتح من أجلها • ثم قام بارسال أخيه لفتح اليمن عوضا عن النوبة ، حيث أخضعها سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م (٢) •

هذه هي الآراء التي يوردها بعض المؤرخين كدلائل للجفوة بين نورالدين وصلاح الدين • وهي آراء لا تصمد اذا وضعت على بساط البحث والمناقشة • فمن المعروف ان الفترة الأولى كانت فترة وئام بين الطرفين • وكان صلاح الدين يأتمر بأمر سيده نورالدين • فقد عين نورالدين لقضاء مصر قاضيه ابن أبي عصرون ،وارسله الى مصر وكتب له كتابا للتعيين جاء فيه مدح وامتنان لصلاح الدين وأعماله • ومما جاء فيه :(••• أنت تعلم ان مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها ،فهي من الفتوحات الكبار التي جعلها الله تعالى دار اسلام بعد ما كانت دار كفر ونفاق ••• والآن فقد تعين عليك وعلي ايضا ان ننظر الى مصالحها ومالنا احد اليوم لها إلا انت • ولا أقدر أولى امورها ولا اقلدها إلا لك حتى تبرأ ذمتي عند الله • فيجب عليك وفقك الله ان تشمر عن ساق الاجتهاد ،وتتولى قضاءها ، وتعمل ما تعلم أنه يقربك الى

١ — ابن واصل : المصدر السابق ، جزء١ ص ٢٢٢—٢٢٤
٢ — ابوالمحاسن : المصدر السابق ،جزء٦ ، ص٢٣

الله ... وقد كتبت هذا بخطي حتى لا يبقى علي حجة . تصل انت وولـــدك عندى حتى اسيركم الى مصر والسلام بموافقة صاحبي واتفاق منصلاح الديـــن وفقه الله فأنا منه شاكر كثير كثير ، جزاه الله خيرا وأبقاه ،ففي بقـــاء الصالحين والأخيار صلاح عظيم ومنفعة لأهل الاسلام ...) (١) .

وفوق هذا فان نورالدين ارسل لصلاح الدين أهله ليتقوى بهم ، كمـــا أرفقهم بأعداد كبيرة من الجند والمماليك. وحين وجه نجم الدين والـــد صلاح الدين الى مصر شاغل نورالدين الصليبيين لمنع الحاق الأذى به وبمن معه (٢) . كما اخذ العهد من توران شاه أخي صلاح الدين ليكون في موقف التابع من أخيه (٣) .

أما عن قضية ترك حصار الكرك والشوبك من قبل صلاح الدين حين يقترب نورالدين منه . فحقيقة الأمر ان مصر في سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م حين خـــرج صلاح الدين الى الكرك والشوبك في المرة الأولى اى عقب اسقاط الخلافـــة الفاطمية مباشرة ، فان الأمور لم تكن خالصة لصلاح الدين . وكان انصـــار الفاطميين يدبرون المؤامرات ، واضافة الى ذلك فان فكرة الخروج عن طاعـــة نورالدين لم تراود صلاح الدين نفسه ،بل راودت فئة من قادة صلاح الديـــن وان صلاح الدين رفضها مباشرة (٤) . اما عن عودة صلاح الدين في المـــرة الثانية من حصار الكرك والشوبك ،فانه كانت فعلا لمرض أبيه ووفاته . وكـــان أبوه في هذه الفترة نائبا عنه في مصر ،ووفاته تعني شغور مصر من قائدها ،مـــع وجود انصار للفاطميين قد يستغلوا هذه الفرصة لصالحهم .وقد توفي نجم الدين

---

١ ــ ابوشامة :المصدر السابق ،جزء ١ ص١٧٤

٢ ــ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص١٨٨ــ١٨٩

٣ ــ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص١٨٢

٤ ــ انظر الشيال : المرجع السابق ص٣٤ نقلا عن ابن شداد

والد صلاح الدين فعلا في ١٨ ذي الحجة سنة ٥٦٨ هـ في نفس الفترة التي كان فيها صلاح الدين في غزوه الثاني للكرك[1] .

ولم تكن حملة صلاح الدين الى بلاد النوبة الا بقصد تأديب بقايا الجند الفاطميين من السودانيين بعد ثورة مؤتمن الخلافة جوهر ، والذين فروا الى الجنوب ، واخذوا يتجمعون في بلاد النوبة ، ويهاجمون الصعيد لينطلقوا لاستعادة سلطانهم واعادة الدولة الفاطمية . ويذكر ابن قاضي شهبة[2] في هذا المجال انه في سنة ٥٦٨ هـ (اجتمع السودان العبيد من بلاد النوبة وخرجوا في أمم عظيمة قاصدين تملك بلاد مصر . وصاروا الى أعمال الصعيد ، وصمموا على قصد اسوان وحصارها ونهب قراها وكان بها كنز الدولة . فارسل يعلم الملك الناصر (صلاح الدين) وطلب منه نجدة ... فلما وصل الى اسوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن أخربوا أرضها ، فأتبعهم الشجاع وكنز الدولة ... فأرسل الملك الناصر اخاه شمس الدولة في عسكر كثيف فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة ، فسار اليها ونزل على قلعة ابريم وافتتحها بعد ثلاثة ايام ...) .

وكذلك كان الدافع الى حملة اليمن التخلص من انصار الفاطميين فيها كالدولة الصليحية ودولة بني زريع ودولة بني مهدي . وهي مهمة سياسية تعتبر تتمة لعمله في القضاء على الخلافة الفاطمية ، نهض بها صلاح الدين خير

---

١ ـ أبو شامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٢٠٩ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ٣٩٣

٢ ـ المصدر السابق ص ٢١٨ ـ ٢١٩ ـ وانظر ايضا ابو شامة : تاريخ الروضتين ، جزء ١ ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ عن رواية للعماد الاصفهاني ، واخرى لابن ابي طي .

نهوض (١) . اضافة الى الفوائد الاقتصادية التي يجنيها من وراء سيطرته على منفذي البحر الأحمر . واما الأسباب المباشرة التي دفعته الى القيام بفتح اليمن فتكمن في أن والي اليمن عبد النبي بن مهدي كان قد قطـــع الخطبة العباسية ، وابتدع أمورا جديدة في الدين . فأمر الناس بالحج الى قبر أبيه دون مكة المكرمة ، وادعى النبوة ، بل الألوهية عند البعــض . وظلم الناس وفتك بهم (٢) . ويذكر بعض المؤرخين أن أحد أخـــوة عبد النبي بن مهدي استنجد بالخليفة العباسي ضد أخيه . فكتب الخليفة الى الناصر صلاح الدين طالبا منه ان يرسل عسكره لقتاله . فأرسل صلاح الدين الى سيده نور الدين يستأذنه في ارسال هذه الحملة (٣) فاذن لـــه . وتم ذلك في رجب سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م قبل وفاة نور الدين بأشهر قليلة (٤). على ان بعض المؤرخين المتحاملين على صلاح الدين ، وعلى رأس هؤلاء ابن الأثير ذكروا ان صلاح الدين قام بفتح اليمن لاتخاذها مركزا له فـــي حال فراره من نور الدين . ولا يعقل ان نفهم هذا الأمر اذا عدنا الى مـــا ذكرته المصادر من انه استشار نور الدين بالفتح وأن نور الدين أذن لـــه . ويمكن القول أن صلاح الدين اراد من هذه الحملة تأمين اقتصاده ، وقوتـــه الحربيـــة بجعل مدخل البحر الأحمر الجنوبي تحت نفوذه ، بعد ان جعـل مدخله الشمالي بيده ، منذ وزارته للعاضد الفاطمي حين استولى على قلعـــة

---

١ ـ محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ص١٠٥

٢ ـ ابوشامة : المصدر السابق ، جزء١ ص٢١٦ ـ ٢١٧ ـ ابن شداد : المصدر السابق ص٤٦

ـ ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء١١ ص٣٩٦ ـ ٣٩٧ ـ ٣٩٨ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص٢٢١ ـ ٢٢٢

٣ ـ الشيال : المرجع السابق ص٣٦ ـ ٣٧

٤ ـ ابن شداد : المصدر السابق ص٤٧

ايلة • ويتضح ذلك بشكل أكثر حين نعلم اهتمام صلاح الدين بتقوية التجارة في مصر • وأنه من أجل هذا السبب فتح بلاده للتجار الايطاليين وعقد معهم معاهدات تجارية ، وخاصة مع ممثلي البندقية وجنوة وبيزا منذ سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م [١] • وقد قام التجار الايطاليون بذلك على الرغم من قرارات البابوية بمنع التجارة مع المسلمين ،والتي اضطر الى قصرها اخيرا على منع بيع المواد الخام التي تخدم مباشرة القوة الحربية لمصر [٢] •
وكتب صلاح الدين بمعاهداته التجارية الى الخليفة العباسي مبررا قيامه بهذه المعاهدات [٣] • وبهذا يمكن ان ينفى ان سبب فتح صلاح الدين لليمن كان للبحث عن ملك جديد فرارا من نورالدين اذا حاول ان يهاجمه •

ولكن وعلى الرغم من كل شيء • ،فانه يمكن القول بان هناك تصرفات من صلاح الدين وأسرته لم ترق لنورالدين • ففي الوقت الذى كان نورالدين بحاجة الى المال لقتال الصليبيين من جهة ، ولاعمار ما خربته الزلازل القوية التي حدثت في الشام في تلك الفترة وخاصة في سنة ٥٦٥هـ/١١٧٠م [٤] فان صلاح الدين لم يرسل الى نورالدين من اموال مصر واموال الخلافة الفاطمية بعد القضاء عليها الا هدايا لا تسد الأموال التي أنفقها نورالدين من أجل تحقيق هدفه في مصر ، على حين أن آل صلاح الدين كانت لهم حصة الأسد من الغنيمة سواء من المال او الاقطاع • فعن المال يذكر

---

١ ـ Wiet: op.cit.P.307-309

٢ ـ شارل ديل : البندقية جمهورية ارستوقراطية • تعريب احمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكدر ،القاهرة ١٩٤٨ ،ص ٥٨

٣ ـ ابن واصل :المصدر السابق ،جزء ٢ ،ص ٢١ـ٢٣ Wiet:op.cit.p315
ـ Baldwin:Crusaders.p.1.p568

٤ ـ عن الزلازل انظر ابن الاثير :الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ، ص ٣٥٤

صاحب الروضتين (١) عن ذلك ما يلي : (واخلى د وره ، وأغلق قصوره وسلط جود ، على الموجود ، وأبطل الوزن والعد عن الموزون والمعدود ، واخذ كل ما صلح له ولأهله وأمرائه ولخواص مماليكه واوليائه من أفاخر الذخائر وزواهر الجواهر ، ونفائس الملابس ومحاسن العرائس وقلائد الفرائد والدرة اليتيمة والياقوتة العالية الغالية القيمة ...) • ويستمر صاحب الروضتين في احصاء ما اخذه صلاح الدين من النفائس ، ثم ما باعه من القصر من بقية الاشياء التي لا يحتاج اليها • هذا عدا عما استولى عليه من قصور الامراء والقادة والمتنفذين لنفسه وأسرته وأمرائه ، على حين انه اكتفى بارسال هدية الى نورالدين (٢) •
اما الاقطاع فلن اورد الا أمثلة عنه • فقد أقطع نجم الدين والد مالا سكندرية ودمياط والبحيرة • كما اقطع أخاه شمس الدولة ، قوص واسوان وعيذاب ، وكانت عبرتها في هذه السنة مائتي الف وست وستين الف دينار (٣) •

لم يركن نورالدين الى الهدوء وهو يرى الأسرة الأيوبية تتمتع بواردات مصر وهو بحاجة اليها لقتال الصليبيين واعمار الأسوار والتحصينات التي هدمتها الزلازل • فأعلن (أنه يريد الامدادات لمتابعة الجهاد ، وجرد وزيره الموفق القيسراني الى مصر (٤) • وأمره بعمل حساب البلاد واستعلام أخبارها وارتفاعها وأين صرفت أموالها • فاذا حصل جميع ذلك ، قرر على صلاح الدين وظيفة يحملها له كل عام) • وفي العام التالي استقبل صلاح الدين مبعوث سيده نورالدين ، فعمل له حسابا وعرضه عليه ، وتملص من ارسال الأموال

---

١ — المصدر السابق ،جزء ١ ص ١٩٤
٢ — انظر فيما سبق ،وانظر ابوشامة :المصدر السابق ،جزء ١ ص ٢٠٦ — ابن واصل : المصدر السابق ،جزء ١ ص ٢٢٦ — ٢٣٢
٣ — انظر حول ذلك كل من ابي شامة : الروضتين جزء ١ ،وابن الاثير : الكامل في التاريخ ،جزء ١١
٤ — انظر : ابن واصل : المصدر السابق ،جزء ١ ص ٢٣٢ — ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ٢٢٣ — Baldwin:op.cit., p.366

الى نورالدين بحجة ان اقليم مصر لا يضبط الا بالمال العظيم . ومما قاله له : (أنت تعرف أكابر الدولة وعظماءها ، وأنهم اعتادوا من السعة والدعة على نعمائها . وقد تصرفوا في مواضع لا يمكن انتزاعها ، ولا يسمحون بأن ينتقص ارتفاعها . فالموارد مشفوعة والشدائد مكروهة). وبذلك اتضح ان غاية صلاح الدين من ابقاء اموال مصر فيها ، ربط مصالح الأمراء والقادة بمصلحة حكمه في مصر (١) . وان نورالدين أنكر عليه افراطه في توزيع الأموال ، واستبداده في ذلك من غير مشاورته (٢) .

ويبدو ان نورالدين لم يشأ أن يوسع شقة الخلاف بينه وبين صلاح الدين ، وأراد ان يبقي مصر بيد صلاح الدين ظهيرا له في الشام . ولكنه مع ذلك كان يؤلمه احيانا بجارح كلامه . وفي ذلك يقول صلاح الدين : (... والله لقد صبرت منه على مثل حز المدى ووخز الابر ، وما قدر واحد من أصحابه أن يجد عليّ ما يعده ذنبا فلم يقدر . ولقد كان يعتمد في مخاطباتي ومراسلاتي الأشياء التي لا يصبر على مثلها ، لعلي أتضرر أو أتغير ، فيكون ذلك وسيلة الى منابذتي ، فما أبلغته أربه يوما قط) (٣) .

توفي نورالدين والوضع فيه بعض الغيوم بينه وبين صلاح الدين ، أوجدها الغاضبون والحاقدون على صلاح الدين من القواد المتصلين

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، جزء١ ص٢١٩ .

(٢) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص١٨١ عن رواية لابن أبي طي

(٣) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص١٨٣ نقلا عن ابن ابي طي .

بنورالدين ، غيوم لم تصل الى حد امتشاق السيف ، وذلك في شوال سنة ٥٦٩هـ/ منتصف أيار ١١٧٤م (١) . ودفن بقلعة دمشق (٢) . وكانت وفاته بعد ان غرس غرسة طيبة بين قادته ومواليه ، تلك هي توحيد مصر والشام والانطلاق الى قتال الصليبيين .

---

١ ـ ابن شداد : المصدر السابق ص٤٧ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩

٢ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ٤٠٢

الفصـل الرابــع

السـلطنة الأيوبيــــة

صلاح الدين بين وفاة نورالدين زنكي والحملة الصليبية الثالثة

القضاء على أتباع الفاطميين

صلاح الدين والوحدة العربية ، قيام السلطنة الأيوبية

١ ـ الوضع في مصر والشام اثر وفاة نورالدين

٢ ـ بداية عملية التوحيد

أ ـ ضم مدينة دمشق وحمص وحماه

ب ـ ضم مدينتي حلب والموصل

موقف صلاح الدين من الصليبيين قبل المعارك الكبرى

صلاح الدين والمعارك الكبرى مع الصليبيين

١ ـ الموقف قبل حطين

٢ ـ معركة حطين

٣ ـ موقف صلاح الدين بعد حطين

أ ـ فتح مدن الساحل

ب ـ فتح بيت المقدس

الفصل الرابع
السلطنة الأيوبية
صلاح الدين ، بين وفاة نور الدين والحملة الصليبية الثالثة

القضاء على أتباع الفاطميين

قامت مؤامرة كبرى في وجه صلاح الدين في رمضان ٥٦٩ هـ / ابريل نيسان ١١٧٤ م ، قبل وفاة نور الدين زنكي بشهر واحد • فقد تجمعت القوى المعارضة لصلاح الدين والقوى المؤيدة للفاطميين ، ودبر هؤلاء مؤامرة للقضاء عليه ، وللعمل على اعادة الخلافة الفاطمية • وكان ممن اشترك في هذه المؤامرة داخل مصر ، أعوان الخلافة الفاطمية من رجال القصر وأمراء الجيش وجنده من السودانيين ، ونفر ممن قطعت أرزاقهم بقطع مرتباتهم ، أو أخذت اقطاعاتهم ، أو ممن أصابهم ضرر من الأضرار نتيجة للقضاء على الخلافة الفاطمية (١) • وعلى رأس هؤلاء الشاعر عمارة اليمني وعبد الصمد الكاتب والقاضي العويرس داعي دعاة الشيعة ، وابن عبد القوي (٢) • ووافقهم جماعة من امراء صلاح الدين وجنده (٣) • وقد جعل بعض المؤرخين تحريض عمارة اليمني لتوران شاه على الخروج لفتح اليمن لاضعاف قوة صلاح الدين في مصر ، ولتحقيق النجاح لهذه المؤامرة •

اراد المتآمرون أن يعملوا جاهدين على نجاح ثورتهم • ولتحقيق

---

١ — انظر : الشيال : المرجع السابق ص ٣٨

٢ — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٣٩٨ — ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ٢٢٦
— الحنبلي : المصدر السابق ص ٨٢ — ٨٣ — المقريزي : السلوك ، جزء ١ ، ص ٥٣ — عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٣٠

٣ — ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٣٩٩

ذلك كان لا بد من الاستعانة بقوة خارجية • فأقدموا على الاتصال بمقدم الاسماعيلية في الشام وبالصليبيين في كل من الشام وصقلية • وحددوا دور كل جهة على حدة [١] • فالاسماعيلية في الشام يعملون على اغتيال صلاح الدين والصليبيون في الشام وعلى رأسهم ملك بيت المقدس يعمل على غزو مصر من ناحية الشرق براً • وأن يقوم وليم الثاني النورماندي من صقلية بمهاجمة الاسكندرية بأساطيله ،في الوقت الذي يشعل به المتآمرون الثورة في القاهرة والفسطاط ، فيقع صلاح الدين بذلك بين نارين [٢] • واختار المتآمرون فرصة غياب توران شاه في اليمن موعدا لتنفيذ مؤامراتهم حتى لا يحل محل أخيه حين يقتل • كما عينوا اعضاء الجهاز الحكومي الجديد ، وعينوا الخليفة والوزير ، وتقاسموا الدور والاملاك [٣] • ونظموا طريقة التخلص من صلاح الدين بشكل دقيق وحسبوا حسابا لكافة الاحتمالات حتى اصبح كل شيء معدا للتنفيذ (٤) •

أراد عموري الأول أن يرسم الترتيبات النهائية مع المتآمرين قبل تنفيذ المؤامرة ، فارسل من اجل ذلك رسولا الى القاهرة يعمل في ظاهر الأمر على حمل تحيات عموري الأول لصلاح الدين ـ فكشف صلاح الدين أمره ، بمراقبته عن طريق بعض اقباط مصر [٥] • ويقال بأنه عرف ذلك في اللحظة الأخيرة

---

١ ـ ابوشامة :المصدر السابق ، جزء ١ ، ص٢١٩ ـ ابن واصل: المصدر السابق ،جزء ١ ، ص٢٤٤ـ ٢٤٩ ـ Wiet:op.cit.,p.311

٢ ـ Wiet:op.cit., p. 311

٣ ـ ابن واصل :المصدر السابق ، جزء ٢ ص٢٠١ ـ ابن الاثير: الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩

٤ ـ ابن الأثير: المصدر السابق ،جزء ١١ ص ٣٩٩

٥ ـ ابن الاثير: الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص٣٩٩ ـ ابن قاضي شهبة :المصدر السابق ص ٢٢٥

بفضل الفقيه الواعظ زين الدين علي بن نجا ، الذي أشركه المتآمرون معهم . فعمل على اطلاع صلاح الدين على جميع حلقات المؤامرة . ولما تأكد صلاح الدين من تفصيلاتها ، قبض على المتآمرين فورا ، وصلب زعماءهم في رمضان ٥٦٩ هـ/ نيسان ١١٧٤ ،في حين اختفى ابن الخليفة العاضد عن الأنظار (١) .

وفي تلك الأثناء توفي عموري الأول ملك بيت المقدس على أثر فشله في تنفيذ خطة غزو مصر في نهاية ذي القعدة سنة ٥٧٠ هـ/تموز يوليو ١١٧٤ م . ولم يلبث ان وصل اسطول صقلية الى مياه الاسكندرية في نهاية ذي القعدة ٥٦٩ هـ ومطلع محرم ٥٧٠ هـ/تموز ١١٧٤ م (٢) ، فوجد أن المؤامرة قد فشلت . وعلى الرغم من ذلك ، فانه اراد ان يستعرض عضلاته ، فشدد هجماته على الاسكندرية محاولا اقتحامها ودمر بعض السفن التجارية الراسية في ميناء الاسكندرية . ولكنه لم يستطع أن يفعل أكثر من ذلك بسبب ثبات أهالي المدينة ، والرد على حرق السفن التجارية بحرق بعض من سفن النورمان . ثم قدم صلاح الدين من فاقوس مسرعا لتخليص الاسكندرية،فهاجم النورمان وأغرق بعض سفنهم ، وأحرق خيامهم ، وأنزل بهم الهزيمة ، فأقلعوا بسفنهم خائبين (٣) .

كما قامت ثورة أخرى في وجه صلاح الدين في اسوان على حدود النوبة ،

---

١ ـ ابن الأثير:المصدر السابق،جزء ١١ص ٤٠٠ ـ ابن قاضي شهبة :المصدر السابق ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥

٢ ـ ابن الأثير :المصدر السابق، جزء ١١ ص ٤١٢ ـ ابن كثير :البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ،بيروت ،الطبعة الثانية ١٩٧٧ ، جزء ١٢ ، ص ٢٧٧ على حين جعل ابن شداد :المصدر السابق ذلك في شهر صفر وذلك ص ٤٩

٣ ـ ابن شداد :المصدر السابق ص ٤٨ ـ ابوشامة :المصدر السابق،جزء ١ ، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ ـ ابن الأثير :المصدر السابق،جزء ١١ ص ٤١٢ ـ ٤١٣ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ ـ الحنبلي : المصدر السابق ص ٨٣ ـ ٨٤

وقد أشعلها أحد القادة الفاطميين واسمه كنز الدولة (١) ، طمعا في استعادة ما كان لهم في ايام الفاطميين (٢) . جمع كنز الدولة حوله بعض العناصر من الشيعة وغيرهم . وأوهمهم بأنه يريد اعادة الدولة الفاطمية ، وزحف بهم على قوص . فأرسل اليهم صلاح الدين حملة بقيادة أخيه الملك العادل سيف الدين ، استطاعت في صفر ٥٧٠ هـ/ اوائل ايلول ١١٧٤ م أن تقضي على اولئك الجند السودان قضاء مبرما وان تستأصل شأفتهم (٣) .

صلاح الدين والوحدة العربية

١ ـ الوضع في مصر والشام اثر وفاة نور الدين

حين توفي نور الدين زنكي ، بويع ابنه الصالح اسماعيل بالسلطنة ، ولكنه لم يستطع السيطرة على أملاك أبيه بكاملها . فقد كانت مصر واليمن بيد الأسرة الأيوبية ، على حين أن بلاد الشام كانت موزعة الولاء بين الأسرة النورية والصليبيين . وقد برز دور كل مدينة كبيرة من مدن الشام على حدة ، وتنافست في سبيل ضم الصالح اسماعيل اليها .

كان الصالح اسماعيل صغيرا في السن حين تولى الحكم ، لم يتجاوز عمره الحادية عشرة (٤) ، فاراد كل من كبار القادة أن يكون الصالح اسماعيل في

---

١ ـ انظر ابن واصل: المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٢٩ ـ أبو شامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥
ـ ابن شداد : المصدر السابق ص ٤٧ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ١١٤ ـ المقريزي : البيان والاعراب طبعة المحمودية قاهرة ١٣٦١ هـ ص ٥٠ ومابعدها . والكنز لقب منحه لاول مرة الخليفة الفاطمي الحاكم بامر الله لملك النوبة في عهده ، ابو المكارم هبة الله بن الشيخ محمد بن علي وهو من قبيلة ربيعة اثر مساعدته بالقضاء على ثورة ابي ركوة . وكان آخرهم المقتول سنة ٥٧٠ هـ في عهد صلاح الدين .
٢ ـ ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٢٣٥ ـ ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٤٧ ـ ٤٨
٣ ـ ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٢٣٥ ـ ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٤٧ ـ الحنبلي : المصدر السابق ص ٨٣ ـ ٨٤
٤ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٤٠٥

كنفه • وقد أسفر ذلك عن تحركات كانت على الشكل الآتي :

تنافس كل من شمس الدين محمد بن المقدم في دمشق ، وشمس الدين علي ابن الداية في حلب على السيطرة على الصالح اسماعيل • وقد ساعدت الظروف ابن الداية ، ومالت كفة الميزان لصالحه حين هادن ابن المقدم الصليبيين ودفع لهم مبلغا من المال ، واطلق من عنده من اسراهم ، رغبة منه في الحفاظ على مركزه ، وحماية لمدينة بانياس التابعة له ، وذلك اثر انتهاز الفرنج فرصة موت نور الدين ، واضطراب أمور الدولة ، ومهاجمتهم لمدينة بانياس بقصد الاستيلاء عليها •

استغل شمس الدين بن الداية الوضع ، ونقل الصالح اسماعيل الى حلب ، مدعيا بأنها المقر الأصلي للدولة النورية ، وأنها الأقرب الى سيف الدين غازي صاحب الموصل والجزيرة ، الطامع في املاك نور الدين [1] •ولكن الأمور لم تصف لابن الداية في حلب ، بل نافسه فيها سعد الدين كمشتكين احد كبار القادة ، فقبض على ابن الداية ، واستبد بأمر الصالح [2] •وكانت حلب قد تعرضت لفتنة داخلية اثر وفاة نور الدين ، وذلك لأن عناصر الاثني عشرية التي كانت كثيرة العدد في المدينة والتي خضعت للسطوة النورية ، رفعت رأسها اثر موته ، وحدث الاصطدام بينها بقيادة ابن الخشاب وبين بقية السكان والجند بقيادة بني الداية • وأسفرت المرحلة الأولى من هذا الصدام عن انتصار ابناء الداية الذين اعتصموا بالقلعة عندما هاجمهم الاثني عشرية ، ثم انحدروا منها وحدروا خصومهم ، حتى وصلوا

---

١ — ابن الاثير :التاريخ الباهر ص١٦٣ — الكامل في التاريخ ،جزء ١١ص ٤١٥

٢ — انظر كيفية نقل الملك الصالح الى حلب في كل من ابي شامة :المصدر السابق، جزء ١ص٢٣١ — ٢٣٢
— ابن الاثير : الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ، ص ٤١٥

الى دار ابن الخشاب فنهبوها دون أن يتمكنوا من القبض عليه (١) .

أما الموصل ، فقد كان صاحب الحكم فيها سيف الدين غازى الثاني ابن عم الملك الصالح ، الذى ما أن علم بوفاة عمه حتى اسرع الى ضم ما يليه من البلاد مثل نصيبين والخابور وحران والرها والرقة وسروج وغيرها (٢) . وقد سنحت له الفرصة بضم مدينة دمشق اليه حين استدعاه ابن المقدم ليسلمها له ، ولكنه خشي ان يكون في الأمر مؤامرة مدبرة ، فلم يفعل (٣) .

ومما لا شك فيه ان هذه الخلافات في بلاد الشام كانت تهدد مركز المسلمين تهديدا خطيرا في الوقت الذى كان الصليبيون يتوعدون ويتحفزون ، مما أدى بالبعض الى المناداة بتحكيم صلاح الدين ، وعلى رأس هؤلاء كمال الدين بن الشهرزورى الذى قال لمن معه : (قد علمتم ان صلاح الدين صاحب مصر هو من مماليك نورالدين ، ونوابه أصحاب نورالدين ، والمصلحة ان نشاوره في الذى نفعله ولا نخرجه من بيننا ، فيخرج عن طاعتنا ... وهو أقوى منا لأنه قد انفرد اليوم بملك مصر) (٤) .

واذا كان الامراء في الشام قد رفضوا تحكيم صلاح الدين ، فان صلاح الدين كان يعرف ويقدر مركزه حق قدره ، فبادر هو بالكتابة الى الملك الصالح اسماعيل ، معاتبا له على عدم استدعائه لحماية املاكه من ابن عمه سيف الدين ، كما كتب الى الأمراء مبينا مركزه قائلا : (لو أن نورالدين يعلم ان فيكم من يقوم مقامي ، او يثق به مثل ثقته بي لسلم اليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته .

---

١ - ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٤٩
٢ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٣٢ - ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٧٥ - الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٤٠٦ - ٤٠٧
٣ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٤١٥ - ٤١٦
٤ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٤٠٥ - التاريخ الباهر ، ص ١٦٢ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٣

ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد الى احد بتربية ولده ، والقيام بخدمته غيرى . وأراكم قد تفردتم بمولاى وابن مولاى دوني . وسوف أصل الى خدمته، وأجازى انعام والده بخدمة يظهر أثرها ، وأجازى كلا منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده) (١) .

وهكذا فانه يتضح ان الدوافع التي أوجبت على صلاح الدين التدخل في أمور الشام كانت كما يلي :

١ — عدم قيام الأمراء الذين سيطروا على الصالح اسماعيل بحماية املاكه والحفاظ عليها أمام مطامع ابن عمه سيف الدين غازى الثاني (٢) .

٢ — اهتمام الامراء في بلاد الشام بتحقيق مطامع شخصية والتنافس بينهم من أجل تحقيقها مما أدى الى تفكك الجبهة الشامية ثانية بعد أن جهد نورالدين في توحيدها .

٣ — ضعف القائمين في بلاد الشام عن الوقوف بحزم أمام الصليبيين الذين أخذوا بغزو المناطق المحيطة بدمشق ، وكادوا ان يحققوا أهدافهم لولا التنازلات التي قدمها لهم ابن المقدم ، بدفعه لهم مبلغا من المال وفك اسراهم (٣) . وقد أغضب تصرف ابن المقدم هذا وتخاذله امام الصليبيين صلاح الدين فأبدى أسفه لهذا التخاذل ، وأوضح بأنه سينهض بمقارعتهم

---

١ — ابوشامة : المصدر السابق ،جزء١ ص٢٣١ — ابن الاثير : الكامل في التاريخ ،جزء١١ ص٤٠٥ — ٤٠٦ — التاريخ الباهر ص١٦٣ — ابن واصل : المصدر السابق ،جزء٢ ص٧

٢ — أنظر فيما سبق

٣ — انظر فيما سبق ، وانظر ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء١١ ، ص ٤٠٨

والدفاع عن أملاك الصالح اسماعيل (١) .

٤ - كان صلاح الدين يريد أن يسير على نفس النهج الذي سار عليه قبله عماد الدين زنكي وابنه نورالدين محمود ، وذلك بالعمل على توحيد بلاد الشام ومصر في جبهة اسلامية واحدة،تستطيع ان تقف في وجه الصليبيين ،وتستعيد منهم ما احتلوه من البلاد (٢) .

لم يعمل صلاح الدين مباشرة اثر وفاة نورالدين على التدخل في الشام ، بل أرسل الى الملك الصالح كتابا يهنئه فيه بالملك ، ويعزيه بوفاة ابيه . كما ارسل له دنانير مصرية سك عليها اسمه ، وأعلمه بأن الطاعة والخطبة له (٣) . كما بعث للأمراء المحيطين به يدعوهم للتعاضد والتآزر في وجه العدو المتربص ،معلنا أنه سيكون للصالح اسماعيل كما كان لأبيه مخلصا في الخدمة . وحين لمس تخاذل الأمراء عن الدفاع عن ابن سيدهم أرسل لهم رسالة قال فيها : (أنا أحق بتربية الملك الصالح رعاية لعهد والده . ولو استمرت ولاية هؤلاء القوم تفرقت الكلمة ، وطمعت الكفار في البلاد ، انا لا نؤثر للاسلام وأهله الا ما جمع شملهم وألف كلمتهم . وللبيت الأتابكي إلا ما حفظ أصله وفرعه ،أو دفع ضره وجلب نفعه) (٤) .

٢ - بداية عملية التوحيد على يد صلاح الدين

اعترض صلاح الدين اثر وفاة نورالدين بعض المشاكل أخرته عن حماية الصالح اسماعيل وأملاكه في الشام ،على رأسها وصول اسطول صقلية الى الاسكندرية

---

١ - ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١١ ، ص٤٠٨
٢ - الشيال : المرجع السابق ص٤٤-٤٥
٣ - أبوشامه :المصدر السابق ،جزء ١ ص٢٣١- ابن الاثير :التاريخ الباهر ، ص١٦٢-١٦٣
٤ - أبوشامة :المصدر السابق ،جزء ١ ص٢٣٤-ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ص١٨

وحركة الكنز [١] • الا انه بعد ان انتهى من التخلص من هذه الأخطار بنجاح منقطع النظير ، ولمس ضعف القائمين في بلاد الشام على حماية الملك الصالح اسماعيل واملاكه ، والمنافسات القائمة بينهم وتخاذلهم أمام الفرنج ، قـــرر التوجه اليها •

أ ـ ضم مدينة دمشق وحمص وحماه :

خشي من بدمشق من الأمراء أن يقصدهم سعد الدين كمشتكين مؤيدا نفسه بالملك الصالح اسماعيل ، فيعاملهم كما عامل بني الداية • ولذلك راسلوا سيف الدين غازي الثاني في الموصل ليسلموها اليه فلم يجبهم خوفا من ان يكون في الأمر مؤامرة [٢] • فحملهم الخوف على ان راسلوا صلاح الدين في مصـــر وأرسلوا اليه رسلا يطلبون منه الحضور ، فلم يتردد ، وتوجه مباشرة الى الشام [٣] ، حيث أعلن وهو في طريقه اليها أنه انما خرج لانقاذ الصالح اسماعيل مـــن أطماع المحيطين به ، وللاشراف بنفسه على تربيته وتدبير ملكه ، والقضاء علـى الفرقة التي أطمعت الفرنج في البلاد ، وتوحيد ممتلكات نورالدين التـــــي أضحت تمتد من حلب الى اليمن ، ولم في هذا التوحيد من فائدة في تحرير بيت المقدس من الصليبيين [٤] • وقد أوضح صلاح الدين ذلك في الرسالة التي وجهها للخليفة العباسي • وقد يكون أعلمه بذلك ، ليجعل من توجهه الى الشام عملا شرعيا [٥] •

---

١ ـ انظر فيما سبق ، وانظر ابوشامة : المصدر السابق ،جزء ١ ، ص٢٣٤

٢ ـ انظر فيما سبق

٣ ـ ابن الاثير :التاريخ الباهر ص١٧٦ ـ ١٧٧ ـ الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ، ص ٤١٥ ـ ٤١٦

٤ ـ ابن شداد :المصدر السابق ص٥٠ ـ أبوشامة :المصدر السابق ، جزء ١ ص ٢٤١ ـ ٢٤٢

٥ ـ ابن واصل :المصدر السابق ،جزء ٢ ص٢٧ ـ ٢٨ ـ ابوشامة :المصدر السابق ،جزء ١ ص٢٤١ ـ ٢٤٣

انطلق الناصر صلاح الدين وبرفقته سبعمائة فارس، فوصل بلبيس في شهر ربيع الاول من سنة ٥٧٠هـ [(١)]، بعد ان استخلف على مصر أخاه العادل. وتمكن من دخول مدينة بصرى دون اى مقاومة، ثم تسلم مدينة دمشق من ابن المقدم في يوم الثلاثاء نهاية ربيع الاول سنة ٥٧٠هـ/تشرين الثاني نوفمبر ١١٧٤م، حيث استقبل فيها استقبالا طيبا، وكان دخوله الى المدينة تحت شعار الولاء للملك الصالح اسماعيل، ورد املاكه التي أخذت منه في الجزيرة، واعادتها الى سابق عهدها [(٢)].

عمل صلاح الدين على استمالة قلوب أهل دمشق اليه، فوزع عليهم الأموال الطائلة، وأظهر الفرح والسرور بلقائهم [(٣)]. وبعد أن وطد أموره بها ترك فيها أخاه سيف الاسلام طغتكين يحكمها باسم الملك الصالح اسماعيل، وسار الى حمص حيث دخلها في جمادى الأولى سنة ٥٧٠ هـ / ديسمبر كانون الأول سنة ١١٧٤م، ثم استولى على مدينة حماه في اواخر الشهر نفسه [(٤)].

ب - ضم مدينتي حلب والموصل

لم تفتح حلب ابوابها لصلاح الدين بنفس السهولة التي استطاع بها أن يدخل مدينة دمشق وحمص وحماه، بل وجد في طريقه اليها صعوبات، ومقاومة كبيرة قادها في البداية سعد الدين كمشتكين، الذي تعاون ضده

---

١ - ابوشامه: المصدر السابق، جزء ١ ص ٢٣٥-٢٣٦

٢ - ابن شداد: المصدر السابق، ص ٥٠ - ابن الاثير: التاريخ الباهر، ص ١٧٦-١٧٧
- عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ٣٤-٣٥

٣ - ابوشامة: المصدر السابق، جزء ١ ص ٢٣٧ - ابن شداد: المصدر السابق ص ٥٠

٤ - ابوشامة: المصدر السابق، جزء ١ ص ٢٣٨

مع صاحب الموصل ومقدم الاسماعيلية والصليبيين ٠

حين ألقى صلاح الدين الحصار على مدينة حلب أعلن انه يريد تخليص الملك الصالح اسماعيل من سيطرة سعد الدين كمشتكين [١] ٠ ولكن الأخير لجأ الى تأمين مقاومة ناجحة في حلب ضد صلاح الدين ٠ فجمع حوله قلوب أهل المدينة [٢] ، كما استنفر القوى المجاورة في بلاد الشام ، والتي ترى في سيطرة صلاح الدين على بلاد الشام اضافة الى مصر خطرا يهددها فعمل على الاستعانة بالاسماعيلية والصليبيين في امارة طرابلس ، والزنكيين في الموصل ٠ على أن يقوم الاسماعيلية الذين يقودهم شيخ الجبل سنان من معقله في مصياف بارسال بعض رجالهم لاغتيال صلاح الدين [٣] ، ويعمل الصليبيون من طرابلس بقيادة ريموند الثالث على تهديد مؤخرة صلاح الدين بالهجوم على مدينة حمص [٤] ٠

ويبدو ان ريموند أمير طرابلس ، والوصي على عرش مملكة بيت المقدس في تلك الآونة ٠ كان يدرك تماما أهمية تحالف الصليبيين مع أمراء حلب ٠ كما أدرك خطورة قيام وحدة بين القاهرة ودمشق وحلب ٠ لذلك أسرع الى نجدة أمراء حلب ليسد الطريق في وجه صلاح الدين ، ويحول دون قيام وحدة عربية في بلاد الشام ومصر [٥] ٠

---

١ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ، ص ٤١٧-٤١٨

٢ - أبوشامة : المصدر السابق ،جزء ١ ص ٢٣٨-٢٣٩

٣ - ابوشامة : المصدر السابق ،جزء ١ ص ٢٣٩- ابن الاثير : الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ، ص ٤١٨- ٤١٩

٤ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ٤١٩-٤٢٠- ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٢٣٨

٥ - سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٣٦ نقلا عن وليم الصوري

نفذ ريموند ما كلف به موتوجه بقواته لمهاجمة مدينة حمص التابعة لصلاح الدين • فوجد صلاح الدين نفسه محاصرا بين قوات حلب بقيادة سعد الدين كمشتكين ، وبين الصليبيين في جنوبه • فلم يجد بدا من فك الحصار عن مدينة حلب ، والارتداد جنوبا لرد الصليبيين وذلك في رجب سنة ٥٧٠هـ/ اوائل شباط فبراير ١١٧٥ م (١) • وما ان وصل صلاح الدين الى حمص حتى فرّ الفرنج عنها (٢) ، فسار في اعقابهم حتى مدينة بعلبك حيث فتحها مع قلعتها (٣) •

عاود صلاح الدين حصار حلب بعد ان طرد الصليبيين عن حمص ، فوجد نفسه مضطرا لقتال جيش متحد موءلف من زنكيي الموصل وحلب • وقد كان زنكيو الموصل قد لبوا الدعوة التي وجهها لهم زنكيو حلب لقتال صلاح الدين (٤) خوفا منه وخشية على املاكهم • ودارت بين الفريقين معركة عند قرون حماه في رمضان سنة ٥٧٠هـ/ اواخر ابريل نيسان ١١٧٥م ، انتصر صلاح الدين فيها على الزنكيين (٥) ، وعقد معهم صلحا كانت أهم بنوده ، ان تبقى حلب وماحولها للملك الصالح اسماعيل ، وأن تكون الأجزاء الواقعة جنوب حلب ملكا لصلاح الدين (٦) •

استشاط سيف الدين غازي صاحب الموصل غضبا حين سمع بالصلح بين الملك الصالح اسماعيل ، وصلاح الدين • وبعث الى ابن عمه وأمراء

---

١ _ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ص ٤١٩

٢ _ ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٢٣٩

٣ _ ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٢٤٧ _ ابن الاثير : الكامل في التاريخ جزء ١١ ص ٤٢٠

٤ _ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٤٢٠

٥ _ ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٢٤٨ _ ٢٤٩

٦ _ ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٢٤١ _ ٢٤٤

حلب يعتب عليهم ويوبخهم على التسرع في توقيع الصلح ، ويحرضهم على نقضه وقتال صلاح الدين • وما لبث زنكيو حلب أن أذعنوا له ونقضوا الصلح ، وتحالفوا ثانية مع سيف الدين غازي ، وتجدد القتال بين المتحالفين وصلاح الدين بالقرب من حلب عند تل السلطان في شوال سنة ٥٧١هـ/نيسان ١١٧٦م ، حيث انتصر صلاح الدين للمرة الثانية على جموع الزنكيين في الموصل وحلب ، واستولى على غنائم ضخمة (١) •

انتقل صلاح الدين بعد هذا الانتصار الى الاستيلاء على الحصون والقلاع المحيطة بمدينة حلب ، ليسهل عليه فتحها (٢) • فاستولى على بزاغة ومنبج واعزاز (٣) • وقد تعرض في اثناء حصاره لقلعة اعزاز للاغتيال من قبل الاسماعيلية ، فنجا وجرح خده فقط (٤) •

اتجه صلاح الدين بعد انتصاراته في المناطق المحيطة بحلب الى القاء الحصار عليها في منتصف ذي الحجة سنة ٥٧١هـ/ حزيران ١١٧٦م • وظل على ذلك حتى مطلع سنة ٥٧٢هـ ، حيث طلب أهل حلب الصلح ، فأجابهم اليه صلاح الدين ، على ان تكون حلب وأعمالها للصالح اسماعيل ، وان يكون لصلاح الدين مصر وبلاد الشام من حماه وما يليها جنوبا • كما وهب مدينة اعزاز لابنة صغيرة لنور الدين (٥) •

وهكذا فشل صلاح الدين في هذه الفترة في ضم مدينة حلب اليه على

---

١ ــ ابوشامة : المصدر السابق ،جزء ١ ص٢٥٤ ــ ٢٥٥ ــ المقريزي : السلوك في معرفة دول الملوك ،جزء ١ ص٦٠

٢ ــ ابوشامة : المصدر السابق ،جزء ١ ص ٢٥٦

٣ ــ ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٥٦ ــ ٢٥٧

٤ ــ ابوشامة : المصدر السابق ،جزء ١ ص٢٥٨ ــ الشيال : المرجع السابق ص٤٧

٥ ــ ابوشامة : المصدر السابق ،جزء ١ ص٢٥٩ وص٢٦١ ــ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ص ٤٣١ ــ الشيال : المرجع السابق ص ٤٧

الرغم من حصاره لها ثلاث مرات متتابعة • وكان السبب في فشله هذا يعود الى اضطراره الى توزيع جهوده ، بين ثلاث جبهات • فالى جانب قتاله للزنكيين في حلب والموصل ، فانه كان مضطرا الى الدخول في مناوشات وحروب محلية ضد الصليبيين اما لارهابهم او لصد عدوانهم ، وخاصة حين يستنجد الزنكيون بهم • وكان عليه ايضا الا يغفل عن تحصين مصر والعمل على حمايتها ، بعد أن ظهر واضحا طمع الصليبيين فيها • ولعل هذا هو السبب الذي يجعلنا نجد صلاح الدين في هذا الدور لا يكاد يحارب الزنكيين عند حلب حتى يعقد معهم الصلح ويتجه لصد خطر الصليبيين ، ولا يكاد يدخل مع الصليبيين في حرب حتى يقبل عروضهم للهدنة ويسرع الى مصر ، ولا يكاد يقيم بعض الوقت في مصر يشرف على تحصينها حتى يبادر بالعودة الى الشام (١) •

لم ينس صلاح الدين للاسماعيلية فعلتهم ومحاولاتهم المتكررة لقتله ، فاتجه بجيشه الى املاكهم ، وحاصر حصنهم المنيع في مدينة مصياف ، وقتل العدد الكبير منهم ، وهدم الكثير من قلاعهم • وكان يصر على القضاء عليهم والاستيلاء على املاكهم ، لولا تدخل خاله شهاب الدين الجارمي صاحب حماه ووساطته وشفاعته بهم • فرحل عنهم حيث عاد الى دمشق ثم غادرها الى مصر (٢) في جمادى الاولى ٥٧٢ هـ / نهاية كانون الاول ديسمبر ١١٧٦ م بعد أن تزوج من عصمة الدين خاتون بنت معين الدين انر وأرملة نور الدين • وقد يكون فعل ذلك ليبدو وريثا لسيده (٣) •

---

١ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ص ٧٥ - ٧٧ - سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، الجزء ٢ ص ٧٥٠ - مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، ص ٣٨ •

٢ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٢٦١ - ابن الاثير : المصدر السابق جزء ١١ ص ٤٣٦ - الشيال : المرجع السابق ص ٤٧ - ٤٨

٣ - ابوشامة : المصدر السابق ص ٢٦٣ - ٢٦٤

على الرغم من مشاغل صلاح الدين بتنظيم أمور المناطق التي يحكمها في مصر والشام بعد توقيعه لمعاهدة الصلح مع حكام حلب ، فانه كان ينتظر الفرصة المناسبة لاتمام عملية التوحيد بضم مدينتي الموصل وحلب . وقد حدث بعد حوالي خمس سنوات من الصلح بعض الأحداث في المنطقة شجعته على اتمام خطته ، ومن ذلك وفاة امير الموصل سيف الدين غازي الثاني في صفر ٥٧٦ هـ/ آب اغسطس ١١٧٩ م ، بعد أن أوصى بالامارة لأخيه عز الدين مسعود لصغر سن ابنائه . كذلك توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين صاحب حلب في رجب سنة ٥٧٧ هـ/ كانون الثاني يناير ١١٨١ م وهو في التاسعة عشرة من عمره . فاستدعى الأمراء من أتباعه أيضا عز الدين مسعود لتسلمها (١) ولكن الخلاف دب بين الأخوين عز الدين مسعود وعماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار الذي طمع في تملك حلب ، مقابل تسليم أخيه عز الدين مسعود لسنجار ، وهدده ان لم يفعل باستدعاء صلاح الدين وتسليم سنجار له . ولم يجد عز الدين بدا من الموافقة نظرا لموقع مدينة سنجار ولتمهيد صلاح الدين عن طريقها لاملاك الزنكيين في حلب والموصل على السواء (٢) .

كان صلاح الدين يراقب الأمور عن كثب . ويعلم مدى خوف الزنكيين منه . ويرى وجوب القضاء عليهم لاتمام عملية التوحيد . وشجعه تحالف صاحب حران معه ، فأخذ في تثبيت أقدامه في منطقة الجزيرة ليفصل بين املاك الزنكيين في كل من حلب والموصل لينفرد بكل منهما على حده . وفي عملية التثبيت استطاع فتح مدينة الرها وبعض المناطق الأخرى في الجزيرة ثم توجه بعدها لحصار مدينة الموصل في سنة ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م . وعلى الرغم من التضييق على

---

١ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١١ ص ٤٧٢
٢ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١١ ص ٤٧٤ ـ ٤٧٥

أهلها الا أنه لم ينل غرضه . فقد أعد عزالدين مسعود عدته للحصار ، وحشد داخل مدينته عددا ضخما من الرجال ، وكميات وافرة من الطعام والسلاح (١) . وجرت بين الطرفين مفاوضات لم تسفر عن شيء لتشبث كل من الطرفين بنقاط لم يحد عنها . فقد تمسك عزالدين بأن يرد صلاح الدين كل ما فتحه من أملاك الزنكيين في الجزيرة ، على حين أن صلاح الدين كان يصر على بقاء هذه الأملاك تحت سيطرته ، اضافة الى تعهد عزالدين بعدم مساعدة أمير حلب في حال حربها مع صلاح الدين (٢) .

فشلت المفاوضات ، ولم يستطع صلاح الدين فتح الموصل بسبب قطع اهالي سنجار طريق الامدادات . ولذلك فانه قرر فتحها ، وتم له ذلك بسرعة ،فتمكن بهذا الفتح من الفصل بين املاك الزنكيين في حلب والموصل (٣) وأخذ من مركزه القوي يعمل على اضعاف مركز امير الموصل ، فحرض الخليفة العباسي الناصرلدين الله ضده ، ونسب اليه التحالف مع الصليبيين (٤) ، فاكتفى الخليفة بالوساطة بين الطرفين المتنازعين (٥) .

اهتم صلاح الدين بعد فتح سنجار بمدينة حلب وقرر فتحها . فألقى الحصار عليها ، واهتم في نفس الوقت بفتح المعاقل المحيطة بها مثل تل خالد وعين تاب ، وأقام المنازل على جبل جوشن ليتمكن من الاستمرار في الحصار ، فخشية صاحبها وادرك انه لا قبل له بالمقاومة ، ولذلك فانه رفض الاستنجاد بالقوى المحيطة به ، وأخذ يفكر بالمفاوضة على الرغم مما

---

١ ـ ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ص ١١٩ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٤٨٤ ـ ٤٨٥
٢ ـ ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٤٨٦ ـ ٤٨٧
٣ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨
٤ ـ ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٢٦٥
٥ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٤٨٨

أظهره أهالي حلب من قوة في مقاومة صلاح الدين ، فأرسل الى صلاح الدين سرا يعرض عليه تنازله عن حلب مقابل اعطائه مدينة سنجار ، فوافق صلاح الدين وزاد ، الخابور ونصيبين والرقة (١) ، على ان يحكمها كتابع له يلحق به بجنده ، حين الطلب ، وتم ذلك في ١٨ صفر ٥٧٩ هـ / حزيران ١١٨٣ م وبذلك تم فتح حلب وأصبحت بلاد الشام بكاملها بيد صلاح الدين .

انشغل صلاح الدين عقب امتلاكه لمدينة حلب بقتال الصليبيين ، ولكنه كان دائم التفكير في مدينة الموصل ، ولذلك فانه بدأ بعزلها وجعل الامراء المحيطين بها يدينون له بالتبعية ، ولما تأكد من ذلك ألقى الحصار على الموصل للمرة الثانية في ربيع الثاني سنة ٥٨١ هـ / تموز ١١٨٥ م (٢) ، وفي اثناء الحصار قام بفتح مدينة ميافارقين (٣) ، ثم عمل على تشديد الحصار على الموصل ، وبدأت بين الطرفين سلسلة من المفاوضات ، وأخذت الرسل تتردد بينهما ، فأسفر ذلك عن توقيع صلح بين الطرفين ، اتفقا فيه على ان يبقى عز الدين حاكما على الموصل كتابع لصلاح الدين ، يخطب له على منابر بلاده ، ويضرب السكة باسمه (٤) ، وهي سياسة سار عليها صلاح الدين مع العديد من الأمراء في المنطقة .

وبهذا يكون صلاح الدين قد حقق الوحدة بين بلاد الشام ومصر ، وأضاف اليها الموصل ، وجعل امراء الأيوبيين تابعين له ، فأمن بذلك ظهره ، وأصبح بامكانه التوجه لقتال الصليبيين .

---

١ - ابن شداد : المصدر السابق ص ٩٨

٢ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٥١١ - ٥١٤ - الحنبلي : المصدر السابق ص ١١٤ - ١١٥

٣ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٥١٥ - ٥١٦

٤ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ص ١٧٢ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٥١٦ - ٥١٨

موقف صلاح الدين من الصليبيين قبل المعارك الكبرى :

لم يكن صلاح الدين في الفترة بين تسلمه السلطة وسنة ٥٨١هـ/١١٨٥م • منصرفا لحرب الصليبيين ، وانما وجه جل جهده ، نحو توحيد الجبهة الاسلامية • ولذلك كانت حروبه يغلب عليها الطابع الدفاعي • فهي اما لحماية املاك المسلمين واراضيهم ، واما ليحول بين الصليبيين ومساعدة بعض القوى الاسلامية الانفصالية التي أعمتها شهوة الحكم عن رؤية الخطر الخارجي • وقد دأب الصليبيون في هذه الفترة على مهاجمة المناطق التي كانت في يد صلاح الدين وتحت سلطته • كما عملوا على تحصين المناطق الاستراتيجية في حوزتهم لجعلها نقاط انذار لهم في عمليات الدفاع ، ونقاط انطلاق في عملية الهجوم ،مستفيدين من انشغال صلاح الدين في عملية توحيد بلاد الشام ومصر • وقد استعانوا في أعمالهم تلك ، بجموع اوربية من اولئك الذين كانوا يقدمون الى البلاد للحج أو للغزو • وكان الصدام بين الطرفين في جهات متعددة في الجنوب والجنوب الغربي ، وفي الشرق والشمال الشرقي وفي البحر الأحمر •

بدأ صلاح الدين أول عمل هجومي بعد أن أصبح سلطانا بالقيام بغزو ثغر عسقلان في اواخر جمادى الأولى سنة ٥٧٣هـ/كانون الاول ديسمبر ١١٧٦م (١) • وقد أراد بلدوين الرابع دخول مدينة عسقلان بقلة من رجاله ،فحصره صلاح الدين بها • ومن ثم أصبحت الساحة في فلسطين خالية لصلاح الدين وجنوده ، فترك صلاح الدين بعض رجاله على أبواب عسقلان وتقدموا في فلسطين الى الجهات الواقعة بين أرسوف ونابلس • ووصل

---

١ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٤٤٢

بعضهم الى تل الصافية ، وما لبث المسلمون ان فوجئوا ببلدوين الرابع يشق طريقه خارج عسقلان ، حيث باغت صلاح الدين عند تل الصافية • وعلى الرغم من أن صلاح الدين بذل جهده ، للوقوف في وجه الصليبيين ،فان اكثر رجاله قتلوا ، ولم ينج هو نفسه الى مصر الا بشق الأنفس (١) •

أدت هذه المعركة الى تقوية معنويات الصليبيين ، وتدعيم مركزهم ، ورفعت من شأن بلدوين الرابع الذي اخذ بعد المعركة يعمل على تحصين مملكته ضد أي هجوم منتظر • فشيد قلعة جديدة قرب بانياس عند بيت يعقوب عرفت باسم حصن جسربنات يعقوب ،كما شيد في السنة التالية حصن هونين ، والغاية من ذلك اغلاق الطريق من ناحية دمشق •

لم يكن صلاح الدين غافلا عما يجري حوله ،بل كان يعمل على احكام خط الحدود شرقي الامارات الصليبية ، ويعين أقاربه عليها ، وينتظر الفرصة المناسبة للانقضاض عليهم • وقد حاول الصليبيون عرقلة عمله في التوحيد ، فهاجموا في الجبهة الشمالية مدينة حماه أكثر من مرة ، ولكن غاراتهم لم تفلح في تحقيق أهداف كبيرة (٢) • كذلك فانهم هاجموا مدينة حارم ، ولكنهم لم يستطيعوا فتحها (٣) • كما أغاروا على مناطق تابعة لمدينة دمشق (٤) • وقاموا بالاعتداء على رعاة الماشية بالقرب من بانياس ، أسفر عن اشتباك محلي ، تطور الى قتال عام • اشترك فيه من الصليبيين ملك بيت المقدس وصاحب حصن بانياس ، ومن الجانب الاسلامي عز الدين فرخشاه •

---

١ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص٤٤٢ـ٤٤٣ـ ابو المحاسن : المصدر السابق ،جزء ٦ ، ص ٢٧

٢ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ،ص ٤٤٤

٣ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٤٤٥

٤ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٤٥٢ـ٤٥٣

ثم انضم اليه عمه صلاح الدين الذى كان يتمركز بالقرب من بانياس منذ سنة ٥٧٤هـ/١١٧٧ـ ١١٧٨م. وقد جرت بين صلاح الدين والفرنج معركتان في المنطقة ، انتصر فيهما صلاح الدين ، وأسر مقدم الداوية ومقدم الاسبتارية وأصيب بلدوين نفسه اصابات خطيرة ،على حين توفى صاحب حصن بانياس (١) . وجرت بين الطرفين مفاوضات أصر فيها صلاح الدين على هدم حصن بنات يعقوب مقابل تعويضهم بالمال . فعرض في أول الأمر ستين الف دينار ، ثم مائة الف فلم يوافقوا . فترك المفاوضات وهاجم الحصن في اول ربيع الاول سنة ٥٧٥هـ/ آب ١١٧٩م حتى استطاع دخوله وهدمه (٢) . وتابع صلاح الدين انتصاراته بسرعة مذهلة ،فأغار على صور وصيدا وبيروت ، وهاجم اسطوله عكا . عند ذلك طلب بلدوين الرابع منه الموافقة على عقد هدنة ، فوافق صلاح الدين على الطلب . وتفرغ لمهاجمة الامارات الصليبية في الشمال مما دفع أمير طرابلس ريموند الثالث الى عقد هدنة معه .

لم يتوقف القتال في الجبهة الشمالية الا فترة ، وعاد صلاح الدين لمهاجمة الصليبيين من هذه الجهة ،فاستولى سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م على قلعة الشقيف (حبيس جلدك) وهي القلعة التي تحمي مملكة بيت المقدس من هجوم مفاجئ من شرقي نهر الأردن (٣) . كما أغار على منطقة الغور وحقق انتصارات ملموسة (٤) .

أما في جهات البحر الأحمر ، فقد تمثل لصلاح الدين خطر جديد في شخص فارس صليبي متهور ، امتلأت حياته بقصص الغدر والخيانة ،

---

١ ـ ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١٠

٢ ـ ابوشامة :المصدر السابق ،جزء ٢ ص ١١ـ١٣ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٤٥٥ـ٤٥٨

٣ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١١ ص ٤٧٩

٤ ـ ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ص ٢٨ ـ ابن الاثير :المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٤٨١

عرف باسم أرناط في العربية ، وريجنالد احيانا وهو رينودي شاتيون • وقد جلب لمملكة بيت المقدس كوارث كثيرة لما قام به من حملات غير مدروسة النتائج ،وما أطلقه من تهديدات جوفاء مخالفة لما جاء في الهدنة المعقودة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس•

قدم أرناط من فرنسا الى انطاكية حيث سنحت له الظروف أن يتزوج من الوصية على عرش انطاكية فعلا شأنه ،فقام بمغامرات حربية طائشة ، فأسره المسلمون قرابة سبعة عشر عاما ٥٥٦ـ٥٧٣هـ/ ١١٦٠ـ١١٧٧م • وعند ما أطلق سراحه تزوج بوريثة صاحب الأردن وعاصمته طبرية اضافة الى الكرك والشوبك• وكان مما يحلو لأرناط ان يعمل على السيطرة على الطريق التجارية والدينية الى مكه ، لغرض الاتاوة على القوافل التي تجتاز الكرك• وقد بدأت محاولاته تلك في سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١ـ١١٨٢م بالهجوم على واحة تيماء ، وغايته الاستيلاء على الأماكن المقدسة في الحجاز • فنهض فروخ شاه نائب صلاح الدين بدمشق بالاغارة على الكرك ،حتى اضطر ارناط الى العودة اليها لحمايتها (١) .

لم ييأس أرناط من تحقيق مشروعه ،بل عاد الى محاولة تنفيذه ثانية ، واختار في هذه الجولة طريق البحر • فبنى سنة٥٧٧هـ/ ١١٨١ـ١١٨٢م ، الأجزاء التي تتكون منها السفن ،ثم نقلها على الابل الى ساحل البحر الأحمر ،حيث جرى تركيبها وشحنها بالرجال وآلات الحرب• وعمل على حرمان أهالي العقبة من الماء ، ومضى حتى وصل الى عيذاب ، حيث صادف مركبا يحمل حجاجا من جدة ، فأسرهم ثم قتلهم • كما نهب مركبين قادمين

١ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١١ ص ٤٧٠

ببضائع من اليمن ، واستولى على الميرة المخصصة لأهل الحجاز (١)• وتوجه بعدها برا الى الحجاز •

كان الأيوبيون بالمرصاد لأرناط• فأرسل العادل أخو صلاح الدين ونائبه في مصر مراكب من السويس تمكنت من هزيمته (٢) ، وأسر أعدادا كبيرة من رجاله نقلوا الى الاسكندرية • وقد ترك لنا ابن جبير وصفا لذلك شاهده بأم عينه في الاسكندرية في ذي الحجة سنة ٥٧٨هـ/نيسان ١١٨٣م، ورأى اجتماع الناس لمعاينة أسرى الروم فقال : (••• ادخلوا البلد راكبين على الجمال ،ووجوههم الى أذنابها •••) • وبذلك باءت محاولة ارناط في الوصول الى الأماكن المقدسة ،وقطع طريق الحاج بالفشل، واسفرت عن عداء شديد بينه وبين صلاح الدين (٣) •

وعلى الرغم من سرعة قضاء العادل على هذا الهجوم ،فانه ادرك محاولة أرناط ضرب العرب المسلمين في صميم دينهم ،ضربهم في اماكنهم المقدسة • ولذلك فان صلاح الدين صمم على فتح الكرك• فهاجمه في ربيع الآخر سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤ آب اغسطس ١١٨٤م والقى الحصار عليه مع قلة من أقاربه وأمراء المسلمين • وكاد ينجح لولا تدخل ملك بيت المقدس الذى أفسد الحصار ،فاضطر صلاح الدين للانسحاب ،ولكنه انتقم بالهجوم على نابلس وسبسطية وجنين (٤) •

---

١ ـ ابن جبير : رحلته ص٥٧ ـ المقريزى : السلوك ،جزء١ ص١٧٩

٢ ـ ابوشامة : المصدر السابق ،جزء٢ ص٢٢ ـ ابن واصل : المصدر السابق جزء٢ ص١٢٧ـ١٢٨

٣ ـ انظر ابن جبير :رحلته ص٥٧ وانظر ايضا ابن واصل :المصدر السابق ، جزء٢ ص١٢٨

٤ ـ ابوشامة : المصدر السابق ،جزء٢ ص٥٦ ـ ابن الاثير :المصدر السابق ، جزء١١ ص٥٠٢ و ٥٠٦ ـ الحنبلي : المصدر السابق ص١١٤

صلاح الدين والمعارك الكبرى مع الصليبيين

١ ـ الموقف قبل حطين

بلغ صلاح الدين ذروة قوته بعد أن جعل كلا من الموصل وحلب تابعتين له. إذ أصبحت البلاد من طوروس حتى النوبة تحت أمرته، وقد أوثق الرباط بين أجزائها بجعلها في يد أبنائه من دون اخوته [١]، ثم انه اصبح يملك اسطولا قويا يعسكر في مصر، تمكن من حصار بيروت [٢] والداروم وغزة وعسقلان. كما اصبح مرهوب الجانب في الداخل والخارج. ففي الداخل، أصبح أمراء المسلمين يؤيدونه بما فيهم الخليفة، او يطيعونه رهبة. أما في الخارج، فقد استطاع فرض احترامه على الدول المحيطة. فعقدت الامبراطورية البيزنطية معه صلحاً، وأنهت علاقاتها العدائية، وسمحت له بإعادة بناء مسجد القسطنطينية [٣]، في حين أن الصليبيين كانوا في وضع سيء. فقد كان بلدوين الرابع ملك بيت المقدس على فراش الموت وأمر العرش في وضع قلق، لأنه لم يكن لمخلف يرثه في المملكة. ففوض في البداية جاي لوزجنان (غي دي لوسينيان) زوج أخته بالوصاية على المملكة، ثم أبعده لسوء سيرته، وأعلن بلدوين الخامس ابن اخته من زوجها وليم دي مونتفرات شريكا له في حكمها ووريثا. وجعل ريموند الثالث أمير طرابلس وصيا عليه. فوقع بذلك خلاف بين جاي لوزجنان (غي دي لوسينيان) وريموند الثالث، تطور بينهما الى قتال بعد وفاة بلدوين

---

١ ـ ابن الاثير : المصدر السابق، جزء ١١ ص٥٢٣ ـ ٥٢٥ ـ الحنبلي : المصدر السابق، ص١١٦ ـ ١١٨ ـ
ـ ابو المحاسن : المصدر السابق، جزء ٦ ص٣٠ ـ ٣١
٢ ـ ابن الاثير : المصدر السابق، جزء ١١ ص٤٨٢
٣ ـ الباز العريني : مصر في عصر الأيوبيين ص٧٢ ـ ٧٣

الرابع ، انتهى لصالح جاى لوزجنان • ولم يجد ريموند امير طرابلس بعد استبعاده بدا من الاتصال بصلاح الدين ، الذى وعده النصرة على خصومه حتى يجعل منه ملكا على الفرنج قاطبة (١) .

هكذا كان حال امارتي بيت المقدس وطرابلس • ولم تكن امارة انطاكية أفضل منهما • فقد أصبحت اراضي هذه الامارة في متناول يد صلاح الدين منذ أن سيطر على حلب وحارم • وأخذ أميرها بوهيموند الثالث باسترضاء صلاح الدين بفك أسارى المسلمين لديه • واجتمع امراء الامارات الصليبية في بيت المقدس للتداول في الأوضاع ،وخاصة أوضاع امارة انطاكية ،فأقروا عقد هدنة مع صلاح الدين لتمكين امارة انطاكية من تقوية دفاعاتها ، مدتها أربع سنوات تبدأ من سنة ٥٨٠هـ/١١٨٥م (٢) • وقد أتاحت هذه الهدنة للصليبيين تصفية كثير من المشاكل الداخلية التي نشبت بينهم بعد وفاة بلدوين الرابع • ولكن جاى لوزجنان الذى أصبح ملك بيت المقدس ،لم يكن على مستوى المسؤولية ،بل يمكن القول أنه كان ضعيفا ،فلم يستطع كسب ود أمير طرابلس ،وانتهاء الخلاف بينهما (٣) ،مما أدى الى حدوث كارثة كبرى شملهم وهي معركة حطين (٤) .

٢ - معركة حطين

أدى تخبط الصليبيين في مشاكلهم الداخلية الى قوة مركز صلاح الدين• مما دفعه الى الانقضاض على الصليبيين وقتالهم في حطين • وكان لهذه

---

١ - ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١١ ص ٥٢٦-٥٢٧- الحنبلي : المصدر السابق ص١١٨

٢ - عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٥٠

٣ - الباز العريني : المرجع السابق ص٧٢

٤ - Lane Poole:op.cit.,p.181

المعركة أسباب متعددة بعيدة ، وأسباب قريبة مباشرة يمكن تلخيصها بما يلي :

١ ـ كانت الامارات الصليبية التي أقيمت في الشام تسير نحو الضعف لأمور متعددة على رأسها :

- الخلافات بين الأمراء ومحاولة كل منهم تحقيق مكاسب شخصية، واهتمام عدد كبير من الأمراء بالوصول الى عرش بيت المقدس .
- حاجة الصليبيين في الشام الى مدد دائم من اوربا ، ليعوضوا ما يفقدونه في الحروب ، واولئك الذين يغادرون المنطقة بعد أن يخبو حماسهم .
- قلة الحملات الصليبية ، وأقصد قلة النجدات العسكرية التي كانت تصل الى معسكر الصليبيين في تلك الفترة .

٢ ـ أهمية تخليص بيت المقدس من الصليبيين وهو ثالث الحرمين ، وقد أسرى الرسول اليه ، اضافة الى وجود ذكريات تاريخية للمسلمين لا تنسى .

٣ ـ القوة الاقتصادية في يد المسلمين كانت أكبر من تلك لدى الصليبيين . فالمسلمون بأيديهم مناطق واسعة ، وقد توحد جزء هام من هذه المناطق تحت قيادة موحدة .

٤ ـ تدفق المسلمين حماسة لاستعادة ما سلبه الصليبيون منهم في ساعة ضعف ، وشعورهم بأنهم اصحاب حق اغتصب ولا بد من استعادته .

٥ ـ وجود قائد حكيم مقاتل شجاع محنك في الحروب وهو صلاح الدين الأيوبي (١) .

---

١ ـ الشيال : المرجع السابق ، من ص ٦٣ ـ ٦٥

أما الأسباب المباشرة فتتلخص بما يلي :

قام أرناط في تلك الظروف السيئة بالنسبة للصليبيين – مستغلا موقع حصنه على خط التجارة بين مصر والشام والحجاز – بالانقضاض على قافلة تجارية للمسلمين متجهة من القاهرة الى دمشق سنة ٥٨٢هـ/ اواخر سنة ١١٨٦ وأوائل سنة ١١٨٧م ، فأخذها بأسرها ، وأسر جنودها المرافقين، وأخذ خيلهم وعدتهم وسامهم العذاب (١) واستهزأ بدينهم قائلا لهم : (فليأت محمدكم ليخلصكم) .

ارسل صلاح الدين ينكر عمل صاحب الكرك ،ويطلب اليه رد ما استولى عليه من المسلمين ،واطلاق سراح الاسرى ، فامتنع وأصر على عصيانه ، فنذر السلطان وأعطى الله عهدا إن ظفر به أن يستبيح دمه. وحاول جاي لوزجنان صاحب بيت المقدس أن يلزم ارناط باصلاح ما أفسده ،فلم يستجب اذ اعتبر نفسه مستقلا ، وليس بينه وبين صلاح الدين هدنة (٢) .

لم يعد امام صلاح الدين الا القيام بعمل حاسم ،ليس له صفة التأديب فقط ، فأعلن الجهاد ، ونادى بالتعبئة العامة لجميع قوى المسلمين وموارد هم البشرية والمادية ، فجاءته الجيوش من كل اطراف الشام ومصر. وخرج من دمشق في محرم سنة ٥٨٣هـ/ ٤ آذار مارس ١١٨٧م للعمل على حماية الحجاج في عودتهم أولا ، من غدر صاحب الكرك ، ثم الشروع بمهاجمة أرناط فيها (٣) .

---

١ – ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ص٧٥ – ابن واصل : المصدر السابق جزء ٢ ص١٢٣ – ١٢٤ – ابن الاثير :المصدر السابق ،جزء ١١ ، ص ٥٢٧ – الحنبلي :المصدر السابق ص١١٨
Baldwin : op. cit. p.,577
٢ – ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص١٨٥
٣ – ابن الأثير :المصدر السابق ،جزء ١١ ص٥٢٩ – ٥٣٠ – الحنبلي : المصدر السابق ص ١١٨ – ١١٩

أنهى صلاح الدين مهمته الأولى ، فاستقبل الحجاج واطمأن عليهم ، ثم أخذ يعمل للسيطرة على الطريق بين مصر والشام للاستعانة بجيوش مصر في مهمته . فعمل على حرمان أرناط من الزاد بقطع الشجر حول الكــرك ، وافساد زروعها وكرومها ، وكذلك فعل بالشوبك (١) . ثم كلف بعض قواده بالاغارة على الشوبك والكرك . وتوجه بمن معه ليعسكر بالقرب من بانيــاس لحماية حليفه ريموند امير طرابلس ، الذى اعتصم بمدينة طبرية قاعــدة الجليل التابعة له ،وحاصر أنصار جاى لوزجنان من الجماعات الدينية احتجاجا على تتويج جاى لوزجنان على عرش بيت المقدس. (٢)

أحجم صليبيو بيت المقدس عن مهاجمة ريموند خوفا من جيوش صــلاح الديــن . وأدرك صلاح الدين أهمية دوره هذا ، وأراد أن يتأكد مــــن التزام أمير طرابلس بتعهده له ،فطلب من ريموند ان يسمح لقوة استطلاعية من جيشه بالمرور في اراضيه الى عكا لمهاجمتها . فلم يجد ريموند مفرا مــــن السماح للقوة بالمرور ، ولكنه أعطى تعليماته سرا لكافة المدن الصليبيــــة الواقعة في اقليم الجليل باغلاق أبوابها ،حتى لا يفسح للمسلمين فرصـــــة الاستيلاء عليها . ومع ذلك فقد انتصرت هذه القوة على فرقة من الداويـــة اعترضت طريقها بالقرب من صفورية ، وقتل مقدم الداوية ورجاله البالغين خمسمائة إلا عددا لا يتجاوز أصابع اليدين (٣) .

كانت هذه المعركة فاتحة النصر ،ولكنها نبهت في نفس الوقت الصليبيين للخطر المحدق بهم ، والى ضرورة التخلص من النزاع ووضع أيديهم مع

---

١ ـ الحنبلي : المصدر السابق ص١١٩

٢ ـ المقريزى : السلوك ،جز١ ص٩٣

٣ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ،جز ١١ ص٥٣٠ ـ ٥٣١

بعضهم ، قبل أن يقضي عليهم . فبادر ريموند أمير طرابلس الى الدخول في طاعة الملك جاي لوزجنان ، وانتقل من موقع الصداقة الى موقع العداوة مع صلاح الدين ، وتشكل جيش صليبي موحد عسكر في صفورية قرب عكا .

تحلل صلاح الدين مما كان بينه وبين أمير طرابلس، وأصبح بامكانه ان يواجه جيوش الصليبيين جميعا بكامل قوته . وسار ضمن خطة موضوعة منظمة، رأى فيها أن يعمل على سحب العدو من مواقعه ،لمقاتلته في المكان الذي يحدده ،وبدأ تحرشه بهم بشن الغارات على مناطق العدو ، والزحف على مدينة طبرية ،ربيع الثاني سنة ٥٨٣هـ/ حزيران سنة ١١٨٧م ،فتمكن من اقتحامها دون قلعتها [١] .

عقد زعماء الصليبيين مجلسا للحرب في عكا لبحث الموقف ،فاختلفت آراؤهم حول البقاء في معسكرهم أم المسير للقاء صلاح الدين في طبرية . وكان على رأس المتمسكين بالبقاء في أماكنهم أمير طرابلس ريموند الثالث ، على الرغم من أن طبرية تابعة له وأن زوجته محصورة في قلعتها لأنه كان يقدر قوة صلاح الدين ويخشى مواجهته [٢] . وعلى الرغم من عقلانية موقفه واخلاصه في رأيه ،فانه اتهم بالجبن والتواطؤ مع المسلمين والتخوف منهم . وكان على رأس من اتهمه ارناط [٣] ، صاحب الكرك ، وجيرار مقدم الداوية [٤] .

أصدر ملك بيت المقدس أوامره بالمسير لمقابلة صلاح الدين ،فاستعد

---

١ — ابن واصل : المصدر السابق ،جزء ٢ ص١٨٨ — ابن الاثير :المصدر السابق ، جزء ١١ ، ٥٣١ـ٥٣٣ — ابن شداد :المصدر السابق ، ص٧٦ — الحنبلي :المصدر السابق ص١١٩

٢ — انظر ابن الاثير: المصدر السابق ،جزء ١١ ص٥٣٣ .

٣ — ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١١ ص٥٣٣ .

٤ — Baldwin: op.cit.,p.611

الجيش للتحرك ، واتخذ طريقه من صفورية الى طبرية باتجاه الشمال الشرقي لينتهي على بعد ميل واحد من شمال مدينة طبرية • فتعرض في اثناء مسيره شرقا لكمائن المسلمين ، كما عانى من وعورة الطريق وحرارة الشمس في شهر تموز (١) • حتى ان ريموند الثالث ومقدم الداوية طلبا من ملك بيت المقدس السماح لهما بقضاء الليل فوق الهضبة بعيدا عن خطر المسلمين •

تلقى صلاح الدين من جواسيسه نبأ تحرك القوات الصليبية ضده ، كما أعلم بالطريق الذي سيسلكونه في مسيرهم اليه ،فاطمأن الى نجاح خطته في استدراج الجيش الصليبي (٢) ، فترك قوة صغيرة تحاصر طبرية،وانسحب مع جيشه الرئيسي ليعسكر في التلال الواقعة غربي المدينة حيث تقع قرية حطين ذات الماء والمرعى ، وكان يعلو تل حطين قمتان بارتفاع مائة قدم تقريبا ، مما دعا العرب الى تسميتها قرون حطين • وتعود أهمية هذا الموقع الى انه كان عند بداية انحدار الطريق الذي سلكه الصليبيون الى بحيرة طبرية • وقد أراد صلاح الدين بذلك احكام تطويق العدو المتقدم بهذا الاتجاه •

لم يستطع الصليبيون الوصول الى الماء • وكان حصار صلاح الدين لهم قويا ،وأضاف باشعال النار في الأعشاب والأشواك ،ليزيد حرهم حرا ، وليضيق انفاسهم بالدخان • كما نهض المسلمون كالرجل الواحد يرشقون الصليبيين المحاصرين بسهامهم ،فزاد وضعهم حرجا ، وفرّ قسم منهم باتجاه مدينة صور ،وعلى رأس هؤلاء ريموند ، حيث أفسح له المسلمون الانسحاب عبر صفوفهم ، وانسحب بقية الصليبيين صاعدين المرتفع في حالة سيئة من العطش

---

١ _ King: The knights Hospitallers;pp 125-126

٢ _ ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ص ٧٦

والحر والدخان (١) ، فزحف المسلمون اليهم وحاصروهم في القمة حيث استسلم القادة (٢) بمن فيهم ملكهم جاى لوزجنان (غي دي لوسينيان) وكذلك أرناط وغيره (٣) من امثال اوك (٤) وهنفرى (٥) وعدد كبير من البارونات والفرسان والداوية والاسبتارية . وكان ذلك في ٢٤ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ / ٤ تموز يوليو ١١٨٧م (٦) .

أمر صلاح الدين بضرب سرادقه ، حيث نزل فيه فصلى صلاة الشكر ، ثم طلب احضار ملوك الصليبيين ومقدميهم . ولم يكن بنية صلاح الدين قتلهم عدا أرناط الطائش ، ولذلك فانه بادر باعطاء ملك بيت المقدس ماء ليشرب بعد أن أنهكه العطش ، ورفض أن يفعل ذلك مع ارناط ، واعترض على ملك بيت المقدس الذى اراد سقيه لنية في نفسه . ثم نهض صلاح الدين بتذكير أرناط بجرائمه وخيانته ، تلك الجرائم التي يستحق القتل على كل منها . ثم ضربه بسيفه فقتله . وطمأن بقية الملوك والأمراء على حياتهم ، وقام برعايتهم ورعاية أسرهم ، ونقلهم الى قلعة دمشق حيث جرى الاحتياط عليهم (٧) .

كانت حطين من اكبر الكوارث التي حلت بالصليبيين . فقد تمكن المسلمون من تحطيم قوتهم الضاربة ، حتى قال فيها ابن الاثير (٨) : (ما اصيب الفرنج

---

١ — ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ص ١٩٠
٢ — عماد الدين الكاتب : الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ٢٣ — ابن شداد : المصدر السابق ص ٧٧ — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٥٣٧ — ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ص ١٩٠ — ١٩٢ — Baldwin: op. cit., p 613
٣ — ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ص ١٩٤
٤ — هو صاحب جبيل
٥ — هو صاحب تبنين
٦ — ابن شداد : المصدر السابق ص ٧٥.
٧ — ابن شداد : المصدر السابق ص ٧٨ — ٧٩ — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٥٣٧ — ٥٣٨ — الحنبلي : المصدر السابق ، ص ١٢١
٨ — المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٥٣٧

منذ خرجوا الى الساحل وهو سنة احدى وتسعين واربعمائة الى الآن بمثل هذه الوقعة • فقد أدت من جهة الى انهيار روحهم المعنوية ،كما أضاعت هيبتهم وأظهرت انقسامهم ، وأفقدت ملك بيت المقدس مكانة الزعامة بين الصليبيين ، كما نقص عدد الفرسان بعدها نقصا ملموسا ، وخاصة فرسان بيت المقدس بسبب كثرة من قتل منهم ومن اسر ، حتى قال ابو شامة وابن الاثير [١] (أن من شاهد القتلى قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل) • واذا أضفنا الى ذلك ما يعرف سابقا عن قلة المحاربين في الامارات الصليبية ،لأدركنا واقع الأمر الذى آل اليه وضع الصليبيين ، على حين كانت حطين بالنسبة للمسلمين فاتحة خير ، ومعركة من المعارك الحاسمة ،فتحت الطريق امامهم لاستعادة اراضيهم ، كما بثت الأمل في قلوب الناس بالنصر ، وفتحت قرائح الشعراء [٢] • كما اظهرت حسن معاملة المسلمين لغيرهم ، وتمسكهم بمبادئ الأخلاق والرحمة والتسامح ، وهو الأمر الذى شهد لهم به كافة المؤرخين الغربيين والشرقيين على السواء •

٣ ـ موقف صلاح الدين بعد حطين :

أ ـ فتح مدن الساحل

أصبح الموقف الحربي بعد معركة حطين شديد الخطورة على مملكة بيت المقدس ، وإمارتي طرابلس وانطاكية ، اذ صار صلاح الدين يسيطر على اقليم الجليل تقريبا على حين ان ممالك الصليبيين فقدت المدافعين

---

١ ـ تاريخ الروضتين ،جزء ٢ ص ٨٧ـ الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ص ٥٣٧
٢ ـ انظر ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٨٣

عنها • وكان على صلاح الدين أن يستغل هذا النصر في توجيه ضربات قوية للعدو وقبل ان يصحو من النكبة التي اصابته، ولا ستعادة ما ضاع من المسلمين في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي • ولم يضيع صلاح الدين الفرصة ، وحقق انتصارات سريعة وهامة •

لم يشأ صلاح الدين ان يتوجه لفتح بيت المقدس مباشرة بعد معركة حطين ، بل آثر التوجه الى الساحل لعوامل متعددة منها :

- أنه لم يرغب باثارة الغرب الأوربي ضده ، بالاسراع بمد يد المعونة للصليبيين اذا علموا بسقوط بيت المقدس •
- أن يمنع أي مدد يأتي الى امارة بيت المقدس عن طريق البحر ، حتى اذا هاجمها يسهل عليه فتحها مع المدن والقلاع الداخلية القريبة منها •
- تأمين خط الاتصال البحري مع مصر للحصول على المدد العسكري والمؤونة •

توجه صلاح الدين بجيوشه الى ميناء عكا • وعلى حين كان صلاح الدين يرتاد موضعا للنزال فحسب، وقبل البدء بحصار المدينة ، خرج اليه كثير من أهلها يتضرعون ويطلبون الأمان ، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم ، وخيرهم بين الاقامة والرحيل ، فاختاروا الرحيل • فدخل صلاح الدين والمسلمون المدينة في مطلع جمادى الأولى سنة ٥٨٣ هـ/ تموز ١١٨٧ م واستولوا على ما فيها من الأموال والذخائر ، واطلقوا سراح من كان بها من الأسرى المسلمين • ولا يمكن تعليل هذا السقوط السريع لمدينة عكا الا بتخوفهم من قوة صلاح الدين ، وما سمعوه عن أخبار رحمته والتي طبقها فعلا في عكا حيث وهب الأهالي عصمة الأنفس والأموال (١) ، اضافة الى افتقارها كغيرها الى الفرسان وتخاذل

١ — ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٨٦ — ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٧٩
— ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٥٣٩ — ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٠٢ — الحنبلي : المصدر السابق، ص ٢٢٢

اميرها جوسلين الثالث عن الدفاع • ومما لا شك فيه ان سقوط عكا كان له أهمية كبيرة ،فهي مدينة غنية لأنها مظنـة التجار [١] • الى جانب انها من أهم موانئ بيت المقدس على الاطلاق ،يردها الحجاج في طريقهم الى بيت المقدس •

أقام صلاح الدين في عكا موقتا حيث اتخذها مركزا لانطلاق جيوشه الى المعاقل القريبة ، كالناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية والشقيف والفوله وغيرها من البلاد المجاورة [٢] حيث استولى عليها • ثم جرى الاستيلاء على نابلس [٣] وصيدا وبيروت وسلمت جبيل اليه [٤] مقابل اطلاق سراح صاحبها الذي كان في أسره منذ معركة حطين [٥] • ثم توجه الى عسقلان [٦] • وفي طريقه اليها استولى على الرملة وحصن تبنين وبيت لحم والخليل ، واستسلمت له عسقلان في رجب سنة ٥٨٣هـ/ ايلول سنة ١١٨٧م • كما فتح غزة والداروم [٧] وقيسارية وحيفا وأرسوف [٨] • كما استولى على حصون الداوية وهي غزة والنطرون وبيت جبريل • كما زحف العادل أخو صلاح الدين من مصر ،واستولى على يافا • وكذلك سقطت المدن والحصون الداخلية الواقعة جنوب بحيرة طبرية • ماعدا الشوبك والكرك الحصنان

---

١ ـ أبوشامة : المصدر السابق ،جزء ٢ ص٨٦ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١١ ص ٥٣٩ ـ ٥٤٠
٢ ـ ابن واصل : المصدر السابق ،جزء ٢ ص ٢٠٢
٣ ـ أبوشامة : المصدر السابق ،جزء ٢ ص٨٨
٤ ـ أبوشامة : المصدر السابق ،جزء ٢ ص٨٩ ـ ٩٠
٥ ـ Boldwin: op. cit., p. 576
٦ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١١ ص٥٤٥
٧ ـ ابوشامة : المصدر السابق ،جزء ٢ ص٩١ ـ ٩٢
٨ ـ ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ص ٨٨ ـ ٨٩

اللذان بقيا على المقاومة ، وخضع له بذلك الساحل برمته من بيروت الى يافا عدا مدينة صور ،اضافة الى خضوع عسقلان وحصن كوكب وصفد وشقيف آرنون [١] .

لقد كان للمعاملة الحسنة التي عامل بها صلاح الدين اهالي عكا وطبرية من قبلها أكبر الأثر في سقوط المدن الساحلية متتابعة في يده . كما أنه عمل على الحفاظ على النشاط التجاري في المدن ،مما أدى الى تقدم أحوالها الاقتصادية ، والى تعويض أهاليها عما فقدوه سابقا .

تجمعت جيوش الصليبيين جميعا والتي خرجت من مدن الساحل في مدينة صور بسبب ترك صلاح الدين لهم الحرية باختيار المكان الذي يريدونه، فقصد معظمهم مدينة صور . وسرعان ما أدرك صلاح الدين أن أمر صور غدا صعبا لتجمع الصليبيين بها [٢] ، ولتولي قيادة من بها من الصليبيين كنراد دي مونتفرات ، فحمس أهاليها ، ومنعهم من الاستسلام لصلاح الدين ، حين حاصرها لمدة اسبوع . وكان ذلك مؤشرا خطيرا ، اذ تبنّت هذه المدينة حركة المقاومة ضد المسلمين ، ومنها أخذوا يوجهون حملاتهم لاسترداد ما استولى عليه صلاح الدين من ممتلكات [٣] .

ب ـ فتح بيت المقدس :

أمن صلاح الدين بعد سيطرته على الساحل ، عدم امكانية ورود

---

١ ـ ابن واصل : المصدر السابق ،جزء ٢ ،ص ٢٠٦ ـ ٢١٠ وانظر اسماء المدن والقرى والقلاع التي فتحها صلاح الدين في هذه الجولة من تاريخ أبي شامة جزء ٢ ، ص ٨٨ ـ ٨٩ والحنبلي شفاء القلوب ، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

٢ ـ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ٢ ، ص ٨١٧

٣ ـ ابن شداد : المصدر السابق ص ٨٣ ـ ٨٤

الامدادات الى الصليبيين ،وأصبح الوقت مناسبا لفتح القدس ، الهدف الأسمى • وكان قد تسلم أمر الدفاع عن بيت المقدس باليان ابلين،ويعرف باسم باليان الثاني ، ويسميه العرب باوزان • وهو زوج أرملة عمورى الأول • وكان من أسرى حطين بيد صلاح الدين • استغل التسامح الذى عرف بـه صلاح الدين ،فاستعطفه بالسماح له بدخول بيت المقدس ليلة واحدة ، لأخذ زوجته واولاده منها • ولكنه ما ان وصل اليها حتى نسي وعده ،واستغل أوضاع بيت المقدس المضطربة لينصب نفسه حاكما عليها • وأخذ في تقوية وسائل الدفاع عن المدينة بجمع من استطاع من الفرسان وابنائهم فوق سن الخامسة عشر ، وكذلك الصناع والتجار وغيرهم من أصحاب الحرف • كما استولى على النفائس المعدنية والأواني الفضية في كنيسة القيامة ، وقام بصهرها وضربها نقودا ليستعين بها على قضاء حاجات الدفاع واستئجار الجند •

بدأ صلاح الدين محاولاته السلمية لتحرير بيت المقدس منذ ان كان أمام أبواب عسقلان فقابل وفدا من رجال بيت المقدس ، وعرض عليهم الاستسلام على نفس الشروط التي استسلمت بها المدن الصليبية المتعددة • ولكنهم رفضوا بسبب روح التمرد والمقاومة التي بثها فيهم باليان • عندئذ أقسم صلاح الدين على أن يأخذ بيت المقدس بحد السيف •

توجه صلاح الدين لحصار المدينة المقدسة بعد فتح مدينة عسقلان،وعلى الرغم من قسمه السابق فانه عرض على اهلها الاستسلام بشروط حسنه،فرفضوا • وكان صلاح الدين يقدم كل هذه التساهلات حرصا منه على قدسية المدينة ، ورغبة في عدم استخدام العنف فيها مع مقدرته التامة على استخدام القوة •

طاف صلاح الدين حول سور المدينة ليتحسس نقاط الضعف في تحصينها ،

فرأى أن يركز جهوده ، وهجومه على الجهة الشمالية عند كنيسة صهيون • وبدأ هجومه عليها في ١٥ رجب سنة ٥٨٣هـ/ايلول سنة ١١٨٧م • فنصب المنجنيقات ،وحمل المسلمون حملة رجل واحد حتى وصلوا الى سور المدينة ونقبوه عند باب العمود (١) ، وضايقوا أهلها بكثرة الرمي ضدهم •

رأى مدافعو بيت المقدس شدة هجوم صلاح الدين عليهم فخشوه• كما نشب خلاف بين طوائف المسيحيين الارثوذكس والكاثوليك ،مما جعل الجميع يدركون استحالة المقاومة وضرورة تسليم المدينة • فطلبوا الأمان بعد أقل من شهرين من الحصار • فأرسلوا جماعة من كبرائهم في هذا الأمر ،فرفض صلاح الدين في البداية دخولها الا بالسيف عقابا لهم على رفضهم لعروضه السابقة • ولكنه ما لبث ان نزل عند رغباتهم ،وأعطاهم الأمان بشروط ، حفاظا على المدينة ، بعد أن هدد باليان بتدميرها وتخريب الأماكن المقدسة ،وقتل من بها من المسلمين اذا دب اليأس بهم ، وأدركوا أنهم مأخوذين لا محالة (٢) •

اما الشروط فهي :

١ ـ ان يتسلم صلاح الدين بيت المقدس ، على أن يسمح لمن يريد الخروج مقابل فدية قدرها عشرة دنانير عن كل رجل ،وخمسة عن كل امرأة

---

١ ـ ابن شداد :المصدر السابق ص٨١ ـ ابن الاثير :المصدر السابق ،جزء ١١، ص٥٤٧ ـ ٥٤٨

٢ ـ انظر ماجرى بين صلاح الدين وباليان من اجل الصلح في كتاب أبي شامة : المصدر السابق ،جزء ٢ ص٩٧ ـ ابن واصل :المصدر السابق ،جزء ٢ ص ٢١٢ ـ ٢١٤ ـ ابن الاثير :المصدر السابق ،جزء ١١ ص٥٤٨ ـ ٥٤٩ ـ Baldwin:op.cit.,p.616

وديناران عن كل صغير ذكر او انثى (١) .

٢ _ وافق صلاح الدين على أخذ مبلغ اجمالي عن سبعة آلاف من الفقراء والمعدمين قدره ثلاثون الف دينار (٢) .

٣ _ ان يتم دفع الصليبيين للمبالغ المترتبة عليهم خلال اربعين يوما .

نفذ صلاح الدين هذه الشروط بسماحته المعروفة ، فأعفى البعض من الدفع ، كما أعطى الارامل الفقيرات مالا اضافة لمسامحتهن بالفدية . وخرج الصليبيون من بيت المقدس بكل ما يملكون دون ان يعترض عليهم معترض ، كما قدم لهم صلاح الدين الحماية حتى وصولهم الى المناطق الصليبية وذلك خشية من هجمات البدو عليهم . وفي هذا ما فيه من كرم الأخلاق .

تسلم صلاح الدين بيت المقدس في يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ / ١٢ تشرين الاول ١١٨٧م ، ثم تسلم القلعة . وكان بامكانه في ذلك الوقت أن يفعل بسكانها من الصليبيين ما يشاء ، انتقاما لما فعلوه حين دخلوا المدينة . ولكنه عفا عنهم عفو القادر ، وتسامح مع الفقراء الذين عجزوا عن دفع الفدية ، وأطلق سراح اليتامى والأرامل والشيوخ ومدهم بالمساعدات الكبيرة ، على حين أن اغنياءهم ورجال الدين منهم كانوا يخرجون بأكداس الذهب وغيره ، ويتركون أقرانهم الفقراء خلفهم دون فداء . ومثالنا على ذلك بطريرك بيت المقدس الذي خرج حاملا معه ما استطاع حمله من الذهب والفضة ، ومن خلفه العربات تحمل نفائس الكنيسة التي نهبها قبل خروجه (٣) . كما سمح للمسيحيين الشرقيين بالبقاء في بيت المقدس شرط دفع الجزية ،مع اعفاء فقرائهم من دفعها . وأبقى اليهود فيها ،وسمح لاعداد

---

١ _ ابن شداد : المصدر السابق ص ٨٢ _ ابن الاثير : المصدر السابق جزء ١١ ص ٥٤٩

٢ _ ابن واصل : المصدر السابق ،جزء ٢ ص ٢١٥ _ ٢١٦

٣ _ ابن شداد : المصدر السابق، جزء ٢ ص ١١٥ _ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٥٤٩ _ ٥٥٠

منهم بالهجرة اليها .

احتفل المسلمون بفتح بيت المقدس احتفالا لا مثيل له ، وارتفعت الأصوات بالتهليل والتكبير (١) . ووزعت الأموال بهذه المناسبة الكبيرة . ثم نهض صلاح الدين بعمارة المسجد الأقصى ، وبنى في المدينة المدارس والبيمارستانات لمعالجة المرضى . وأرسل سفارة الى الامبراطور البيزنطي انجيلوس يعلمه بذلك . فرد عليه الامبراطور مهنئا له طالبا منه وضع كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس المسيحية تحت اشراف رجال الدين الأرثوذكس الذين تعينهم الحكومة البيزنطية ، مع ارسال صليب الصلبوت اليه فرفض صلاح الدين ذلك .

---

١ ـ ابوشامة : المصدر السابق ،جزء ٢ ،ص١١٥ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١١ ص٥٥١ ـ ٥٥٢ ـ الحنبلي : المصدر السابق ، ص١٤٨ ـ ١٤٩

الفصل الخامس

النكسة والحملة الصليبية الثالثة

صلاح الدين أمام أبواب صور

الحملة الصليبية الثالثة وحصار عكا

١ ـ حصار عكا

٢ ـ الحملة الصليبية الثالثة

٣ ـ صلاح الدين وريتشارد بعد سقوط عكا

أ ـ ريتشارد يحتل بعض مدن ساحل فلسطين

ب ـ محاولة ريتشارد احتلال مدينة القدس ثانية

حـ ـ صلح الرملة

صلاح الدين بعد صلح الرملة

وفاة صلاح الدين

الفصل الخامس

النكسة والحملة الصليبية الثالثة

صلاح الدين أمام أبواب صور

اهتم صلاح الدين بتحرير مدينة صور لعدة أمور ، فقد اصبحت مكان تجمع الصليبيين الذين تركوا المدن المحررة من قبل صلاح الدين ، واولئك الذين وفدوا من الخارج بقيادة كونراد دي مونتفرات الذي دعاه العرب باسم المركيس[1] ، وأخذت بذلك تشكل خطرا على فتوحات صلاح الدين . اضافة الى حصانة المدينة الطبيعية لمن يغزوها من جهة البر[2] .

ألقى صلاح الدين الحصار البري والبحري على مدينة صور، في ٢٢ رمضان سنة ٥٨٣هـ/تشرين الثاني ١١٨٧م[3] . واستخدم في الحصار البري قواتا من أرجاء بلاد الشام ، كما استعان في الحصار البحري بالاسطول المصري . ولكن واجه ظروفا داخلية وخارجية ،اجبرته على فك الحصار[4] ، وعلى رأسها :

- قيام بحارة الصليبيين بنصب كمين لاسطول المسلمين ، وأسر خمس قطع بحرية منه .
- مواجهة الجيش البري لمشاكل متعددة
- تضايق بعض رجال الدين من كثرة الحروب ، ورغبتهم في العودة الى منازلهم .
- قدوم فصل الشتاء وصعوبة استمرار الحصار

---

١ ــ ابن واصل : المصدر السابق ،جزء ٢ ص٢٤٣

٢ ــ انظر عن حصانة المدينة أبن الاثير : المصدر السابق، جزء ١١ ص٥٥٤

٣ ــ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٥٥٣

٤ ــ ابوشامة : المصدر السابق،جزء ٢ ص ٨٣ــ٨٤ــ ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١١ ص٥٥٤ــ ٥٥٧

— قوة دفاع كونراد دي مونتفرات ورجاله عن المدينة ·

لم يدع صلاح الدين عملية التحرير نهائيا بعد فشله أمام مدينة صور ، بل وجه أنظاره باتجاه امارتي طرابلس وانطاكية · فاستسلم له حصن هونين[1] كما استسلم حصن الكرك في رمضان سنة ٥٨٤هـ/تشرين الثاني ١١٨٨م ، وتبعه استسلام حصون الشوبك والوعر والسلع[2] · واستولى ايضا على مدينة صفد بالأمان في ذي القعدة سنة ٥٨٤هـ/كانون الثاني ١١٨٩م[3] · وأتبع ذلك بالاستيلاء على جبلة وبانياس واللاذقية وحصن صهيون[4] · كما تسلم حصن برزويه ودربساك[5] اضافة الى هذه حصون وقلاع اخرى[6] ·

وجه صلاح الدين اهتمامه الى هذه الحصون والقلاع التي سقطت في يده ، فأخذ يعمل على تقوية القلاع الكبيرة والهامة وهدم الضعيفة منها التي يمكن ان تفيد الصليبيين فيما لو وقعت في أيديهم ·

تقلصت الامارات الصليبية الثلاث الى حد كبير بفضل قوة وهمة صلاح الدين ،فشملت مملكة بيت المقدس بكاملها (عدا صور وحصن شقيف آرنون ،وامارة طرابلس عدا مدينة طرابلس وطرطوس وحصن الأكراد ، وامارة انطاكية عدا مدينة انطاكية وحصن المرقب ومواقع أخرى قليلة الأهمية[7]. وأحس جنده بعد المجهودات الضخمة التي بذلوها والحروب المستمرة التي خاضوها بأنهم بحاجة الى فترة من الراحة ، اضافة الى انتشار خبر قرب وصول حملة صليبية جديدة ، وحاجة صلاح الدين لتنظيم فتوحاته ، مما دفع

---

١ — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٥٥٧
٢ — Baldwin:op.cit.,p 585
٣ — ابن الاثير :المصدر السابق ،جزء ١٢ ص٥ — الحنبلي :المصدر السابق ص١٥٣
٤ — ابن الاثير :المصدر السابق ،جزء ١٢ ص٧ — ٩ وص ١٠ — ١١
٥ — ابن الاثير :المصدر السابق ،جزء ١٢ ص١٧ — الحنبلي : المصدر السابق ، ص١٥٦ — ١٥٧
٦ — أنظر الخريطة رقم
٧ — عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٥٧

به الى قبول عوض للصلح تقدم به أمير انطاكية لمدة ثمانية اشهر (١) .

الحملة الصليبيـة الثالثة وحصار عكا

١ _ حصار عكـا

أفرج صلاح الدين الأيوبي عن جاي لوزجنان (غي دي لوسينيان) ملـك بيت المقدس ، الذي كان قد أسر في حطين ، بعد أن قطع على نفسه عهدا بان لا يشهر في وجه صلاح الدين سيفا أبدا ، ويكون غلامه ومملوكه طليقـا ابدا (٢) .

حين خرج جاي من السجن ، أخذ يفتش لنفسه عن ملجأ يلجأ اليـه ، فتوجه الى مدينة صور ليتخذ ها مركزا له ، فوجد ممانعة من أميرها كونـراد دي مونتفـرات ، الذي رفض ادخاله اليها خشية من مطامعه . ولذلك فانه قرر أن يستعين بمن معه من الرجال وبمن يستطيع جمعهم على احتلال مدينة عكا لاتخاذ ها مركزا جديدا له . ونهض لتحقيق غايته ، فجمع من اسـتطاع جمعه ، وسار بهم حتى عسكر على أبواب عكا في رجب سنة ٥٨٥هـ/آب اغسطس ١١٨٩م ، وأخذ في حصارها برا وبحرا (٣) . ولما كان امير طرابلس يخشـى مطامع جاي لوزجنان في مدينته ، أراد ان يساعده في حصار عكا ليضمن استقراره فيها ، ويتخلص من شره ومطامعه ، ولذلك فانه تبعه والقى معه الحصار علـى المدينـة (٤) .

---

١ _ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ص ١٩ _ ٢٠

٢ _ ابن شداد : المصدر السابق ص ١٥٢ _ Baldwin: op.cit., p. 610

٣ _ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ص ٣٢ _ ٣٥

٤ _ Lane Poole: op.cit., p. 259

علم صلاح الدين بما فعله جاي لوزجنان ،ولذلك فانه سار بجيوشه،حتى عسكر في تل كيسان وتل العياضية على مقربة من جموع الصليبيين (١) ، وأخذ في مهاجمتهم . وتكررت هجماته الناجحة مما جعل الصليبيين بين نارين ، نار العرب المسلمين داخل عكا ، ونار قوات صلاح الدين خارجها . وشاءت الأقدار أن يصاب صلاح الدين بوباء اضطره أن يترك الدفاع عن عكـــــا للاستشفاء ،فانفسح المجال امام الصليبيين ، لتحصين مواقعهم بحفر خندق حول معسكرهم من البحر الى البحر ، ونصبوا آلات الحصار ،فانقطع الطريـــق اليها على جيوش صلاح الدين . ولم يعد يصل الى سكان المدينة المحاصـرة الا تعليمات صلاح الدين التي كانت ترسل الى حامية المدينة عن طريـــق العوامين في البحر وعن طريق الحمام الزاجل (٢) .

أدرك صلاح الدين خطورة موقفه ، واراد ان يجعل من حصار عكـــا قضية يهتم بها كل العرب والمسلمين ،علهم بتعاونهم يستطيعون رد كيد العدو . فأرسل طالبا النجدة من الخليفة العباسي ومن الأراتقة وأمراء الزنكيين وغيرهم ، كما استنجد بأمراء المغرب العربي (٣) وطلب منهـــم قطع الطريق على السفن الأوربية التي تقوم بامداد الصليبيين في الشـام بما يحتاجون اليه من مؤن وامداد (٤) . ونهض بنفسه لتجنيد كافة امكانياته ، فجند كل قوى الشام ومصر البرية ، كما عمل على الاستعانة بالاسطول المصرى الذى قدم الى سواحل عكا ، وأخذ رجاله يعملون جاهدين على مد سكان

---

١ ـ Lane Poole: Ibid.,p 259

٢ ـ Baldwin: op.cit.,p 611

٣ ـ ابوشامة :المصدر السابق ،جزء ٢ ص ١٧٠ـ١٧٣

ـ Lane Poole:op.cit.,pp287-288

٤ ـ Baldwin: op. cit.,p 611

عكا بما يستطيعون • وأظهر المسلمون في هذا الحصار صورا رائعة من صور البطولة والفداء • ولكنهم على الرغم من ذلك لم يستطيعوا انقاذ المدينة المحاصرة •

٢ _ الحملة الصليبية الثالثة

في تلك الظروف الحرجة بالنسبة للفريقين ، وصلت الحملة الصليبية التي عرفت بالثالثة الى سواحل الشام • وتغير ميزان القوى لصالح الصليبيين •

كان وصول هذه الحملة رد فعل على فتح المسلمين لبيت المقدس • وقد لعب بعض الصليبيين في الشام دورا كبيرا في تحريض أوربا المسيحية على ذلك ، ومن هؤلاء كونراد دي مونتفرات امير طرابلس الذى ارسل رئيس اساقفة مدينته الى البابا والى غرب اوربا منذ سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م مستنجدا طالبا ارسال حملة الى المشرق •

استجاب لدعوة البابا ملوك كل من انجلترة وفرنسا والمانيا • فتحرك في البداية امبراطور المانيا فردريك بربروسا في ربيع الاول سنة ٥٨٥هـ/ ايار ١١٨٩م على رأس جيش تقدر بمائة الف محارب ، متخذا طريق البر ، ثم تبعه كل من ملكي انجلترة وفرنسا على رأس جيوشهما بحرا (١) •

تعرض الامبراطور الالماني فردريك لمتاعب جمة أدت الى فشله في تحقيق أهدافه • وكان على رأسها وقوف البيزنطيين ضده ، بسبب تحالفهم مع صلاح الدين من جهة ، ولتحالف امبراطور المانيا مع النورمانديين أعداء بيزنطة التقليديين ، اضافة الى صعوبة الطريق ، وقلة الماء والزاد ، وهجمات التركمان في اسية الصغرى •

---

١ - Lane Pool : op.cit., p 281

كانت أخبار مسير فريد ريك تصل تباعا الى صلاح الدين عن طريـــــق البيزنطيين والبنادقة في سبيل الحفاظ على مصالحهم التجارية • ونهـض صلاح الدين حين علم باقتراب الجيش الصليبي باعلان الجهاد وطلـــب المساعدة من الدول الاسلامية المجاورة [1] ولكن الله أنقذ المسلميـن مـن هذا الخطر بغرق فريد ريك اثناء عبوره نهر في قليقية قرب أذنة ،فتفرق جيشه وعاد بعض امرائه الى المانيا ، وبقيت فئة بقيادة ابن الامبراطـــور واسمه فريد ريك السوابي الذى شارك طوائف الصليبيين في حصار عكا شعبان سنة ٥٨٦هـ/ اوائل تشرين الأول ١١٩٠م [2] •

وما لبث ان وصل فيليب اوغست ملك فرنسا في ٢٣ربيع الاول سنة ٥٨٧ هـ/ نيسان ١١٩١م فعمل على توحيد قلوب الصليبيين تحت زعامته ، ووجــه جهود هم لحرب المسلمين [3] ، ثم وصل ملك انكلترة ريتشارد قلب الأسـد الذى فتح في طريقه جزيرة قبرص في ١٣ جمادى الأولى من نفس الســنة/ ٨ حزيران [4] ، ثم توجه الى عكا ، واشترك مع المهاجمين في حصار المدينة •

وقفت حامية عكا الاسلامية موقفا بطوليا ،وصمدت في وجه الخطر الصليبي الكبير [5] • كما قام صلاح الدين بهجمات مضادة ضد الصليبيين ليفــك الحصار عن عكا • ودعت الحاجة الى الابتكار عند ما ســتر الفرنجة ابراج الحصار عند هم بما يمنع من اشتعالها • فقام علي بن عريف النحاسين من اهالي د مشق والمختص بعمل العقاقير باختراع مادة تقوي مفعول النار ، فالقيت علـــى

---

١ ـ انظر فيما سبق

٢ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء١٢ ص ٤٨ـ ٥١

٣ ـ ابوشامة :المصدر السابق ،جزء٢ص ١٨٢ Lane Poole:op.cit.p281

٤ ـ ابن شداد :المصدر السابق ص١٥٧ـ ١٥٨ وص ١٦١ Lane Poole:op.cit.,p 282

٥ ـ ابن شداد :المصدر السابق ص١٦٠ـ ابوشامة : المصدر السابق ،جزء٢ ص ١٨١و ١٨٤

الأبراج ،وتخلص المسلمون من شرها •

لم ييأس الصليبيون بل لجأوا الى الهجوم على المسلمين في ٢٧ جمادى الاولى / ٢٢ حزيران في معسكراتهم والتشديد عليهم • وعلى الرغم من فشل بعض هجماتهم ،وفشل الهجمات القوية المضادة التي شنها صلاح الدين على جيوش الصليبيين لفك الحصار عن مدينة عكا (١) • فقد استمر حصار المدينة لمدة سنتين ، غلب فيهما التعب على حماة المدينة ، مما دعاهم الى تسليمها بعد اعلام صلاح الدين بعجزهم عن الاستمرار (٢) ، وقيام صلاح الدين بالمفاوضات على بنود اتفاقية التسليم والتي تنص على ما يلي :

- ان تسلم المدينة للفرنج بما فيها من الالات والعدد والأسلحة •
- أن يدفع المسلمون فدية قدرها مائتي ألف دينار مقابل خروج أهالي عكا وحاميتها جميعا سالمين من المدينة •
- ان يطلق سراح الفين وخمسمائة من أسرى الصليبيين •
- رد صليب الصلبوت للفرنج (٣) •

وهكذا دخل الصليبيون مدينة عكا في ١٧ جمادى الاخرى سنة ٥٨٧هـ/ ١٢ تموز سنة ١١٩١م بعد حصار دام عامين تقريبا ولم يف الصليبيون للمسلمين

---

١ _ ابن شداد : المصدر السابق ،ص ١٦٣_١٦٤_١٦٦_١٦٧
Lane Poole: op. cit.,pp287,290-291
٢ _ ابن شداد : المصدر السابق ص ١٦٩_١٧١
_ ابوشامة : المصدر السابق ،جزء ٢ ص ١٨٦ ومابعدها
٣ _ ابن شداد : المصدر السابق ص ١٧٠_١٧١_ ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ص ١٨٩_١٩٠_ ابن واصل :المصدر السابق ،جزء ٢ ص ٣٥٩_٣٦٠_ الشيال : المرجع السابق ص ٨٧ ،
Lane Poole:op.cit.,p 302 —

بوعود هم بل أسروا من كان فيها من الأهالي انتظارا لدفع الفدية من قبل المسلمين ،ورفض المسلمون تسليم كل المال الا اذا تأكدوا من اطلاق سراح الأسرى المسلمين ، ووافقوا على دفع نصفه قبل اطلاقهم ، والنصف الآخر بعد اطلاقهم ، فرفضوا ،ونهض الفرنج بقتل كافة اسرى المسلمين في عكا وكانوا يقاربون الثلاثة آلاف . مما أدى الى استئناف القتال بين الصليبيين وصلاح الدين (١) . وما لبث الخلاف ان دب بين الصليبيين من أجل عكا وامارتها ،فترك فيليب اغسطس الشام بعد أقل من شهر من فتحها معتذرا بمرضه ،وخلا الموقف بذلك لريتشارد قلب الأسد (٢) .

آ ـ صلاح الدين وريتشارد بعد سقوط عكا

٣ ـ محاولة ريتشارد احتلال ساحل فلسطين

كان ريتشارد شجاعا ، ولكنه متهور قصير النظر في السياسة . بدأ عمله في عكا بقتل ثلاثة الاف مسلم من الأسرى فيها لاختلاف حول تطبيق بنود اتفاقية تسليم مدينة عكا (٣) ، ورفض صلاح الدين ان يرد على الوحشية بالمثل لتسامحه الشديد وكرم اخلاقه . ولم يشأ ان يقتل أسرى الصليبيين الذين كانوا في حوزة المسلمين على الرغم من كثرة عددهم . وكل ما فعله صلاح الدين هو أنه رد أسرى الصليبيين الى دمشق ،وكان قد أحضرهم للمبادلة . وأوقف باب المفاوضات من أجل صليب الصلبوت .

---

١ ـ الشيال : المرجع السابق ص ٨٨
٢ ـ عاشور : اوربا في العصور الوسطى ، جزء ١ ص ٢٤٨
٣ ـ ابن شداد : المصدر السابق ص ١٧٤
— Lane Poole: op.cit.,p 306

اشتد قلب ريتشارد بالنجاح الذى حققه في عكا ، وأراد أن يتبعه باحتلال ساحل فلسطين ومن ثم داخلها (١) • فرحل باتجاه حيفا تسانده المراكب في البحر • وعلى الرغم من هجمات المسلمين على موخرة الجيش ، فانه تمكن من الاستيلاء على حيفا التي أخلتها حاميتها الاسلامية • وتابع الصليبيون زحفهم نحو قيسارية فاستولوا عليها كاملة التخريب في رجب ٥٨٧ هـ/آب اغسطس ١١٩١ م ، ثم توجهوا الى أرسوف فدخلوها بعد معركة أرسوف الحامية ، والتي اوشك فيها صلاح الدين على القضاء عليهم (٢) ، حتى أن ريتشارد نفسه أصيب بجروح ورضوض •

كان لمعركة أرسوف نتائج عميقة • فقد بعثت في قلوب الصليبيين الشعور بالثقة بالنفس • على حين حطمت قلب صلاح الدين ، وفرقت قلوب أمرائه عنه ، وأدت بالتالي الى سقوط عسقلان بعد أن خربها المسلمون بأيديهم لئلا يستفيد منها الصليبيون (٣) •

ب - محاولة ريتشارد استعادة بيت المقدس

تزعم ريتشارد القوى الصليبية في الشام وأراد القيام بحركة كبرى يسترد بها بيت المقدس ، ومن ثم يعيد إمارة بيت المقدس الى سابق عهدها • وأدرك صلاح الدين قوة تصميم ريتشارد ، فاتخذ استعدادات قوية للدفاع عنها • وأخذ في تقوية استحكاماتها واعدادها للدفاع • كما أوعز للبدو بضرب موخرة الصليبيين وقطع خطوط مواصلاتهم •

---

١ - انظر سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ٢ ص ٨٧١ ومابعدها

٢ - ابن شداد : المصدر السابق ص ١٨٣ - ١٨٦ - المقريزى : السلوك ، جزء ١ ص ١٠٥
- Lane Poole: op. cit., p 313-323

٣ - ابن شداد : المصدر السابق ص ١٨٦ - ١٨٩
- Lane Poole: op. cit., p 327

سار ريتشارد من مدينة يافا الى الرملة [١] ، ومنها الى النطرون [٢] ثم الى أبواب بيت المقدس حيث اصطدم بمقاومة شديدة من المسلمين برئاسة صلاح الدين ،فاضطر ريتشارد ورجاله الى الانسحاب عائدين الى الرملة في ذي الحجة سنة ٥٨٧هـ/كانون الثاني يناير ١١٩٢م [٣] .

ح ـ صلح الرملة :

فشل ريتشارد في الاستيلاء على بيت المقدس بالقوة في سنة ٥٨٧هـ / ١١٩٢م ، وعلى الرغم من ذلك فانه كان مصمما على تحقيق النجاح في هذا المجال • ورأى أن يحقق بالمفاوضات ما عجز عن تحقيقه بالقوة • فبدأ مع صلاح الدين سلسلة من المفاوضات صمم في اثنائها على ضرورة حماية الصليبيين للاماكن المقدسة مباشرة [٤] ، فان لم يكن ذلك فزواج بين الملك العادل أخي صلاح الدين واخته جوانا يوحد بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام تحت لواء واحد [٥] • ولكن هذا المشروع رفض• فعاود ريتشارد القتال بغية تحقيق الهدف ثانية • وقد ضم الى صفه في هذه الجولة هنري دي شامبني أمير صور الجديد الذي تزوج أرملة سلفه كونراد [٦] وتقدم هذا الجيش باتجاه بيت المقدس، ولكنه تعرض اثناء تقدمه لمقاومة شديدة ، وعانى هجمات البدو على مؤخرته •

اتخذ صلاح الدين عدته لمقاومة ريتشارد ، ونهض بتهيئة أسباب

---

١ ـ ابن شداد : المصدر السابق ص ١٨٩
٢ ـ ابن شداد : المصدر السابق ، ص ١٩١
٣ ـ Lane Poole:op.cit.,pp328- 334
٤ ـ ابن شداد : المصدر السابق ص ٩٥
٥ ـ ابن شداد :المصدر السابق ص ١٩٥ـ ١٩٦
ـ Lane Poole:op.cit.,p 329
٦ ـ أبوشامة :المصدر السابق ، جزء ٢ ص ١٩٦
ـ Lane Poole:op. cit.,p 336

الحصار ، فأفسد المياه ظاهر القدس ، وسخر مجموعة من الفرسان الأيوبيين للقيام بالاغارة المفاجئة على معسكر الصليبيين ، وأسفر ذلك عن نقص في المؤن وندرة في الماء مما أدى الى تعرض الجيش للجوع والعطش ، يضاف الى هذا شدة الحرارة • فقرر ريتشارد التوقف عن التقدم باتجاه بيت المقدس ، ولجأ الى قطع طرق المواصلات بين مصر والشام مستغلا سيطرته على عسقلان وقلعة الداروم ،عله يستطيع عن هذا الطريق فرض شروطه في المفاوضات المقبلة (١) •

كان لتوقف ريتشارد عن الحصار رد فعل قوي في صفوف المسلمين ، اذ انتعش صلاح الدين ، وارتفعت الروح المعنوية لرجاله ،فرفض التشاور مع ريتشارد على أساس الشروط السابقة ، وبدأت بين الطرفين سلسلة جديدة من المفاوضات ،أصر صلاح الدين فيها على استرجاع ميناء عسقلان (٢) وتمسك ريتشارد بحق الصليبيين في حماية الأماكن المقدسة وخاصة كنيسة القيامة مع ضمان حرية الحج ،مما أدى الى فشل المفاوضات ثانية •

نهض صلاح الدين بالضغط على الصليبيين ليجعل شروط الصلح الى جانبه ،فهاجم مدينة يافا وفتحها دون قلعتها ،الا ان ريتشارد ما لبث ان استعادها بعد فترة قصيرة ، واتبع ذلك بانتصارات محلية على صلاح الدين (٣) مما دفع الفريقين الى توقيع صلح في ٢ شعبان سنة ٥٨٨هـ /٣ سبتمبر أيلول ١١٩٢م عرف بصلح الرملة وكانت شروطه تنص على ما يلي :

---

١ ـ ابن شداد : المصدر السابق ،ص ٢١٠ و ص ٢١٣ ـ ٢١٥ ـ أبوشامة : المصدر السابق ،جزء ٢ ص ١٩٦

٢ ـ انظر عن مفاوضات الصلح كل من أبي شامة :المصدر السابق ،جزء ٢ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ ـ ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٢١٩ ـ ٢٢٢ ـ Lane Poole: op. cit., p 328

٣ ـ ابن شداد :المصدر السابق ص ٢٢٢ ـ ٢٢٧ ـ ابوشامة :المصدر السابق ، جزء ٢ ص ٢٠١

١ — أن يتخلى الصليبيون لصلاح الدين عن عسقلان وغزه والداروم ، وأن يبقى الساحل بيدهم من صور الى يافا بما فيها قيساريه وحيفا وارسوف .

٢ — يكون للمسيحيين حرية الحج الى بيت المقدس دون مطالبتهم بأية ضريبة مقابل ذلك .

٣ — تبقى اللد والرملة مناصفة بين المسلمين والصليبيين

٤ — مدة الصلح ثلاث سنوات وثلاثة اشهر (١) .

وهكذا انتهى النزاع بين صلاح الدين وريتشارد بموجب هذا الصلح ، وبقي المسلمون بقيادة صلاح الدين بموجبه يتحكمون في دولة قوية تحيط ببقايا الصليبيين المتناثرة قرب شواطىء الشام . واستقبل الفريقان هذا الصلح بفرح شديد لما نالهم من طول الحرب . وعادت الحياة الطبيعية الى فلسطين ، وازداد النشاط التجارى ، وكثر عدد الحجاج (٢) . وارتحل ريتشارد من عكا باتجاه بلاده ، فوقع اسيرا في يد امبراطور المانيا ، ولم يطلق سراحه الا بعد ان دفع فدية كبيرة . ولما عاد الى بلاده ، وقع في نزاع مع اخيه ومع فيليب ملك فرنسا . ولم يلبث ان لقي مصرعه في ٦ ٢ اذار مارس سنة ١١٩٩ م (٣) .

صلاح الدين بعد صلح الرملة

اتخذت مملكة بيت المقدس التي أصبح مركزها مدينة عكا — اثر صلح الرملة — صفة بحرية بعد أن فقدت كل مالها من نفوذ داخل فلسطين . الأمر

---

١ — انظر ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٢٣٤ — ٢٣٥
— ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ص ٢٠٣

٢ — ابن شداد : المصدر السابق ص ٢٣٥ — ابوشامه : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٠٤ — ٢٠٥

٣ — عاشور : اوربا في العصور الوسطى ، جزء ١ ص ٢٤٩ — ٢٥٠

الذى جعلها اكثر ارتباطا بالغرب الأوربي ، وأكثر اعتمادا على حماية الأساطيل الايطالية في الدفاع عن كيانها ، فضلا عن الانشقاق والفرقة والبغضاء بين عناصر الصليبيين في الشام (١) .

عاد صلاح الدين اثر صلح الرملة الى دمشق (٢) ، فانتابه بعد مدة بسيطة المرض ، وغشيته الحمى • وتوفى بعد ذلك في ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ/٣ آذار ١١٩٣م في قلعة دمشق بعد أن أخذ البيعة لابنه الأفضل • وكان صلاح الدين حين توفى في السابعة والخمسين من عمره • ودفن في القدم أول الأمر ثم نقل الى مدفنه في الكلاسه (٣) • وقد صور لنا العماد الأصفهاني وضع الناس يوم وفاة صلاح الدين فقال : (كان يوما مشهودا لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدين • وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشه مالا يعلمه الا الله تعالى ••• ولو قبل الفداء لفداه الناس بالنفس) (٤) .

نال صلاح الدين ما ناله من نجاح ومحبة بسبب ما تميز به من صفات عسكرية ، ولما اشتهر به من صفات خلقية عظيمة • فقد تمسك بمبادىء الشرف والمروءة والسخاء والبذل والوفاء بالعهد • الى جانب كونه تقيا ورعا ، يؤدى الصلاة بأوقاتها ، ويواظب على الصوم • كما كان شديد البأس قوى

---

١ ــ ابوشامة : المصدر السابق ،جزء ٢ ، ص ٢١٢ ــ ٢١٤
ــ ابن شداد :المصدر السابق ص ٢٤٦ ــ ٢٤٧ ــ ابن واصل :المصدر السابق جزء ٢ ص ٢٠١
ــ عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ٢ ص ٩٠٣

٢ ــ ابن شداد : المصدر السابق ص ٢٤٠ ــ ابوشامة :المصدر السابق ، جزء ٢ ص ٢٠٦

٣ ــ ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ص ١٢٦

٤ ــ عاشور : الحركة الصليبية : جزء ٢ ص ٩٠٣ نقلا عن العماد الأصفهاني

المراس ورحيما في آن واحد . كان محبا للجهاد ،صابرا على قتال الأعداء ، مصمما على متابعتهم الى بلادهم . بقي مع عساكره في اعمال حربية مستمرة ثلاث سنوات . وعلى الرغم من ذلك لم يمل أو يرغب في الراحة بل صرح لابن شداد بعد سقوط بيت المقدس عن رغبته في متابعة الصليبيين الى بلادهم قائلا : (... متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد ، وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر الى جزائره ، أتبعهم فيه حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت) (١) .

---

١ - ابن شداد : المصدر السابق ص٢٢

الفصل السادس

خلفاء صلاح الدين الأيوبي

(٥٨٩ ـ ٦٣٥هـ)

النزاع بين أبناء صلاح الدين

توحيد الدولة الأيوبية تحت سلطة العادل

١ ـ الملك العادل والصليبيون قبل الحملة الخامسة

٢ ـ العادل والحملة الصليبية الخامسة ٠

٣ ـ وفاة السلطان العادل وتولي الكامل مهمة الدفاع

سلطنة الكامل بن العادل

١ ـ الخلاف بين أفراد الأسرة الأيوبية في عهده

٢ ـ الحملة الصليبية السادسة

٣ ـ اتفاقية يافا وتسليم بيت المقدس

انحلال الدولة الأيوبية وسقوطها

١ ـ الخلافات بين أفراد الأسرة الأيوبية في عهد السلطان الكامل

٢ ـ العادل الثاني والصالح أيوب

أ ـ استرداد بيت المقدس في عهد الناصر داود ثم في عهد الصالح أيوب

ب ـ الصالح أيوب والخوارزمية

حـ ـ الحملة الصليبية السابعة

٣ ـ شجرة الدر وتوران شاه ، ومتابعة قتال الصليبيين

سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك

الفصـل السـادس
خلفـاء صلاح الدين الأيوبي
٥٨٩ ـ ٦٣٥هـ / ١١٩٣ـ١٢٣٨م

النزاع بين أبناء صلاح الدين

خلف صلاح الدين مملكة واسعة الأطراف ، وفراغا ضخما لم يستطع أحد من أبنائه السبعة عشر او اخوته أو أبناء اخوته ان يملأه . ويبدو أن صلاح الدين كان قد غرس بيده ، نبتة الخلاف بين أفراد أسرته ، حين اعتبر اراضي السلطنة كالملك الشخصي يمكن توزيعه بين الأبناء والأخوة بحسب الرغبة . ولا نستطيع أن نقول أن ذلك كان مفروضا عليه ، أو أن الظروف فرضته عليه ، لأن ما ورد في حديثه مع ابن شداد يدل على أن تقسيمه لأملاكه كان ضمن خطة رسمها لنفسه قبل وفاته . وقد ورد ذلك حين أوضح لابن شداد رغبتـه في متابعة الصليبيين الى اراضيهم فقال : (... قسمت البلاد ، وأوصيـت وودعت) (١) .

وزع صلاح الدين أملاكه بين اخوته وابنائه في حياته ، وغير التوزيـع عدة مرات ، وفي توزيعه الأخير الذى أجراه ، جعل لابنائه المناطق الكبيرة والحساسة ، وجعل لاخوته وأقاربه مناطق الأطراف (٢) . فقد أوصـى بالسلطنة لابنه الأفضل نورالدين علي ، وجعله حاكما لمنطقة دمشق ، كما جعل مصر لابنه الأصغر الملك العزيز عثمان . وأعطى حكم حلب لابنه

١ ـ انظر فيما سبق ، وانظر ابن شداد : المصدر السابق ص٢٢

٢ ـ انظر حول ذلك زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمـة ، ص ١٥٠ ـ ١٥٥

الظاهر غازي • وكانت منطقة الجزيرة اضافة الى الكرك من نصيب أخيه الملك العادل ، وحماه بيد ابن عمه تقي الدين عمر ، وحمص في يد حفيد عمه شيركوه (١) •

لم يكن الملك الأفضل يصلح للزعامة لضعفه وسوء سيرته ،وانشغاله عن شؤون الرعية بأموره الخاصة ،حتى سمي بالملك النوام (٢) • كما أنه لم يستطع المحافظة على ود اصحاب الأمر ، فنبذ امراء والده ومستشاريه ، ووضع كل ثقته في ضياء الدين بن الاثير ، وجعله وزيرا له (٣) مما دفع بهؤلاء الامراء الى الفرار الى مصر ، حيث التفوا حول أخيه الملك العزيز ، وأوغروا صدره على الأفضل في دمشق • وقد أسفر هذا التحريض عن نزاع بين الأخوين ، اشترك به امراء البيت الأيوبي ،دام سبع سنوات ، وانتهى بتوحيد البيت الأيوبي تحت زعامة الملك العادل أخي صلاح الدين ، الذي كان في البداية حكما بين أبناء أخيه •

بدأت الفتنة بخروج الملك العزيز من مصر في سنة ٥٩٠هـ/صيف سنة ١١٩٤م ، قاصدا دمشق بدعم من جند أبيه الصلاحية الفارين من دمشق • وشرع في حصار الأفضل فيها ،مما دعا الأخير الى الاستنجاد بعمه العادل لمساعدته في التخلص من الحصار (٤) •

---

١ - انظر عن تنظيم صلاح الدين لمملكته ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ١٩٧-١٩٨

٢ - ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٢

٣ - أبوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٢٨- ابن خلكان : المصدر السابق ،جزء ٥ ص ٣٩٠- ٣٩١

٤ - ابوشامة : المصدر السابق ،جزء ٢ ص ٢٢٩- ابن الأثير : المصدر السابق ،جزء ١٢ ، ص ١٠٩-١١٠

كان العادل رجلا طموحا ، ولم يكن ما حصل عليه من تركة أخيه صلاح الدين يتناسب مع مكانته وطموحه . فوجد في ذلك فرصة سانحة ، فاستجاب لنداء ابن أخيه الأفضل ، ونهض طالبا مساعدة أمراء الأيوبيين في أرجاء الشام وفي حلب وحماه وحمص وبعلبك ، وأوغر صدورهم ضد الملك العزيز[1] .

أدرك الملك العزيز بأنه عاجز عن مجابهة قوى الأيوبيين المتحدة ضده في بلاد الشام ،فقبل المفاوضة مع عمه العادل الذى قرر باتفاق الجميع أن يحتفظ الأفضل بدمشق وطبرية وأعمال الغور ،في حين يأخذ العزيز بيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين اضافة الى مصر . ويأخذ الظاهر جبلة واللاذقية اضافة الى حلب ، وبذلك منع العادل الاقتتال هذه المرة بين أفراد البيت الأيوبي ، وأصبح صاحب الكلمة النافذة بينهم[2] .

لم يرعو الأفضل ولم يتخذ عبرة مما جرى ، واستمر مهتما بحياته الخاصة تاركا الحبل على الغارب لوزيره ابن الاثير ،مما دفع بالملك العزيز الى اتخاذ قرار بمهاجمة دمشق للمرة الثانية ، بتحريض من القواد والعلماء[3] ونهض في سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٥م لتحقيق ما عجز عن تحقيقه في السنة السابقة . وحين أسقط في يد الأفضل لم يجد بدا من الاستنجاد بعمه ثانية وبأمراء الشام .

قام العادل بفض أنصار ابن أخيه الملك العزيز من حوله ،حتى أجبره

---

١ — ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١٢ ، ص ١١٨

٢ — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ص ١١٠ — ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢١

٣ — ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ص١٢٢—١٢٣ — ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٢٩

على العودة الى مصر (١) ، ثم اتخذ قراره بكبح جماحه ومهاجمته في مصر ذاتها • ولكنه أراد في هذه المرة أن يستغل الظروف لصالحه • ولذلك فانه أجرى مفاوضات مع ابن اخيه الأفضل ،فحواها أن يترك له الأفضل دمشق ، ويساعده العادل في أخذ مصر من أخيه • وبدأ تنفيذ المهمة باستيلاء الأفضل والعادل على بيت المقدس ،ثم زحفا سوية حتى بلبيس حيث القيا عليها الحصار (٢) • ولما كان العادل يخشى عدم النجاح في تحقيق أحلامه في هذه الجولة ،كما كان يخشى عدم وفاء الأفضل له ،قام بكسب ود الملك العزيز صاحب مصر ، حيث أظهر العزيز أنه مناصر له ، وراسله سرا طالبا منه الثبات أمام بلبيس على أن يعمل العادل على سحب جيوشه وجيوش الأفضل عنها (٣)، وكانت غايته من وراء فعلته تلك ان يكسب ثقة العزيز ، وان يجعل من نفسه حكما موثوقا به بين الأخوين • ونفذ العزيز والعادل ما اتفقا عليه ، وعاد الأفضل الى دمشق بعد أن أصبح العادل سيد الموقف •

لم يرتدع الأفضل عن سوء تصرفه ، ولم يعمل على تقوية نفسه في مدينة دمشق ، وبدت بوادر تذمر الأهالي منه ومن وزيره ابن الاثير (٤) • فوجد العادل ان الفرصة أصبحت سانحة له لتحقيق أحلامه في الاستيلاء على دمشق ، وأراد ان يستعين بابن أخيه العزيز ، الذي قدم وساعد عمه في حصار المدينة ، حتى سقطت بأيديهما في سنة ٥٩٢ هـ/ اوائل تموز يوليو ١١٩٦ م ،فتسلمها العادل وحل محل ابن اخيه الأفضل الذي عوض بمنطقة

---

١ ــ ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ص١٢٣

٢ ــ ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٤

٣ ــ ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١٢ ص١١٩ ــ ١٢٠ ــ ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ص١٢٤

٤ ــ ابن خلكان :المصدر السابق ، جزء ٥ ص٣٩٠ ــ ٣٩١ ــ ابوالمحاسن : المصدر السابق ،جزء ٦ ص١٢٥

صرخد ، في حين أصبح الملك العزيز سلطانا يحكم مصر والشام حتى بيت المقدس (١) .

توحيد الدولة الأيوبية تحت سلطة العادل

حكم الملك العزيز عثمان مصر من سنة ٥٨٩ـ٥٩٥هـ/١١٩٣ـ١١٩٨م بعد وفاة أبيه . وكان قد حكمها قبل ذلك باسم أبيه صلاح الدين (٢) ويبدو أن مصر أصيبت في أيام سلطنته بضائقة اقتصادية تعود اسبابها الى انخفاض فيضان النيل سنة ٥٩١ـ٥٩٢هـ/١١٩٤م إضافة الى انشغال العزيز بالنزاع مع أخيه الأفضل ، مما أدى الى عدم السرعة في ايجاد مخارج من الأزمة (٣) . وما لبث الملك العزيز ان توفي في محرم سنة ٥٩٥هـ/تشرين الثاني نوفمبر ١١٩٨م بسبب سقوطه عن جواده أثناء خروجه للصيد ، فتولى حكم مصر ابنه المنصور محمد (٤) ، الذي لم يكن الا صبيا لم يتجاوز العاشرة من عمره (٥) . فتولى الوصاية عليه عمه الأفضل (٦) .

اراد الأفضل ان يستغل مركزه الجديد لاستعادة ما ضاع منه من املاك وخاصة دمشق التي اصبحت تحت سلطة عمه العادل . واراد ان يستعين بأخيه الظاهر في حلب من اجل ذلك . ولكن العادل أفشل هذه المحاولة بحسن سياسته . اذ استمال قادة ابن اخيه اليه ، وعمل على إثارة الخلاف بين الأخوين المعظم والظاهر ، فعاد كل منهما من حيث أتى (٧) .

---

١ ـ ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ص ١٢٦
٢ ـ ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٣ ص ٢٥١ ـ ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ص ١٢٠
٣ ـ ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ص ٢٣٦
٤ ـ ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٣ ص ٢٥١ـ٢٥٢ ـ ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ص ١٢٨ـ١٢٩ وص ١٤٦
٥ ـ ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٣ ص ٢٥١ـ٢٥٣
٦ ـ ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ص ١٤٦ـ١٤٧
٧ ـ ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ص ٢٣٥ ـ ابوالمحاسن : المصدر السابق جزء ٦ ص ١٤٧ـ١٤٨

أراد العادل أن يستغل الظرف ، ويؤدب ابن اخيه الأفضل لئـــلا يفكر بمثل ذلك ثانية • فجهز جيشه ولحق بالأفضل الى مصر ، حيث أنزل به الهزيمة قرب بلبيس ، وتابعه حتى القاهرة ، حيث أعلن الأفضل استسلامـــه لعمه في ربيع الآخر ٥٩٦ هـ/ ٥شباط فبراير١٢٠٠م (١) مقابل اعادته الى اقطاعه في حوران (٢) • ولكن الأفضل لم يرتدع بل قام بمحاولة ثانيـــة لاستعادة دمشق الا أنه فشل ثانية (٣) ، وخسر اقطاعه في حوران ، وأبعد الى الجزيرة حيث تسلم حكم سميساط (٤) •

اصبح العادل اثر انتصاراته المتكررة على ابن أخيه الأفضل ، وابعاده الى الجزيرة ، رأس الأسرة الأيوبية بجدارة ودون منازع • فجعل من نفســه في البداية وصيا على حفيد أخيه المنصور محمد •ولكنه ما لبث ان رغـــب بالسلطنة لنفسه• ولما كان يريد أن يجعل عمله شرعيا ، أراد أن يستصدر حكما فقهيا لصالحه• ولذلك جمع الفقهاء وقال لهم : (هل يجوز ولايـــة الصغير على الكبير ؟ فقالوا : الصغير مولى عليه•• قال : فهل يجوز للكبير ان ينوب عن الصغير ؟ قالوا لا • لأن الولاية من الأصل اذا كانـــت غيـــر صحيحة فكيف تصح النيابة) •

اعتبر العادل هذه الفتوى الفقهية بمثابة اعلان على عدم صحة ســلطنة المنصور محمد • ولذلك فانه قطع الخطبة له ، وأقطعه حماه وأعمالها ،وخطب

---

١ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ص ١٥٥ـ١٥٦
٢ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١٢ ص ١٥٥ـ١٥٦
٣ ـ ابوالمحاسن :المصدر السابق ،جزء٦ ص١٥٠ـ١٥١
٤ ـ المقريزي :السلوك ،جزء١ ص١٥٩ على حين يرى ابن الاثير جزء١٢ ، ص١٥٦ انه اخذ ميافارقين،حاني وجبل طور

في مصر لنفسه ولا بنه الكامل من بعد ، (١) في ٢١ شوال سنة ٥٩٦هـ/ آب اغسطس ١٢٠٠م وبرر خلعه للسلطان قائلا : (انه قبيح بي أن أكون أتابك صبي مع الشيخوخة والتقدم ، والملك ليس هو بالارث ، وانما هو لمن غلب) (٢) .

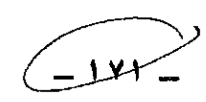
١ ـ الملك العادل والصليبيون قبل الحملة الخامسة

أصبح العادل سلطانا على مصر والشام منذ ٢١ شوال سنة ٥٩٦هـ/آب اغسطس ١٢٠٠م ، فتوحدت الجبهة الاسلامية ثانية . وترتب على السلطان الجديد الوقوف بوجه الصليبيين الذين ما فتئوا يرسلون الجيوش والنجدات الى المشرق .

كان الغرب الاوربي متحمسا لارسال حملة جديدة الى الشرق منذ وفاة صلاح الدين ، وخاصة وان الصلح (صلح الرملة) الذى عقده ريتشارد مع صلاح الدين مدته ثلاث سنوات وثلاثة اشهر تنتهي في ذى القعدة سنة ٥٩١ هـ / كانون الأول ديسمبر ١١٩٥م .

كان على رأس المتحمسين لارسال الجيوش الى المشرق هنرى السادس بن فريدريك بربروسا امبراطور المانيا ، الذى دفع بجموع من الصليبيين الألمان الى بلاد الشام منذ سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م دون ان يأتي بنفسه ، أو يرسل أحد كبار الأمراء على القيادة (٣) فوقع هؤلاء في عداء مع صليبيي

١ـ ابو المحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٥١ـ١٥٢
٢ـ انظر الشيال : المرجع السابق ، ص ٩٥
٣ـ انظر ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٣٣



عكا • كما أنهم هاجموا الأراضي الاسلامية وقتلوا بعض المسلمين في اطـراف القدس ،مما أوقع أمير عكا بمأزق مع المسلمين ،في الوقت الذى كان يحـرض فيه على استمرار الصلح معهم •

لم يكن الملك العادل حين حدث هذا الاعتداء سلطانا ، ولكنه كـان الرجل الأيوبي الذى يعتمد عليه ولذلك فانه اسرع لصد اعتداءات الصليبيين فطلب النجدة من أمراء بني أيوب في الشام ومصر ، وشكل جيشا موحـــدا أحاط بالصليبيين الألمان قرب عكا ذاتها (١) • ولم يجد امير عكا هنـرى دى شامبني بدا من حشد القوى الصليبية ، التي لقيت المسلمين قرب غزة عند تل العجول • فحلت الهزيمة ،وقتل المسلمون منهم جماعة ،واســروا أخرى ، ورجعوا بغنائم كثيرة (٢) • وزحف المسلمون الى يافـا ودخلوهـا على الرغم من دفاع الصليبيين عنها •

توفي الملك هنرى دى شامبني في هذه الفترة الحرجة من العلاقـات بين المسلمين والصليبيين في ذى القعدة سنة ٥٩٣هـ/ ١٠ ايلول ســنة ١١٩٧م فتولى عرش الامارة عمورى الثاني لوزجنان ملك قبرص الذى جمـع بين عرش مملكة بيت المقدس وعرش قبرص •

لم يستطع عمورى الثاني لوزجنان استعادة يافـا من المســلمين ، فاستعاض عنها بالاستيلاء على مدينة بيروت في ذى الحجة سنة ٥٩٣ هـ / تشرين الأول ١١٩٧م (٣) ومن ثم صيدا • وقد شجع هذا الاستيلاء أميـر أنطاكية بمحاولة الاستيلاء على اللاذقية وجبلة ، ففشل ،لان الملك الظاهـر

---

١ ــ عند رأس الماء بمرج عكا •

٢ ــ ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٣ ص٧٤

٣ ــ أبوشامه : المصدر السابق ، جزء ٢ ص٢٣٢ــ٢٣٣

كان قد أخذ الحيطة والحذر •

فكر الصليبيون بالاستيلاء على بيت المقدس عقب استيلائهم علـــى بيروت ، ولكنهم توقفوا عند حصن تبنين حيث لقوا مقاومة عنيفة من المسلمين • فقد انضم للملك العادل امراء الأيوبيين في مصر وغيرها ، مما أدى الـــى انسحاب الصليبيين • وبذلك فشلت الحملة الألمانية في تحقيق أهدافهـا ، وتوفي الامبراطور هنري السادس في الغرب (١) • وكل ما فعلوه هو اثـــارة الحرب ثانية بين المسلمين والصليبيين ،حتى ساعدت الأوضاع بينهما على عقد صلح جديد في رمضان سنة ٥٩٤هـ/ اوائل تموز يوليو ١١٩٨ على نفـــس أسس صلح الرملة (٢) ، مع احتفاظ المسلمين والصليبيين بفتوحاتهم الجديدة وذلك لأن عموري الثاني ارتأى ان لا يقوم بحروب مع المسلمين حتى تصـــل الحملة الصليبية المرتقبة • وليس معنى ذلك ان الحروب توقفت نهائيـا بيـــن العادل والصليبيين ، بل قامت بعض الغارات بين الطرفين ولكنها لم تتسع بسبب تسامح العادل الى اقصى حدود التسامح (٣) •

حين اعتلى السلطان العادل عرش السلطنة ، ظهر بشكل واضح ، ان له سياسة جديدة مع الصليبيين تختلف عن سياسة اسلافه • اتسمت بطابـــع التسامح والبعد عن التعنت ، في الوقت الذى كان فيه الغرب الأوربـــي يتحمس للقيام بحملة جديدة • وكان ينظر الى جهود العادل في توحيد الجبهة الاسلامية بعين القلق ، ويوجهون انظارهم باتجاه مصر بعد أن

---

١ ـ انظر ابوشامة : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٢٢٣
٢ ـ عاشور : مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ص٧٠
٣ ـ عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٦٩ ـ ٧٠ ـ ٧١

أدركوا أهميتها بوصفها القاعدة الكبرى التي اعتمد الأيوبيون عليهـــا فـي نشاطهم الداخلي والخارجي ، ولذلك ظهرت الدعوة في الغرب الأوربي في اوائل القرن السابع الهجرى ، وأوائل القرن الثالث عشر الميلادى لارسال حملة كبيرة ضد مصر (١) ، فكانت الحملة الصليبية الرابعة . الا ان هذه الحملـة لم تسر بالطريق الذى رسم لها ،بل انحرفت وهاجمت القسطنطينيـــة ، واستولت عليها سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٤م (٢) .

حدث في تلك الفترة تغيرات في مملكة بيت المقدس الصليبيـــة أدت الى زيادة حدة التوتر بين الطرفين . فقد توفي عمورى الثاني لوزجنـــان (لوسينيان) ، وكانت وريثة العرش دون سن الرشد ، فوضعت تحت وصاية حنا الأول حاكم بيروت الذي عرف باسم حنا دى ابرين . ولم يلتزم الصليبيـون في عهد الوصاية بالمعاهدة المعقودة في عهد عمورى الثاني ، بل قامـــوا ببعض الاعتداءات على الاراضي الاسلامية وببعض أعمال القرصنة في البحر . فقد هاجم بعض قراصنة الصليبيين في جزيرة قبرص عدة سفن من اسطول مصر ، واسروا من فيها (٣) ، وانتهى الأمر بمظاهرة عسكرية من قبل العادل أدت الى اعادة الأسرى (٤) . كما قام الاسبتارية بهجمات على مدينة حمص ،مما دعـا العادل الى تأديبهم ،فاستدعى افراد أسرته بجيوشهم حيث قصد حصـن

---

١ - عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٦٩

٢ - انظر عن ذلك اسمت غنيم :الحملة الصليبية الرابعة ومسؤولية انحرافها ضد القسطنطينية ، دار المجمع العلمي جدة ١٩٧٨م ص ٦٩ - ٩٠

٣ - ابن الاثير :الكامل في التاريخ :جزء ١٢ ص ٢٧٣ - ٢٧٤ - عاشور :قبرص والحرب الصليبية ص ٣٩

٤ - ابوشامة : ذيل الروضتين ،ص ٥٠

الأكراد مركز الاسبتارية في سنة ٦٠٤هـ/حزيران ١٢٠٧م ، فنازله وأسر خمسمائة رجل ، ثم استولى على برج اعتاز الى الجنوب الشرقي من حصن الاكراد ، فأسر حاميته ، وغنم منه اموالا ضخمة ، ثم زحف الى حصن القليعات شمال عرقة حيث خربه وأطلق سراح صاحبه ، ثم حاصر مدينة طرابلس في سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م ، ونصب عليها المجانيق وضيق على أهلها ، وقطع الماء عليهم ، فأسرع بوهيموند الرابع صاحب طرابلس الى طلب الصلح ، وقدم برهانا على حسن نيته باطلاق سراح ثلاثمائة اسير وتقديم الأموال والهدايا (١) .

وقف الداوية ايضا موقفا متشددا ، وأخذوا يقومون ببعض الأعمال الاستفزازية مما أدى الى اهتمام العادل بالأمر لايقافهم عند حدهم . فقام بانشاء قلعة قوية على جبل الطور تشرف على اقليم الناصرة ، وتحمي اقليم الجليل من أية غارة مقبلة من جانب الصليبيين ، فارتدع الداوية وأقروا الصلح مع المسلمين .

في تلك الأثناء قدم من الغرب الأوربي بعض الصليبيين المتحمسين لقتال المسلمين ، ومن هؤلاء بعض الهنغار والألمان تحت زعامة ليوبولد السادس دوق النمسا ، واندريه الثاني ملك هنغاريا ، وانضم اليهما خيو ملك قبرص . ونهض هؤلاء مع من تجمعوا اليهم من الصليبيين في المشرق سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م بجعل هدفهم الاستيلاء على قلعة جبل الطور التي شيدها العادل . وبدأ الصليبيون بالهجوم على بيسان للسيطرة على اقليم

---

١ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١٢ ، ص٢٧٣ـ٢٧٤

الجليل ، فدخلوها لخلوها من كل وسائل الدفاع ، ثم استولوا على المنطقة المحيطة بها ، وغنموا غنائم وفيرة .(١)

ولم يكتف هؤلاء بما قاموا به ، بل عبروا نهر الاردن في رمضان ٦١٤هـ / ١٠ تشرين الثاني سنة ١٢١٧م وأوغلوا حتى وصلوا الى نوى ، وحاصروا في طريقهم بانياس ، ثم عادوا بعد أن غنموا وسبوا وقتلوا واحرقوا كل ما وصل الى أيديهم ،ثم اخذوا بحصار قلعة جبل الطور في ٦١٤هـ/نهاية سنة ١٢١٧م لمدة سبعة عشر يوما وهاجموها هجوما عنيفا . وعلى الرغم من ذلك ،فلم يفلحوا في دخولها ،فعادوا أدراجهم الى عكا (٢) ، ثم قرر ملك هنغاريا ترك المنطقة والعودة الى اوربا ، وانتهت هذه الحملة دون أن تحقق أهدافها .

٢ ـ العادل والحملة الصليبية الخامسة

تعتبر الحملة الصليبية الرابعة نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية . اذ كان من المقرر ان تتجه في سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٤م الى مصر بالذات ، باعتبار ان الصليبيين لن ينعموا بحياة آمنة في بلاد الشام ، ان لم يسيطروا على مصر . ولكن المطامع والمصالح الاقتصادية والتجارية لبعض المدن الأوربية ،أخذت تحتل المكانة الأولى ، وغلبت على الاندفاع الديني ،مما جعل هذه الحملة تنحرف وتتوجه ضد القسطنطينية ، حيث أسقط الصليبيون الامبراطورية البيزنطية ، وأقاموا امبراطورية لاتينية مكانها . وقد أسفر ذلك عن ازدياد العداوة بين الكنيستين الشرقية والغربية ،

---

١ ـ ابن الاثير :المصدر السابق ،جزء ١٢ ص ٣٢٢ـ٣٢٣ـ ابوشامة : ذيل الروضتين ص ١٠١ ـ ١٠٢

٢ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ص ٣٢٢ـ٣٢٣

وجعل موقف الصليبيين في الشام ضعيفا ، ودفع البابا أنوسنت الثالث ومن بعده هونوريوس الثالث بالدعوة لحملة صليبية خاسة [١] لتحقيق ما فشلت في تحقيقه الحملة الرابعة الا وهواحتلال مصر لانها مفتاح الشام عامة ، وبيت المقدس خاصة ، وعدا عن ذلك فان مصر بعد احتلالها تصبح مصدر ثروة لهم ويحرم العالم الاسلامي من موارد ها البشرية والمالية الضخمة . وقد أدرك المؤرخون المسلمون المعاصرون هذه الحقيقة ، وفسروا في ضوئها اتجاه الحملات الصليبية ضد مصر منذ القرن الثالث عشر الميلادي .

جرت الاستعدادات في الغرب الأوربي للحملة المنتظرة ، وأخذت مجموعات منهم تتجه الى مدينة عكا ، مما دفع يحنا دى برين ملك بيت المقدس أن يستغل تلك الجموع الصليبية التي وفدت على بلاد الشام بعد سفر ملك هنغاريا بالقيام بحملة على الدلتا . ووجد تأييدا لرغبته من الداوية والاسبتارية ، فضلا عن الصليبيين في قبرص [٢] .

خرج حنا الأول من عكا بعد ان ترك بها حامية قوية لصد هجمات المسلمين في غيابه على رأس ما استطاع جمعه من السفن والرجال في صفر ٦١٥ هـ/ايار مايو ١٢١٨ [٣] م قاصدا دمياط لقربها أولا من مراكزهم ، ولاتخاذ النيل معبرا لهم يتم الطريق البحرى حتى القاهرة ، ضاربين حائطا التجربة الصليبية الأولى التي قام بها عمورى الأول ، والتي أثبتت أن الوصول الى القاهرة أمر سهل عن طريق الصحراء الشرقية .

---

١ ـ عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٧٣

٢ ـ عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، ص٧٣

٣ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ص ٣٢٣

وصلت الحملة الى دمياط ، ونصب الصليبيون معسكرهم على الضفـــة الغربيـــة للنيل المواجهة لمدينة دمياط • وقد وجد الصليبيون المدينة محصنة تحصينا قويا ، اذ كانت تمتد بعرض مجرى النيل مآصر [١] ، كمـــا يحمي المدينة خندق عميق وسور ضخم مكون من ثلاثة جدران • هذا بالاضافة الى برج السلسلة وهو بمثابة حصن بناه المسلمون وسط مجرى النهر لحماية المدينة ودفع أي عدوان يقع عليها •

سار الكامل ــ نائب أبيه العادل على مصر ــ بجيوشه ، ونزل في جنوبي دمياط عند منزلة العادلية [٢] ، ليكون على اتصال بالمدينة من ناحية ويمنع الصليبيين من العبور اليها من ناحية ثانية • وقد أضاع الصليبيون مـــدة أربعة أشهر في مهاجمة برج السلسلة حتى تمكنوا بعد ذلك من تملكه [٣] ، تمكن المسلمون خلالها من جمع قواتهم لمواجهة الخطر • وقد حاول الكامل وضع عوائق متعددة في النيل لئلا يتخذه الصليبيون طريقا ، فاستطاعـــوا تخطيها ، ووصلوا الى بورة مقابل العادلية حيث أقام الكامل [٤] •

على حين كانت الأمور تسير على هذا المنوال في مصر ، فان العـــادل حاول تخفيف الضغط عليها بالعمل على مهاجمة املاك الصليبيين في الشام ، فأرسل ابنه الملك الأشرف لمهاجمة بعض المناطق الصليبية قرب طرابلس ، فأغار على حصن صافيتا ، وحصن الأكراد ، وانتصر الملك المعظم على فريق من الداوية وسجن قسما منهم • وكذلك فقد سار الى قيسارية فدخلها ، واتجه

---

١ ــ انظر تعريفها فيما سبق ص
٢ ــ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١٢ ، ص ٣٢٤
٣ ــ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ص ٣٢٤ ــ ذيل الروضتين ، ص ١٠٩
٤ ــ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ص ٣٢٤

الى عثليت فلم يتمكن من اخضاعها • ويبدو أن المعظم على الرغم من انتصاراته السابقة على الصليبيين في الشام ،كان يخشى ان ينجحوا في مصر ، ولذ للك فانه اسرع الى تدمير عدة حصون قوية في فلسطين ، كما فكر في هدم مدينة بيت المقدس ، وشرع فعلا في هدم أبراجها وسورها في ٦١٦هـ/ آذار مارس سنة ١٢١٩م حتى لا يحصل الصليبيون منها على أية فائدة اذا سقطت في أيديهم (١) •

٣ ــ وفاة السلطان العادل وتولي الكامل مهمة الدفاع

توفي السلطان العادل في ١٧ جمادى الاخرى سنة ٦١٥هـ/ ٣١ آب اغسطس ١٢١٨م ، والبلاد في خطر داهم ، والعدو يعمل على استغلال الفرصة • وخلفه ابنه الملك الكامل في حكم مصر وابنه الملك المعظم في حكم دمشق • وقد حاول الكامل صد الصليبيين ، فعبر النيل اليهم ، وباغتهم بالهجــوم ، ولكنهم صمدوا له وهزموا جنده ، في شعبان ٦١٥هـ/ ٩ تشرين الأول ١٢١٨م دون أن يستطيعوا عبور النيل الى الضفة الشرقية (٢) •

ساء موقف الكامل في مصر بسبب مؤامرة قامت ضده ، لصالح اخيه الفائز (٣) اضافة الى نزوح قبائل بدوية من سيناء والشرقية للنهب والسلب (٤) ، فآثر أن يتسلل من معسكره الى شموم طناح ، ولحق به جنده ، تاركين خلفهم كل ما معهم من مؤن وسلاح (٥) ، فسنحت الفرصة بذلك للصليبيين لعبور النهل الى الضفة الغربية ، وأن يستولوا على غنائم كثيرة من معسكر العادلية فــي

---

١ ــ عاشور : الحركة الصليبية ،جزء ٢ ص ٩٦٩ـ ٩٧٠
٢ ــ عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ٢ ص ٩٧١
٣ ــ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ص ٣٢٥
٤ ــ ابن الاثير :المصدر السابق ،جزء ١٢ ص ٣٢٦
٥ ــ ابن الاثير :المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٣٢٥

ذي القعدة سنة ٦١٥هـ/كانون الثاني ١٢١٩م • وفي تلك الأثناء وصـل الملك المعظم الى مصر ،فاستطاع مع أخيه من القضاء على المؤامرة (١) •وتقدم الجيش الأيوبي من جديد ، واحتل موقعه عند فارسكور جنوبي العادلية ليتمكن المسلمون من مهاجمة الصليبيين من الخلف اذا هاجموا دمياط • كما ارسل الكامل والمعظم بطلب النجدات من كل أنحاء العالم الاسلامي ،وخاصة الخليفة العباسي •

وصل الى الصليبيين نجدات قوية من فرنسا وقبرص ويرافقتهم المندوب البابوي بلاجيوس ، اضافة الى امدادات ومؤن ، تمكنوا بواسطتها من احكام الحصار على مدينة دمياط • على حين كانت الأنباء تترى للمسلمين عن تقدم جيوش جنكيزخان وتهديدا للدولة الخوارزمية ، مما أثار مشكلة الدفاع عن الجبهة الشرقية للعالم الاسلامي ضد المغول (٢) ، فدفع ذلك العادل الى أن يعرض على الصليبيين عرضا سخيا يتمثل بموافقته على احياء مملكة بيت المقدس الصليبية باستثناء حصن الكرك ووادي عربة ، مقابل جلاء الصليبيين عن مصر • ولكن العرض رفض من المندوب البابوي بلاجيوس الذى أصر على مهاجمة معسكر الكامل في فارسكور مع حصار دمياط • وكانت النتيجة فشل الهجوم ،وفرار الصليبيين ووقوع بعضهم في الأسر •

ظن الكامل بعد هذا النجاح الذي حققه ضد الصليبيين انهم سيقبلون عرضه بتجديد امارة بيت المقدس ماعدا الكرك والشوبك ، فأعاد عرضه عليهم ثانية ،فأبوا الا ان تكون الكرك والشوبك ضمن العرض (٣) •

---

١ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١٢ ،ص ٣٢٥

٢ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١٢ ، ص ص ٣٩٩ ـ ٣٩٨

٣ ـ عاشور : الحركة الصليبية ،جز ٢ ص ٩٧٦

ويحار المؤرخ في تفسير الأسباب التي دعت الكامل الى تقديم هذه العروض المغرية والى التساهل مع الصليبيين لدرجة لا يمكن تصورها ، إذ تعني ان الكامل مستعد للتنازل عن كل مكاسب صلاح الدين الأيوبي . ويمكن تفسير ذلك على ضوء سوء الوضع العام في الخلافة العربية الاسلامية ، وهجمات المغول ، وضعف مصر الاقتصادي في تلك السنة بسبب انخفاض النيل ، وانتشار الوباء ، ورغبة الملك المعظم في العودة الى بلاد الشام ، مع سوء وضع حامية دمياط ، ووصول نجدة قوية من الانكليز والفرنسيين الصليبيين .

صمدت دمياط في وجه الحصار الصليبي تسعة اشهر كاملة ثم استسلمت في ٢٧ شعبان ٦١٦هـ / ٥ تشرين الثاني نوفمبر ١٢١٩م للصليبيين الذين قاموا كعادتهم بالغدر بالسكان ووضعوا السيف فيهم ونهبوا وسلبوا ، وجعلوا جامعها كنيسة . ثم نشبت المنازعات بينهم حول ملكيتها .

كان الأسى عميقا في قلوب المسلمين لسقوطها ، كما خشي امراؤهم من أن يكون نجاح الصليبيين في دخول دمياط بداية لمد صليبي جديد ، ولذلك فانهم اتخذوا بعض الاجراءات التي رأوا انها ضرورية . فقد اتجه الملك المعظم الى الشام لاستئناف تدمير تحصينات بيت المقدس وغيرها من القلاع ، واعداد دمشق للدفاع . ثم عاد ومعه أخوه الأشرف موسى صاحب خلاط والجزيرة على رأس جنود هما لمساعدة الكامل (١) .

أقام الصليبيون في دمياط حتى النصف الأول من عام ٦١٨هـ / ١٢٢١م في ركود تام بانتظار الامبراطور فردريك الثاني على رأس حملة صليبية كبيرة ،

---

١ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٣٢٧

وأصدر بلاجيوس اوامره اثناءها بحد النشاط البحري للصليبيين بين دمياط وعكا • فاستغل المسلمون ذلك الوضع للسيطرة على مياه البحر بين دمياط وعكا • كما قامت السفن الاسلامية باغراق واحراق عشر سفن للحجاج الصليبيين بين الاسكندرية وقبرص وعكا ودمياط • وجدد الكامل اثر ذلك عرضه للمرة الثالثة بتسليم كل ما استولى عليه صلاح الدين اثر حطين ماعدا الكرك فقط • فرفض بلاجيوس ذلك ، وطلب ٣٠٠ الف دينار كتعويض عن تخريب تحصينات بيت المقدس (١) •

قرر بلاجيوس التحرك باتجاه القاهرة بعد أن وصل الى دمياط لويس دوق بافاريا على رأس قوة جديدة • وارسل يطلب حنا الاول من عكا ،والذي كان قد غادر دمياط بعد فتحها • كما قام الأيوبيون بكل ما في وسعهم لا فشال هذا الزحف وايقافه • فجمعوا من الجند كل ما يمكن جمعه من مصر والشام واجتمع الأخوة الكامل والمعظم والأشرف في المنصورة استعدادا لمواجهة الأخطار • وجدد الكامل عرضه على الصليبيين للمرة الرابعة ،فزادوا في غيهم وأكثروا في الطلب •

تقدم الجيش الصليبي وسط مثلث تحيط به المياه من ثلاث جهات ، بحيرة المنزلة شرقا ، وفرع دمياط غربا ،والبحر الصغير جنوبا (٢) • ووقفت السفن الاسلامية في النيل لتسد الطريق في وجه السفن الصليبية ، وتحول دون الصليبيين والاتصال بقاعدتهم في دمياط ، ودون وصول الميرة اليهم •ولما وصل الصليبيون الى رأس الجزيرة ،قطع المسلمون السدود ، فغرق المثلث الذي تقدم فيه الصليبيون بالماء ،بحيث لم يبق سوى ممر ضيق يستطيعون العودة

---

١ _ ابن الاثير :المصدر السابق ،جزء ١٢ ص ٣٢٩

٢ _ انظر خريطة رقم

عن طريقه الى دمياط • فوجدوه وقد أغلق بألفي فارس معهم آلاف من العربان (١) •

ساء موقف الصليبيين ، فارسلوا بدورهم الى السلطان الكامل في ٧ رجب سنة ٦١٨هـ/ ٢٨ آب اغسطس سنة ١٢٢١م يعرضون استعدادهم لترك دمياط ، والجلاء عن البلاد مقابل السماح لهم بالخروج من المأزق الذي وقعوا فيه ، وتركهم يعودون الى بلادهم سالمين • فوافق الكامل على ذلك • وطلب منهم رهائن من ملوكهم يبقون معه حتى يسلموا دمياط • وتم جلاء الصليبيين عنها في ١٩ رجب سنة ٦١٨هـ/ ٧ ايلول سنة ١٢٢١م (٢) فدخلها الملك الكامل في اليوم التالي ، وأضاف بعقد هدنة مع حنا الأول لمدة ثمان سنوات من ٦١٨ـ٦٢٦هـ/ ١٢٢١ـ١٢٢٩م شرط اطلاق الأسرى لدى الطرفين •

سلطنة الكامل بن العادل

١ ـ الخلاف بين أفراد الأسرة الأيوبية في عهده

نجح الأيوبيون في صد الحملة الصليبية الخامسة بسبب تعاونهم ووقوفهم صفا واحدا أمام هجمتهم الشرسة على دمياط (٣) • واكتسب الملك الكامل نتيجة لهذا النجاح من النفوذ والسلطان ما جعله يفرض سيطرته على أمراء الشام • ولكن الأيوبيين مالبثوا كعادتهم حين يزول خطر العدو أن عادوا الى ما درجوا عليه من صرف قوتهم في المنازعات الداخلية ، لتحقيق مطامع اقليمية (٤) •

---

١ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١٢ ، ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠
٢ ـ ابوشامة : ذيل الروضتين ،ص ١٣٠
٣ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١٢ ، ص ٤٦٣
٤ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١٢ ص ٤٦٣

بدأ الخلاف بين السلطان الكامل واخيه المعظم منذ سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م. ويعود الخلاف الى اطماع المعظم عيسى وجشعه، ورغبته في جعل المناطق المحيطة به في بلاد الشام تحت امرته. ولتحقيق ذلك هاجم حماه واستولى على بعض اعمالها مثل المعرة وسلمية، وكانت لابن عمه الناصر صلاح الدين قلج ارسلان. ولكن الكامل باعتباره سلطانا للايوبيين، فرض على أخيه الملك المعظم ترك ما احتله، فكان ذلك بداية الخلاف بينهما (١).

٢ ـ الحملة الصليبية السادسة

أدى الخلاف بين السلطان العادل ومطامعهم في التوسع على حساب بعضهم بعضا وتعرض بعض املاكهم لهجمات الخوارزمية الى خلافات شديدة تسببت مع جملة أسباب أخرى في قدوم الحملة الصليبية السادسة. فقد حدث في هذه الفترة الحرجة ازدياد سلطة الخوارزمية الذين باتوا يهددون الدولة الأيوبية في الجزيرة وبشكل خاص املاك الملك الأشرف. وهرع الأخير الى اخيه المعظم في دمشق سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م طالبا منه العمل بسرعة لتوحيد جبهة البيت الأيوبي أمام خطر الخوارزمية (٢). ولكن المعظم صاحب دمشق اراد ان يستغل الفرصة التي أتيحت له لصالحه الشخصي. فقبض على أخيه الأشرف في دمشق، ولم يطلق سراحه الا بعد أن تعهد له بمساعدته في الاستيلاء على حمص وحماه، ثم مهاجمة اخيهما

---

١ ـ ذيل الروضتين، ص١٣٣ـ١٣٤ـ ابن الاثير: الكامل في التاريخ، جزء ١٢، ص٤٦٣ـ المقريزي: السلوك، جزء ١، ص ٢١٤ـ يوسف درويش غوانمة: أضواء جديدة على الملك الناصر داود وتحرير بيت المقدس، مجلة دراسات تاريخية العدد الرابع، ص ٢١٢ـ

٢ ـ ابن الاثير: الكامل في التاريخ، جزء ١٢، ص ٤٦٤

الكامل في مصر . وقد تعهد الأشرف بذلك لينال حريته ، ثم نقض ما اتفقا عليه ، لأنه تعهد به مكرها . وانضم بذلك إلى أخيه الكامل ضد الملك المعظم [١] .

انقسم البيت الأيوبي بذلك على نفسه الى فريقين ، عمل كل منهما على الاستعانة بقوة خارجية . فاستنجد الملك الكامل بالامبراطور فريدريك الثاني [٢] طالبا مساعدته ضد أخيه ، مقابل اعطائه بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل [٣] . تلك الأملاك التي لا تتبع له من جهة لأنها من أملاك المعظم ، ولا يملك حق التنازل عنها . ووصلت رسالة الكامل الى الامبراطور فوردريك ، فرد على السلطان بسفارة مماثلة ، تحمل رده بالموافقة ، وهدية تليق به . كما اتفق الملك المعظم مع جلال الدين الخوارزمي ضد أخيه الأشرف ، وحرضهم ضده ، فحاصروا عاصمته خلاط في ذي القعدة سنة ٦٢٣هـ / تشرين الثاني نوفمبر ١٢٢٦م [٤] .

لم يلبث الملك المعظم ان توفي سلخ ذي القعدة سنة ٦٢٤ هـ / ١١ تشرين الثاني نوفمبر ١٢٢٧م [٥] ، فخلفه في ممتلكاته ابنه الناصر داود . وهو شاب لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره [٦] ، ولم يكن على حظ من

---

١ — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٤٢١ — ٤٢٢ — انظر ذيل الروضتين ، ص ١٣٣ — يوسف غوانمة : امارة الكرك الايوبية ص ٢١١ — ٢١٢ — Wiet: op. cit. , p 352

٢ — هو ملك الامبراطورية الجرمانية المقدسة ، والذي سعى الى توسيع سيطرته على ايطاليا وصقلية ، ووعد البابا بالقيام بحملة صليبية الى المشرق ، بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة ، وتزوج من يولانده وريثة بيت المقدس بواسطة حنا دي برين . انظر سعيد عبد الفتاح عاشور : اوربا في العصور الوسطى ، جزء ١ ص ٣٨٠ — ٣٨٦

٣ — انظر الشيال : المرجع السابق ص ١١٥ — Wiet: op. cit., p 352

٤ — الشيال : المرجع السابق ص ١١٤

٥ — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ص ٤٧١ — يوسف درويش غوانمة : اضواء جديدة على الملك الناصر داود ص ٩٨

٦ — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ص ٤٧٢ — يوسف درويش غوانمة : المرجع السابق ص ٩٨

التجربة والخبرة ، فوجد السلطان الكامل في وفاة المعظم وتولية الناصر داود فرصة طيبة لتحقيق أهدافه ، وضم المنطقة التابعة لابن أخيه وجعلها تحت سلطته المباشرة . فتوجه بعساكره في رجب سنة ٦٢٥هـ/ ٢ تموز يوليو سنة ١٢٢٨م الى بلاد الشام ، حيث استولى على بيت المقدس ونابلس .

لم يجد الناصر داود بدا من الاستنجاد بعمه الأشرف موسى ، الذى قدم بناء على طلبه ولمساعدته ، ولكنه ما لبث ان اتفق مع اخيه الكامل على الاستيلاء على دمشق في نهاية سنة ٦٢٥هـ/ ونهاية سنة ١٢٢٨م (١) ، وادعى الكامل أنه قام بهذا العمل كي لا تقع البلاد في أيدى الصليبيين ، في نفس الوقت الذى كان ينتظر فيه وصول الامبراطور فريدريك الثاني الذى كان في طريقه الى فلسطين (٢) .

في الوقت الذى عمل فيه الكامل والأشرف على القضاء على دولة الملك المعظم بعد وفاته ، وصل فريدريك الثاني الى الشرق بالحملة الصليبية السادسة ، ملبيا نداء الملك الكامل الذى كان قد أرسله اليه ، وتحت ضغط البابا الذى أوقع به قرار الحرمان لعدم تنفيذ ، ما وعد به حين تزوج يولاند وريثة مملكة بيت المقدس ، ولئلا يظهر أمام المسيحيين في صورة المسيحي العاق (٣) .

---

١ — Wiet: op.cit.,p 355

٢ — ابن الأثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٤٨٠ و ص ٤٨٢ — ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٢٢٧

— الذهبي : دول الاسلام ، تحقيق فهيم شلتوت ومحمد مصطفى ابراهيم ، القاهرة ١٩٧٤ ، جزء ٢ ص ١٣٢

— ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جزء ٦ ص ٢٣٣ — يوسف غوانمه : امارة الكرك ص ٢١٠

٣ — ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٤ ص ٢٤٢ — انظر عاشور : اوربا في العصور الوسطى ، جزء ١ ، ص ٣٨٥

— يوسف غوانمه : اضواء جديدة على الملك الناصر ص ١٠٧

كانت حملة فردريك الثاني من أغرب الحملات الصليبية • جاءت الى المشرق دون أن تحظى بعطف البابوية ، وكانت قيادتها لامبراطور محروم من الكنيسة • ولم يحضر مع قائدها من الصليبيين سوى خمسمائة فارس (١) • بمعنى ان هذه الحملة كانت من الضعف بحيث لا تشكل خطرا على الكامل محمد خاصة وبلاد الشام عامة • وموت اخيه المعظم عيسى قد أنهى حاجته الى حليف خارجي ، وجعله أقوى من كل من يمكن ان يخرج عليه • ومع ذلك جبن الكامل محمد عن الوقوف بحزم أمام فردريك مدعيا أنه اراد الوفاء بوعده ، لما عرف عنه من تسامح ديني (٢) • ولكن ما فرط به الكامل من حقوق المسلمين لا يدل على تسامح ديني بقدر ما يدل على تخاذل وتهاون أمام الأعداء • ويعزو بعض المؤرخين ان النشأة العلمية المتشابهة لكل من فردريك والكامل ، والتوافق في الميول والطباع أدى الى التفاهم، ودفع بالكامل الى تسليم بيت القدس (٣) • ولا أظن ان الثقافة تعني التساهل ، والجهل يعني حب الوطن والتمسك به ، بل كلما اتسعت ثقافة الانسان ، كلما كان أقدر على التلاؤم مع الظروف وأقدر على فهم الحق والواجب •

كان فريدريك يخطط لحملته قبل قدومها ، ويعمل على ارسال وفود الى حكام المنطقة ليسبر قوتهم وتساهلهم • فقد ارسل وفدا الى المعظم عيسى صاحب دمشق قبل وفاته يطلب منه التنازل له عن بيت المقدس الذى كان من املاك المعظم • ولكن المعظم رفض ذلك بإباء وشمم ، ولوح في جوابه للامبراطور تساهل الكامل في حقوق المسلمين ، فقال : (قل لصاحبك ما انا مثل الغير ، ماله عندى سوى السيف) (٤) • ولما وجد فريدريك أن أموره لن

---

١ — انظر عاشور : اوربا في العصور الوسطى ص ٥ ٣٨ — يوسف غوانمه : المرجع السابق ، ص ٩٩

٢ — انظر عاشور : مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ص ٨٦ — ٨٧ — الشيال : المرجع السابق ، ص ٤ ٢١

٣ — عاشور : المرجع السابق ص ٨٦

٤ — يوسف غوانمه : المرجع السابق ص ٩٩

تحل عن طريق الوفود قرر الاتجاه الى المشرق •

مرّ فريدريك في طريقه من صقلية الى الشام بجزيرة قبرص ،ليجعل تبعيتها الفعلية مع النظرية للامبراطورية الرومانية المقدسة ، فعين فيها نائبا صقليا عنه ، كما بث الحاميات في مختلف انحاء الجزيرة ، وعين موظفين ماليين لجمع الدخل والضرائب وأبحر في رمضان سنة ٦٢٥هـ / ايلول سبتمبر ١٢٢٨م من فاماغوستا بقبرص قاصدا عكا ، فوصلها بعد اربعة ايام •

حين وصل فريدريك الى الشام كان سبب استدعائه قد زال • فالملك المعظم قد توفى ، واملاكه وزعت باتفاق الأخوين الأشرف والكامل •واستقر الوضع بين ابناء البيت الأيوبي بالشام ، ولم يعد الكامل محتاجا الى مساعدته (١) • اما فريدريك الثاني فقد كان يرى في مسألة بيت المقدس مستقبل عرشه في الغرب الأوربي ،وقوة لموقفه أمام البابا الذى أخذ يرسل الرسل والخطابات الى السلطان الكامل يحرضه على عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور (٢) •

تلكأ الكامل في تسليم بيت المقدس الى فريدريك الثاني لأن الظروف قد تغيرت ، فاستخدم فريدريك سلاح المفاوضة والاستعطاف واستخدام الوسائل الدبلوماسية للوصول الى غرضه • فبادر بارسال سفارة من رسولين الى السلطان الكامل محملين بالهدايا النفيسة ، مطالبين الكامل بتحقيق وعده وتسليم بيت المقدس• فأجابه السلطان بأن السبب الذى من أجله وعد قد زال ، وان التفريط في بيت المقدس، سيؤذى شعور المسلمين

---

١ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٤ ص ٢٣٤

٢ - عاشور : المرجع السابق ، ص ٨٨

عامة . ولكن الاستعطاف الذى قام به فردريك أفلح في التأثير على الكامل ، اضافة الى وضع المنطقة بشكل عام ، وخوف الكامل من اقتراب الخوارزميـــة والمغول ، جعله يعقد مع فردريك اتفاقية يافـا وقد أوضح المقريزى تلك الأسباب بقوله : (وقد خاف غائلته عجزا عن مقاومته) (١) .

٣ ـ اتفاقية يافـا وتسليم بيت المقدس

عقد الكامل مع فردريك اتفاقية في سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م خالف فيهـا روح العصر مخالفة كبيرة ، وكانت بنودها كما يلي :

١ ـ أن تسلم مدينة القدس للصليبيين على ما هي عليه من الخـــراب وتبقى بأيديهم على وضعها لا تجدد اسوارها ولا يقام فيهــــا حصونا او قلاعا ، وتبقى سائر القرى حولها للمسلمين .

٢ ـ أن يبقى في أيدى المسلمين من المدينة منطقة المسجد الأقصى، على أن لا يحمل المسلمون فيــها ســلاحا .

٣ ـ ان يطلق الكامل سراح من عنده من الاسرى .

٤ ـ أن يعطى للصليبيين ايضا بيت لحم والناصرة ، فضلا عن تبنين وصيدا بأكملها إضافة الى طريق الحاج من بيت المقدس الـــى يافـا على الساحل .

٥ ـ أن يتعهد فردريك بمحالفة الكامل ضد جميع اعدائه ،حتى ولو كانوا مسيحيين صليبيين ، وأن يضمن عدم وصول امدادات صليبية الى امارتي انطاكية وطرابلس .

---

١ ـ عاشور : المرجع السابق ص ٩١ نقلا عن المقريزى السلوك

٦ ـ مدة هذه المعاهدة عشر سنوات • (١)

أدى تسليم بيت المقدس للصليبيين بتلك السهولة الى اثارة موجة عامة من السخط والأسى في العالم الاسلامي ، واعتبرها الجميع وصمة في جبين السلطان الكامل وعصره • وقد استغلها ابن أخيه الناصر داود ، وأمر خطيب المسجد الأموي بالوعظ ضد تصرف عمه هذا • ونعته المؤرخون بالخيانة والتقصير ، واعتبروا ذلك العمل وصمة في الدين (٢) • وقد أحس الكامل بذلك ، فحاول ان يبرر مسلكه بمبررات لم يقتنع الناس بها • كما قابل الصليبيون تلك الاتفاقية بالغضب والاستياء لحصول فردريك على بيت المقدس عن طريق الاستجداء لا السيف ، ولاحتفاظ المسلمين بكثير من حقوقهم فيها ، ولأنه لا تتوفر لها شروط الأمن من خارجها ، ولعدم بحث الاتفاقية وضع الكرك والشوبك •

دخل فريدريك الثاني مدينة بيت المقدس عقب عقد صلح يافا ، في يوم السبت ربيع الثاني سنة ٦٢٥هـ/١٧ آذار مارس سنة ١٢٢٩م ، ثم دخل في اليوم الثاني كنيسة القيامة وتوج نفسه بيده ، بعد ان رفض رجال الكنيسة تتويجه ، وأعلن للمسيحيين فيها انه يرفض أن يتصرف أحد منهم بما يسيء للاسلام ومسجدهم • ثم غادرها عائدا الى الغرب (٣) •

---

١ ـ انظر ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ص ٤٨٢ ـ ٤٨٣ ـ الشيال : المرجع السابق ، ص ١١٦ ـ يوسف غوانمة : المرجع السابق ص١٠٢

٢ ـ ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٢٤٣

٣ ـ المقريزي : السلوك ، جزء ١ ، ص ٢٣٠ ـ عاشور : المرجع السابق ص ٩٢

انحلال الدولة الأيوبيـة وسقوطها :

١ - الخلافات بين افراد الأسرة الأيوبية في عهد السلطان الكامل :

اتضح انحلال الدولة الأيوبية منذ توقيع معاهدة يافا بين السلطان الكامل محمد وفريدريك الثاني ، وزاد وضوحا اثر وفاة السلطان الكامل في رجب سنة ٦٣٥هـ/ مارس آذار ١٢٣٨م [١] ، وكان لهذا الانحلال مظاهر متعددة على رأسها :

- نشوب حروب بين أمراء الأيوبيين كادت تكون مستمرة ،
- زوال فكرة السلطان الأكبر الذى كان يعترف به وبسلطته جميع امراء الأيوبيين ، ويعتبرون أنفسهم تابعين له فزال بذلك التضامن العائلي ، وتبع ذلك محاولة كل أمير الحفاظ على امارته ولو بالاستعانة بالأعداء من صليبيين وغيرهم ،بعد ان كانت فكرة قتال الصليبيين واخراجهم واجب الأسرة الرئيسي ،

وقد تجلت الخلافات العائلية بأجلى صورها في محاولة الناصر داود العودة الى ملكه السابق في دمشق في جمادى الأولى ٦٢٦هـ/نيسان ابريل ١٢٢٩م ، وفشله امام تحالف عميه الأشرف والكامل ضده ، ومن ثم فانه قنع بالكرك والسلط والبلقاء ، حيث شكل بها امارة الكرك الأيوبية ، على حين أعطى الكامل مدينة دمشق لأخيه الأشرف ،مقابل تنازله له عن جهات الجزيرة [٢] .

---

١ - ذيل الروضتين ص ١٦٦

٢ - الذهبي : دول الاسلام ، جزء ٢ ص ١٣٣ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٤ ص ٢٥٧ .

لم تتوقف الخلافات العائلية في سلطنة الكامل عند هذا الحد ٠بل ان ما بدا للعيان انشقاقها الى فريقين ٠ فقد انشق الأشرف على أخيه الكامل وتحالف مع اقربائه في حمص وحماه وحلب ، على حين بقيت إمارة الكرك تمثل مركزا لتوازن القوى بين الفريقين المتنازعين ٠ ويعبر اليونيني [١] عن ذلك حين يذكر حديثا لأحد الأمراء مع السلطان الكامل يقول له فيه : أنت وأخوك - الأشرف موسى - مثل الميزان لا يرجح عليك ولا ترجح عليه ٠ وقد بقي بينكما الملك الناصر داود ، فإلى أي جهة مال ترجحت) ٠ وكادت تقع حرب بين الفريقين لولا وفاة الأشرف موسى في محرم سنة ٦٣٥ هـ / اغسطس آب ١٢٣٧م [٢] ٠ وانتقال ملك دمشق بعده إلى أخيه الصالح اسماعيل بعهد منه ٠

استمر الصالح اسماعيل كسلفه الأشرف في تحالفه مع اقربائه ضد السلطان الكامل ، مما دفع بالسلطان الى الخروج الى دمشق بعد أن استمال اليه ابن أخيه الناصر داود صاحب الكرك وعدوه بالأمس ٠ فاضطر الصالح اسماعيل تحت ضغط هذه القوة الى التنازل عن دمشق مقابل بعلبك والبقاع وبصرى ٠

٢ - العادل الثاني والصالح أيوب :

توفي السلطان الكامل في مدينة دمشق بعد دخولها بمدة قصيرة ٠ فبايع كبار رجال دولته ابنه الأصغر العادل الذي عرف بالثاني (٦٣٥ - ٦٣٧ هـ / ١٢٣٨ - ١٢٤٠م) متجاهلين ابنه الأكبر الصالح أيوب الذي كان يحكم أملاك والده في الشمال من قاعدته سنجار ٠كما جعلت دمشق

---

١ - الذيل على مرآة الزمان ،مطبعة دار المعارف العثمانية ، الهند ١٩٦١م ، جزء ١ ، ص ١٣٨

٢ - ذيل تاريخ الروضتين ص ١٦٦

للملك الجواد — زوج ابنة الأشرف موسى — ٠

لم يرق هذا العمل للصالح نجم الدين أيوب ، وشعر بأن توزيع أملاك أبيه الكامل لم يكن عادلا ٠ وان الذين قاموا بهذا العمل ، كانت غايتهم ابعاده عن المناطق الرئيسية ، ليجعلوا السلطان العادل الثاني الذي كان طفلا غرا ، وليس له خبرة وتجربة في الحكم تحت سيطرتهم المباشرة ٠ فنهض الصالح أيوب للمطالبة بحقه في عرش أبيه ، ولما لم يكن يستطيع اثبات ذلك إلا باستخدام القوة ، فانه سار باتجاه دمشق ، حيث ملكها من صاحبها مقابل اعطائه املاكا في الشمال في سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م ٠

ادى تحرك الصالح أيوب للمطالبة بحقه الى وقوع العداء بينه وبين أخيه الملك العادل الثاني ٠ واراد كل منهما أن يثبت حقه بالقوة ، واستعان الصالح بالجنود الخوارزمية ، على حين استعان العادل الثاني ببعض ابناء البيت الأيوبي ٠ وتقدم الصالح أيوب الى مصر بعد أن ترك ابنه نائبا عنه في دمشق ٠ وسنحت له الفرصة بدخول القاهرة في ذي القعدة سنة ٦٣٧ هـ / ١٩ حزيران يونيو ١٢٤٠م اثر مؤامرة دبرها ضد اخيه فيها (١) ٠ وبذلك انتهى دور العادل الثاني ، وتربع الصالح أيوب على عرش السلطنة ٠

كان الصالح أيوب شخصية قوية ، وقد شهد عصره أحداثا داخلية وخارجية هامة ، من ذلك أن أقاربه نهضوا للعمل ضده ٠ فقد استرد عمه الصالح اسماعيل مدينة دمشق ، وسجن ابن الصالح أيوب ونائبه فيها ٠ ثم تحالف ضده ، مع الناصر داود وصاحب حمص ومع الصليبيين ، وتوجه الجميع نحو الجنوب باتجاه مصر ٠ كما سار اليهم الصالح أيوب ، والتقى الفريقان في معركة عند مدينة غزة ، حيث انتصر الصالح أيوب على هذا التجمع ، ووطد سلطته في الداخل ٠

---

١ — الذهبي : دول الاسلام ، جزء ٢ ، ص ١٤٢ — ١٤٣

أ ـ استرداد بيت المقدس في عهد الناصر داود ثم في عهد الصالح أيوب

لم يحاول الأيوبيون استعادة بيت المقدس منذ تسلمه فريدريك الثاني حتى سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م ،على الرغم من بقائها غير محصنة حسب اتفاقية يافا بين السلطان وفريدريك الثاني . ويعود سبب عدم تحصينها الى الظروف السيئة التي كان يعيشها الصليبيون في تلك الفترة . اما من الأسباب التي دعت الأيوبيين الى الركون مع الصليبيين ، وعدم استعادة بيت المقدس ، فتعود بالدرجة الأولى الى الخلافات التي نشبت بين افراد الأسرة الأيوبية [١] ، والى تعرضهم الى هجمات عدد من القوى على رأسها الخوارزمية . فقد هدد هؤلاء الخلافة العباسية في بغداد ، ثم هاجموا بعض المناطق التابعة للسلاجقة والأيوبيين ،فاستولوا على خلاط في جمادى الأولى سنة ٦٢٧هـ/نيسان ابريل سنة ١٢٣٠م [٢] ، وقد أفزعت همجية الخوارزمية حكام المسلمين في المنطقة، فتناسوا خصوماتهم وعملوا يدا واحدة للقضاء عليهم . فقد تحالف الأيوبيون مع سلاجقة الروم وعملوا معا على استرداد خلاط [٣] .ولم يلبث سلطان الخوارزمية أن قتل وتمزقت دولته على يد المغول، الذين أصبح خطرهم قاب قوسين او ادنى من املاك الأيوبيين في الجزيرة [٤] . كما تعرض الأيوبيون لخطر جيرانهم سلاجقة الروم ، أحلافهم بالأمس ، الذين طمعوا بملكية خلاط والرها وحران .

وعلى الرغم من هذه الظروف السيئة التي كانت تحيط بالايوبيين ،والتي يمكن تلخيصها بالتمزق الداخلي ،والأعداء المتربصين بهم على الحدود ،

---

١ ـ انظر فيما سبق

٢ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢،ص ٤٨٧ـ٤٨٨ـ الذهبي : دول الاسلام ، جزء ٢ ، ص ١٤٣

٣ ـ ابن الاثير :المصدر السابق ، جزء ١٢،ص ١١ اوص ٤٨٩

٤ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١٢ ، ص ٤٩٥ـ ٥٠٤

فان الناصر داود نهض في سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م لتحرير بيت المقدس وساعده ، في تحقيق هدفه الأمور الآتية :

- رغبته الكاملة في تحرير بيت المقدس
- وفاة عمه السلطان الكامل محمد الذي سلم بيت المقدس لقمة سائغة للصليبيين .
- قيام الصليبيين بتعزيز وجودهم في المدينة المقدسة ، مخالفين بذلك بنود اتفاقية يافا ،فأعادوا بناء بعض أسوار القدس ثم عمروا في غربيه قلعـــة جعلوا برج داود من أبراجها [١] ، وشحنوها بالجند والعتاد .

حشد الناصر داود قواته ، وسار باتجاه القدس مستغلا انشـــــغال الصليبيين بالاحتفال في يوم عيدهم الأكبر . وكان قدوم الناصر داود بجيشـــه مفاجأة للصليبيين الذين لم يكونوا يتوقعون هذا الهجوم ، سيما وان الخلاف والانقسام بين الأيوبيين كان على أشده . فحاصر الناصر داود بيت المقدس ، بعد ان نظم قواته ،وقسمها الى فرق ،ووضع كل فرقة في مكان أعد لها . ثم نازل القلعة ونصب عليها المجانيق . واجتاحت قوات الناصر داود القدس فـــي جمادى الأولى من السنة المذكورة ، كانون الأول ديسمبر ١٢٣٩م ، وطهروه من الفرنج [٢] . ثم استسلم حماة القلعة بعد حصار سبعة وعشرين يوما ، وسمح للفرنج بمغادرة القدس [٣] .

بقي بيت المقدس في يد الناصر داود حتى سلمه الصالح اسماعيل صاحـــب دمشق ثانية للصليبيين، مقابل مساعدتهم له عسكريا ضد ابن اخيه الصالـــح

---

١ - اليونيني :المصدر السابق ، جز١٠ ص١٤١ - ابن واصل :المصدر السابق جز٥ ص ٢٤٦

٢ - هاملتون جب :صلاح الدين الأيوبي ،ترجمة يوسف ايبش ،بيروت١٩٧٣م ص ٢٢٢

٣ - يوسف درويش غوانمه : اضواء جديدة على الملك الناصر داود وتحرير بيت المقدس : مقال في مجلة دراسات تاريخية ص ١٠٢-١٠٣

نجم الدين أيوب صاحب مصر (١) ، ثم عمل الصالح أيوب بمساعدة جنوده من الخوارزمية على استعادته في سنة ٦٤١هـ/تموز يوليو سنة ١٢٤٤م.

ب ـ الصالح أيوب والخوارزمية

كان الصالح أيوب قد حالف الخوارزمية منذ كان في شمال بلاد الشام في سنجار للوقوف امام اعدائه من جيرانه. وكان جنود الخوارزمية قد شردوا من المغول بعد ان قضوا على دولتهم ، فتقدموا يعرضون خدماتهم الحربية على كل من يريدها من ملوك الدول الاسلامية المجاورة (٢) . فضم الصالح أيوب بعض هؤلاء اليه ، وشكل منهم فرقة كبيرة استعان بها لمجابهة تحالف الأيوبيين مع الصليبيين ضده ، وكانوا سببا في الانتصار الذي حققه على هذا الحلف في معركة غزة. كما ساعد هؤلاء الصالح أيوب في استعادة بعض المدن على ساحل فلسطين ، اضافة الى طبرية ونابلس وبيت المقدس.

كان الخوارزمية يأملون أن يكافئهم الصالح أيوب بالسماح لهم بالاستقرار في مصر ، فخاب أملهم فانقلبوا ضده ، فسار اليهم وقاتلهم وانتصر عليهم. ثم استغل وجوده في بلاد الشام ، فدخل مدينة دمشق ، كما فتح مدينة عسقلان (٣) .

وهكذا تمكن الصالح أيوب من ان يعمل على تقليص الأراضي التابعة للصليبيين حتى أبواب يافا ، كما عمل على توحيد الدولة الأيوبية ثانية تحت سلطته حتى مدينة دمشق مع بيت المقدس . وأذعن له كافة ملوك الأيوبيين في الشام بالطاعة.

---

١ ـ ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٥ ص ٣٣٣

٢ ـ الشيال : المرجع السابق ص ١٢١

٣ ـ عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص ١٠٤

ح ـ الحملة الصليبية السابعة

أدى استرداد بيت المقدس على يد الناصر داود ، ومن ثم على يد الصالح أيوب الى قدوم حملة صليبية سابعة ، بزعامة لويس التاسع ملك فرنسا المعروف بالقديس لورعه وتقواه • وقد أراد أن يسبغ على حملته صفة دينية ،فارتدى ثياب الحجاج السوداء واقتدى به القادة والجنود • وقد أبحر هذا الجيش من فرنسا في ٤ جمادى الأولى سنة ٦٤٦ هـ/اواخر آب اغسطس سنة ١٢٤٨م على الف وثمانمائة سفينة تحمل ثمانين الف مقاتل مع عدتهم وسلاحهم الى جزيرة قبرص حيث حصل على الراحة والمؤونة والمساعدات البشرية (١) •

أتاح تأخر لويس التاسع في قبرص الفرصة للصالح أيوب للاستعداد ، وحين وصل لويس الى دمياط وجدها مدينة محصنة تحصينا جيدا ، وأمامها الجيش الأيوبي ، يحول دون نزول القوات الصليبية الى البر • فارتأى لويس التاسع ان يترك مدينة دمياط ، وينزل على الضفة الغربية للنهل المواجهة لدمياط في جمادى الأولى سنة ٦٤٧ هـ/ ٥ حزيران يونيو ١٢٤٩م • وتصدى الجيش الأيوبي للصليبيين ، ودارت معركة على رمال الشاطىء بين الفريقين انتصر فيها الصليبيون •

استولى الخوف على أهل دمياط ، فتركوا مدينتهم هاربين بعد أن أشعلوا النار في سوقها ، دون ان يقطعوا الجسر الذى يربط دمياط بالضفة الغربية للنهل ،فدخلتها جيوش لويس التاسع في ٦ حزيران ١٢٤٩م دون قتال، واستولوا على ما فيها من اسلحة وآلات حربية ، وعملوا على تحويلها الى مدينة فرنجية • وبقي لويس التاسع خمسة أشهر فيها ، ففسح بذلك المجال للجيش الأيوبي ، لكي يعيد تنظيم نفسه ،على الرغم من مرض الصالح أيوب •

---

١ ـ الشيال : المرجع السابق ، ص ١٢٣

شجرالدر وتوران شاه ومتابعة قتال الصليبيين

زحف الفرنج باتجاه القاهرة على الضفة الشرقية للنيل في شوال ٦٤٧هـ / ٢٠ تشرين الثاني ١٢٤٩م • وفي تلك الفترة الحرجة من تاريخ مصر ، توفي السلطان الصالح أيوب ، فقامت ارملته شجرالدر بدور بارز • فقد أخفت خبر وفاة زوجها ، وأخرجت الكتب والمراسيم باسم السلطان • كما أخذت البيعة من المماليك لتوران شاه بن الصالح أيوب المقيم في حصن كيفا ، وأرسلت لاحضاره •

أقامت الجيوش الأيوبية في المنصورة عند التقاء فرع دمياط ببحر اشموم ، وأخذت في ضرب الصليبيين بهجمات سريعة في عدة أماكن ، حتى وصل الجيش الصليبي الى بحر اشموم ، فوجد نفسه في مكان حصين محصورا محاط بالنيل من طرفين • وارتكب الجيش الصليبي خطأ أدى الى هزيمته ، اذ عبرت قواتهم الى المنصورة ،فحمل المسلمون عليهم وهزموهم ، واستعد الجيش الأيوبي لقتال بقية الجيش الصليبي الذي اجتاز النهل ،وانقطعت بذلك طرق مواصلاته الى دمياط • فأخذ لويس يفاوض توران شاه على تسليمه دمياط ، مقابل بيت المقدس ،فرفض لعلمه بسوء احوال الصليبيين • ودارت بين المسلمين والصليبيين المتراجعين باتجاه دمياط معركة أدت الى وقوع الجيش الصليبي بأجمعه تقريبا بين قتلى واسرى • وكان لويس التاسع نفسه بينهم حيث سجن في المنصورة • وجرت مفاوضات بين الطرفين كانت لصالح الأيوبيين وعقد على اثرها معاهدة كان من شروطها أن يدفع الصليبيون للأيوبيين مبالغ ضخمة من المال مقابل فداء الجيش الفرنسي ، وأن يدعوا دمياط فداء لملكهم لويس التاسع • وأن يكون هنالك صلح مدته عشر سنوات •

على أن توران شاه ما لبث أن قتل قبل أن يتم تنفيذ الاتفاقيـــــة السابقة مع الصليبيين ، وأدى هذا الى سقوط الدولة الأيوبية في مصـر ، وقيام دولة المماليك في ٢٩ محرم سنة ٦٤٨هـ/٤ مايس مايو ١٢٥٠م .

الفصــل الســابع

دور الزنكيين والأيوبيين الحضارى

١ ـ الحياة العلمية والفكرية

- ـ أسباب بناء المدارس
- ـ المؤسسات التعليمية
  - أ ـ المدارس
  - ب ـ المساجد
  - حـ ـ الأربطة والخوانق
- ـ التدريس
- ـ اعضاء الهيئة التعليمية
  - أ ـ المدرسون
  - ب ـ المعيدون
  - حـ ـ الطــلاب
- ـ ثقافة العصر العامة
- ـ المدارس المحدثة في عهد الدولة الزنكية والأيوبية

٢ ـ الحيــاة الاقتصادية

- ـ الزراعــة
- ـ الصناعــة
- ـ التجارة
- ـ النقــود

٣ ـ الحياة الاجتماعيــة

٤ _ الجيش البـرى والبحـرى

_ الجيش البرى

أ _ في عهد الزنكيين

ب _ في عهد الأيوبيين

_ الجيش البحرى

الفصل السابع

دور الزنكيين والأيوبيين الحضارى

في تاريخ بلاد الشام ومصر والتاريخ العربي الاسلامي

الحياة العلمية والفكرية

أسباب بناء المدارس :

اهتم الزنكيون ومن ثم الأيوبيون بالعلم والعلماء ، ونهظوا بفتح المدارس حتى زاد عددها في تلك الفترة زيادة تلفت النظر في بلاد الشام اولا ثم في مصر والشام ثانيا ، وقد عجب ابن جبير الذى زار بلاد الشام في سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤م من نهضتها العلمية وسر لكثرة دور العلم والمساجد فيها، وفضلها في هذا المجال على بلاد المشرق عامة ، ونصح نشأة المغرب بالتغرب في طلب العلم ، ودخول بلاد الشام للنهل من علومها ومعارفها ، حيث يجدون الأمور المعينات ، كما قرر أن الغرباء من طلبة العلوم فيها لا يدخلون تحت حصر(١).

ومما لا شك فيه أن ازدياد عدد المدارس كانت له أسباب قوية أهمها :

١ ـ كان بناء المدارس في العهد الزنكي ضمن اطار حركة الاحياء السني ، ولدعم هذا المذهب في وجه العقائد الفاطمية والباطنية عموما ، والتي كانت لها السيطرة في المنطقة قبل دخولها تحت طاقة السلاجقة والزنكيين ثم الأيوبيين ، واهتم بنو زنكي بنشر المذهب السني عامة والحنفي خاصة (٢) ، وتتضح غاية نورالدين من فتحه للمدارس حين

---

١ ـ ابن جبير : رحلته ، ص ٢٠٠

٢ ـ يذكر ابن كثير : البداية والنهاية ، جزء ١٢ ص ٢٧٨ أن نورالدين كان حنفي المذهب وفقيهها ـ نعمت اسماعيل علام : فنون الشرق الأوسط في العصور الاسلامية ، دار المعارف بمصر ، ص ١٢٦

نعلم ما قاله لجماعة من العلماء اجتمع بهم : (نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة ، واظهار الدين)[١] • كما شجع الأيوبيون بناء المدارس لنفس الغرض[٢] • فقد كان بناء صلاح الدين للمدارس ضمن خطة موضوعة لهدم المذهب الشيعي ، وطريقة مرسومة للقضاء على الأفكار التي أتى بها الفاطميون الاسماعيلية[٣] •

٢ ـ الاهتمام الكبير الذى حظي به العلماء والمدرسون • فقد وفر لهم نور الدين ومن بعده ، صلاح الدين والأيوبيين عموما سبل الرعاية والتشجيع ، كما وفروا لهم الدخل الكبير والمساكن حتى يتفرغوا للعلم ونشره[٤] • ومن شدة اهتمام نورالدين بالعلم ، فانه كان يعمل على انتقاء المدرسين بنفسه ، ويستقدمهم من أماكن بعيدة ، ويفتح المدارس الكثيرة من أجلهم • وكان يكفي وجود عالم من العلماء في مدة من المواد كدافع لبناء مدرسة ليقوم بالتدريس فيها ، فقد بنى نورالدين مدرسة لشرف الدين بن أبي عصرون في دمشق ، وفوض اليه التدريس فيها ، وسمح له بأن يوليها من شاء • وبنى لقطب الدين النيسابوري مدرسة لم يتمها[٥] •

---

١ ـ ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٣

٢ ـ نعمت اسماعيل علام : المرجع السابق ، ص ١٣٦

٣ ـ عمر رضا كحالة : دراسات اجتماعية في العصور الاسلامية ، ص ٩٣

٤ ـ عبد الغني محمود عبد العاطي : التعليم في مصر زمن الأيوبيين و المماليك ، رسالة ماجستير ، ص ٦٦

٥ ـ كحالة : المرجع السابق ، ص ٩٩

٣ - كانت الغاية من بناء المدارس وسيلة لتخريج موظفين وأساتذة متعصبين بالمذهب السني ، كما يتولوا الوظائف الحكومية (١) .

٤ - همة كل من نور الدين وصلاح الدين العالية في نشر الأمن والوقوف بحزم أمام الأعداء . فوثق الناس بحكامهم في الحفاظ على حياتهم وانصرفوا للنهل من العلم . ولنا فيما كتبه أبو شامة أكبر دليل على ذلك . فقد تحدث عن نور الدين فقال : (فأما فكره ففي اظهار شعار الاسلام وتأسيس قاعدة الدين من بناء المدارس والربط والمساجد ، حتى ان بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله ، وفي زمانه صارت مقرا للعلماء والفقهاء والصوفية ، لصرف همته الى بناء المدارس والربط وترتيب امورهم والناس آمنون على أموالهم وأنفسهم) (٢) .

٥ - كانت المدارس تدرس العلوم الدينية ، لذلك قصد السلاطين والأمراء والأغنياء من تأسيسها التقرب إلى الله وكسب الثواب .

- <u>المؤسسات التعليمية :</u>

تنوعت أماكن التعليم في ذلك العصر وتعددت فالمدارس والمساجد والخوانق والربط كلها اماكن لتلقي القرآن والعلوم الدينية وعلوم اللغة العربية وغيرها .

<u>أ - المدارس</u>

كانت المدارس على نوعين ، احداها كان في أصله منزل ، ولذلك لا طابع خاص له . والاخر بني خصيصا للتدريس . وكانت المدرسة في العصر

---

١ - ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، جزء ٥ ص ٤١٠ - شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ، ص ١٩٥ - ١٩٦ : المصدر السابق ، جزء ١ ص ١٤

٢ - ابوشامه : المصدر السابق ، جزء ١ ص ١٤
- انظر امينة بيطار : التعليم في دمشق في القرن السادس الهجري ، مجلة ابن عساكر في ذكرمرور تسعمائة سنة على ولادته ، وزارة التعليم العالي دمشق ١٩٧٩ م ص ٢٣٧ - ٢٣٨

٣ ـ كانت الغاية من بناء المدارس تخريـــج موظفين واساتذة متعمقين بالمذهب السني ، كيما يتولوا الوظائف الحكومية (١) .

٤ ـ همة كل من نورالدين وصلاح الدين العالية في نشر الأمن والوقوف بحزم أمام الأعداء فوثق الناس بحكامهم في الحفاظ على حياتهم ، وانصرفـــوا للتنهل من العلم . ولنا فيما كتبه ابوشامة اكبر دليل على ذلك . فقـــد تحدث عن نورالدين فقال : (فأما فكره ففي اظهار شعار الاســـلام وتأسيس قاعدة الدين من بناء المدارس والربط والمساجد ، حتى ان بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله ،وفي زمانه صارت مقرا للعلمـاء والفقهاء والصوفية ، لصرف همته الى بناء المدارس والربط وترتيـــب امورهم والناس آمنون على أموالهم وأنفسهم) (٢) .

٥ ـ كانت المدارس تدرس العلوم الدينية ،لذلك قصد السلاطين والأمـــراء والأغنياء من تأسيسها التقرب الى الله وكسب الثواب .

ـ المؤسسات التعليمية :

تنوعت أماكن التعليم في ذلك العصر وتعددت فالمدارس والمساجد والخوانق والربط كلها أماكن لتلقي القرآن والعلوم الدينية وعلوم اللغة العربية وغيرها .

أ ـ المدارس

كانت المدارس على نوعين ،احداها كان في أصله منزل ، ولذلك لا طابـع خاص له . والآخر بني خصيصا للتدريس .وكانت المدرسة في العصر النـــوري

---

١ ـ ياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جزء ٥ ، ص ٤١٥ ـ شلبي : تاريـخ التربية الاسلامية ، ص ١٩٥ ـ ١٩٦

٢ ـ ابوشامه : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٤
ـ انظر امينه بيطار :التعليم في دمشق في القرن السادس الهجري ، مجلة ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادته ، وزارة التعليم العالي دمشق ١٩٧٩ م ، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨

وأوائل الأيوبي ذات ايوان او ايوانين ، لتدريس مذهب فقهي أو مذهبين • ثم ظهر بعد ذلك الطراز والايوانات الأربعة • وكانت المدرسة ذات الايوانات الأربعة مستطيلة البناء يتوسطها فناء كبير مربع ، يتوسط كل جانب من جوانبه الأربعة ايوان كبير يدرس بكل منها فقه امام من الائمة (١) .

وهناك وصف لمدرسة نورالدين زنكي لابن جبير الذي قال : (ومن أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نورالدين رحمه الله وبها قبره • وهي قصر من القصور الأنيقة ، ينصب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم ، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة الى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار ، فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر (٢) .

كانت المدارس التي تدرس الفقه اكبر المدارس ،بل هي أشبه بالجامعات لانها معاهد للتعليم العالي ،تختص في تدريس مذهب من المذاهب الأربعة • وقد يدرس في مدرسة أكثر من مذهب واحد •ففي عهد نورالدين كان الاهتمام بتدريس المذهب الحنفي ، وفي عهد صلاح الدين أصبح الاهتمام بتدريس المذهب الشافعي • ويمكن القول بأن غالبية المدارس في تلك الفترة كانت توقف لتدريس الفقه الشافعي أو الفقه الحنفي ، أو تكون مشتركة بين الشافعية والحنفية • وهناك مدارس أقل عددا للحنابلة ،وتكاد تنعدم مدارس المالكية •

لم تكن المدرسة للتدريس فقط ،بل كانت مكانا لدفن واقفيها في الغالب ،كما كانت مسجدا أو كان يلحق بها مسجد تؤدى فيه الصلاة • فمدرسة الكلاسة مثلا كان يلحق بها مسجد وغيرها كثير (٣) • كما كان يلحق

---

١ — نعمت اسماعيل : المرجع السابق ص١٣٧
٢ — ابن جبير :المصدر السابق ص١٩٨
٣ — النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس: جز•١ ص ٤٤٨ — عبد الباسط العلموي : مختصر تنبيه الطالب وارشاد الدارس ، تحقيق صلاح الدين المنجد ١٩٤٧ ص٧١

بالمدرسة سكن للمدرس. فقد ألحق بدار الحديث الاشرفية دار للشيخ المدرس فيها [١] . كما قطن الفخر بن عساكر بمدرسة الجاروخية [٢] .

كان يلحق بالمدرسة مكتبة عامرة بالكتب النفيسة يستخدمها الطلاب والأساتذة . وكانت الكتب مرتبة البيوت مقسمة الرفوف ، مفهرسة لسهولة الوصول اليها على أدق وأفضل طرق تنظيم المكتبات في عصورنا [٣]. وكانت الكتب توقف على اشخاص بعينهم أو تودع في المدارس والزوايا للصالح العام . فقد وقف نورالدين كتبا كثيرة على أخذ العلم [٤] . والى جانب المكتبات العامة ، فقد كان هناك مكتبات خاصة لها قيمتها العلمية . فقد كتب القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني العسقلاني تتألف من مائة الف مجلدة [٥]. ولم تقتصر المكتبات في عهد الأسرتين على المدارس، بل ألحقت بالجوامع مكتبات كبيرة ،فضلا عن المكتبات الخاصة . فقد ألحق صلاح الدين بمدرسته الصلاحية مكتبة كبيرة ، وألحق بكل مدرسة أنشأها مكتبة أصغر . اما عن ما فعله صلاح الدين بمكتبة القصر الفاطمية ، فلابد من ذكر أنه فعل ذلك في وقت كان يعمل فيه على محاربة الفاطميين ومذهبهم . وكانت المكتبة تضم كتبا كثيرة في المذهب الشيعي ، وكتبا في التنجيم والغيبيات [٦] . وقد نقلت الكتب الأخرى الى مكتبات خاصة كمكتبة العماد الأصفهاني وغيره [٧] .

---

١ ـ النعيمي :المصدر السابق ،جز ١ ، ص ١٩
٢ ـ النعيمي :المصادر السابق ،جز ١ ، ٨٣
٣ ـ ابوشامة : المصدر السابق ،جز ١ ص ٢٦٨
٤ ـ النعيمي :المصدر السابق ،جز ١ ص ٦٠٨
٥ ـ النعيمي :المصدر السابق ،جز ١ ، ص ٩٢
٦ ـ الشيال : المرجع السابق ص ٤٩
٧ ـ انظر بيطار : التعليم في دمشق في القرن السادس الهجري ص ٢٧٢ـ٢٧٣

كان لكل مكتبة عدد من الموظفين يقومون بتنظيم الكتب ورعايتها والمحافظة عليها • فضلا عن خدمة المترددين عليها من طلاب العلم • وأهم هؤلاء الموظفين الخازن (الأمين) والنساخ والمجلدون والمناولون •
كما كان لكل مدرسة وقف خاص بها يصرف ريعه على الناظر والمدرسين والفقهاء والطلاب وغيرهم • وليس من الضروري أن يكون الوقف المخصص للمدرسة موقوفا من قبل واقف المدرسة بعينه • فقد يوقف الأوقاف لمدرسة من المدارس أشخاص غير الذين بنوها • فاذا كان لها وقف سابق توسع وقفها • واذا لم يكن لها يصبح لها أوقاف تساعد على بقاء واستمرار نشاطها التعليمي [(١)] • وخير الأمثلة على أوقاف هذه الفترة وطريقة صرفها، وقف المدرسة الشامية الجوانية [(٢)] ، ووقف المدرسة العمادية • ومن هذين الوقفين يتضح أنه ليس من الضروري أن تكون جميع الأوقاف أراضي زراعية • فقد أوقف صلاح الدين على مدرسته الصلاحية حماما بجوارها وفرنا وحوانيت ، فضلا عن جزيرة الفيل بالنيل خارج القاهرة [(٣)] •

وهكذا كان للمدارس ميزانيات ثابتة تضمن للمعلمين والمتعلمين فيها مستوى كريم من العيش يجعلهم ينصرفون الى طلب العلم بنفوس راضية مطمئنة • وباعتبار ان اوقاف كل مدرسة تختلف عن الأخرى ، يمكن القول ان المستويات المادية بين المدرسين كانت مختلفة باختلاف سعة وقف المدرسة • يضاف الى ذلك أنه في حال كون الوقف زراعيا ، فان انتاج الوقف يتأثر بالأحوال المناخية والآفات الزراعية ، لذلك قد تمر بعض السنوات على المدرسين ، تكون حالتهم فيها سيئة •

---

١ ـ النعيمي : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٧٨ ـ ٧٩
٢ ـ النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ ـ ٣٠٣
٣ ـ المقريزي الخطط ، جزء ٤ ص ١٢٥

ب ـ المساجد

لم يقتصر التعليم في هذا العصر على المدارس، فقد كان يتم أيضا في المساجد تعليم العلوم الدينية والعربية غالبا، والاجتماعية والعقلية نادرا، وتميز التعليم في المساجد بالحرية المطلقة بالنسبة للمدرسين والطلبة في اختيار المناهج (١) . وخير مثال على التعليم في المساجد الحديث عما كان يجرى في هذا المجال في المسجد الأموى .

حظيت زوايا المسجد الأموى ومدارسه في العصر الأيوبي باهتمام وعناية الكثيرين ، ووقفت لكل منها الأوقاف الكثيرة . ونال المدرسون بها اجراء واسعا ، والحق بمدارسه مساكن للطلبة والأساتذة . وقد ترك لنا ابن بطوطة وصفا للتدريس في المسجد في كافة حلقاته فقال : وللمسجد الأموى حلقات للتدريس في فنون العلم ، والمحدثون يقرؤون كتب الحديث ، على كراسي مرتفعة ، وقراء القرآن يقرؤون بالأصوات الحسنة صباحا ومساء ، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله) (٢) .

ومن اشهر الزوايا التدريسية فيه زاوية المالكية ، وقفها نورالدين للمغاربة الغرباء، ووقف لها اوقافا كثيرة . ودار الحديث الفاضلية ، ودار الحديث العروية ، والمدرسة التاجية ، والمدرسة الغزالية ، والمدرسة القوصية (٣) .

---

١ ـ عبد العاطي : المرجع السابق ص ١٧٠

٢ ـ ابن بطوطة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ١٠٨

٣ ـ النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٨٩ ـ ٩٠ وص ٨٦ ، ص ٤٨٣ ـ ٤٨٤ وص ٤١٣ ـ ٤١٤ وص ٤٣٨ وص ٤١٩ وص ٤١٥ ـ ابن جبير : رحلته ، ص ١٩١ ـ ١٨٧ ـ محمد كرد علي : المرجع السابق ، جزء ١ ص ٩٤

ح- الأربطة والخوانق :

الخانقاة بيت الصوفية ومدرستهم ، وكذلك الرباط. إلا أنه يعني أصلا بغاية المرابطة للجهاد. كان تعليم الصوفية على قسمين، قسم اجباري غالبا ما يتعلق بالأمور الدينية واللغة العربية، وهي العلوم التي يترتب على الصوفي الاشتغال بها، ويلزم بحضور دروسها. وآخر اختياري يختاره الصوفي بحسب قابلياته واستعداده (١) .

- التدريس :

لم تكن هناك طرق معينة للتدريس في المدارس يتقيد بها المدرس ويسير بحسبها، بل كان يدرس بالطريقة التي يراها مناسبة لطلبته، مع التقيد فقط بشروط الواقف من حيث المذهب والمواد المقررة. وكان المدرس يحسن القاء الدروس حرصا على سمعته العلمية وبدافع ذاتي. ويجعل مستوى المادة التي يعطيها متناسبا مع مستوى الطلاب. فلا يلقي عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات ، بل كان يدربهم ويأخذهم بالأسهل فالأسهل، الى أن ينتهوا الى درجة التحقيق (٢) .

لم تكن أيام الدراسة المقررة واحدة في كل المدارس. فقد كانت تتراوح بين ثلاثة ايام وخمسة من كل اسبوع حسب شروط الواقف، كما لم تكن مواعيد الدراسة محددة تحديدا دقيقا . اذ لم تكن مواعيد بداية ونهاية اليوم الدراسي واضحة. وكانت الدراسة عموما فيما بين طلوع الشمس وآذان العصر (٣) . كما اختلفت العطل الدراسية السنوية من مدرسة لأخرى . وكانت المدارس عادة تعطل في شهر شعبان ورمضان وعشر من شوال وعشر من ذي الحجة ، وأيام الأعياد والتشريق ، ويوم تاسوعا وعاشورا من كل سنة ، تزيد عن هذا

---

١ - عبد العاطي : المرجع السابق ، ص ١٩٧

٢ - السبكي : المصدر السابق ، ص ١٠٥

٣ - عبد الغني عبد العاطي : المرجع السابق ، ص ٢٤٦-٢٤٧

المقدر قليلا أو تكثر عنه • كما كان هناك اجازة عارضة ، وأخرى مرضية (١) •

ـ اعضاء الهيئة التعليمية :

أ ـ المدرسون : يقف المدرس على رأس هيئة التدريس،ويشترط فيه العلم التام بمادته ،وحسن الديانة ، والورع والتقى ، كان المدرس في مدرسة من المدارس كأنه جزء منها • يتم تعيينه من قبل واقف المدرسة • ولا يمكن أن يحل فيها مدرس جديد عوضا عنه ،الا اذا تنازل المدرس السابق له (٢) • اما كليا او جزئيا • كأن يتنازل عن ثلث التدريس أو نصفه مجانا أو مقابل تعويض (٣) ، الا في أحوال استثنائية •

نال المدرسون مكانة كبيرة في هذا العصر لم يرق اليها غيرهم حتى أصحاب المراكز السياسية والعسكرية ، وأصحاب النفوذ المادى (٤) • كما كان رجال العلم يوجهون النقد اللاذع للمجالس العلمية التي يعقدها السلطان • فقد وجه ابن عساكر النقد لمجلس صلاح الدين وشبهه بمجلس السوقة ، ورفض حضوره ،حتى أمر صلاح الدين أصحابه أن لا يكون منهم ما جرت به عادتهم اذا حضر الحافظ (٥) • كما كان العلماء سفراء الملوك والأمراء الى الخلفاء وأولي الأمر • وكثيرا ما توسطوا في فض الخلاف بين الامراء (٦) •

---

١ ـ عبد الغني عبد العاطي : المرجع السابق ، ص٢٤٨ ـ ٢٤٩
٢ ـ النعيمي : المصدر السابق ،جزء ١ ، ص ٥٣٧
٣ ـ النعيمي : المصدر السابق ،جزء ١ ،ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦
٤ ـ ابوشامة : المصدر السابق ،جزء ١ ،ص ١٠ ـ ابن كثير :المصدر السابق ، جزء ١٢ ،ص ٢٨١
٥ ـ ابوشامة : المصدر السابق ،جزء ١ ،ص ١٠
٦ ـ ابن كثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ،ص ٢٧

وتقديرا للمدرس وثقة به وبأمانته فقد كان يسمح له بعدم القاء الدرس اذا لم يكن عنده الاستعداد النفسي أو الجسدي أو العقلي (١) .

درج المدرسون على منح طلابهم الاجازات، وهي اكثر من نوع ، ويهمنا أن نتحدث عن الاجازات العلمية التي ينالها الطالب بعد أن يشعر أستاذه بمقدرته وكفاءته ، بعد أن يعرضه لأسئلة متعددة ومتنوعة في كتاب بعينه أمام جمهور الناس من أهل الفضل والعلم (٢)، فاذا استطاع الطالب الاجابة على كل الأسئلة التي تطرح عليه ينال الاجازة من المدرس لا من المدرسة ، يكتبها له الأستاذ ويوقعها ، وقد ينال الطالب أكثر من اجازة ، وكلما زاد عدد اجازاته زادت مكانته العلمية (٣) .

ب ـ المعيدون : يعتبر المعيد من أعضاء الهيئة التدريسية وهو المدرس الثاني للطالب يعيد الدرس على الطلاب ويتوقف لشرح النقاط أو المشاكل التي يتم فهمها من الأستاذ ، ويكون اشتراك المعيد في التدريس مع أستاذه بداية لترقيته الى رتبة مدرس (٤) على أن يرحل في طلب العلم (٥).

جـ ـ الطلاب : ويطلق عليهم اسم فقهاء المدارس ، ولم يكن يشترط سن معينة لقبول الطالب في المدرسة ، ولكن بعض الواقفين وضعوا شروطا فحواها ان تتوفر في طلبة مدارسهم قابلية التعليم واتصافهم بالفطنة والذكاء (٦) ، ويتدرج الطالب في مراحل تعلمه حتى يصبح فقيها منتهيا ،

---

١ ـ ابن جماعة : تذكرة السامع ، ص ١٨٧
٢ ـ عبد الغني عبد العاطي : المرجع السابق ، ص ٢٦٥
٣ ـ النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٠٢ ، و ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣
٤ ـ القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشاء ، جزء ٥ ، ص ٤٦٤ ـ عبد الغني عبد العاطي : المرجع السابق ، ص ٢٢٥ ـ كحالة : المرجع السابق ، ص ١٠١
٥ ـ النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٠٣
٦ ـ السبكي : المصدر السابق ، ص ١٠٥ ـ ١٠٧

ويختص بعلم من العلوم يؤثره •

لم يكن الرجال وحدهم الذين يتلقون التعليم • فقد نالت المرأة حظـــا في العمل التعليمي ، وإن لم تتسلم وظيفة التدريس في مدارس• ولعـــب بعض النساء دورا لا يقل أهمية عما قام به الكثير من العلماء والفقهاء ، وتتلمـــذ على أيديهن الكثير من الطلبة • فقد ذكر الحافظ ابوالقاسم بن عساكر ان جملة شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ ونيف وثمانون امرأة (١) •

- ثقافة العصر العامة :

أبرز سمات الثقافة في هذا العصر ، الاهتمام بالثقافة الدينية من علـــوم القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه الاسلامي • وهنالك الى جانب العلـــوم الدينية ، العلوم اللغوية ، والعلوم التاريخية والاجتماعية ، وعلم الطـــب ، وعلوم أخرى متفرقة •

أما العلوم العقلية والفلسفية ،فلم يتح لها الانتشار لموقف الأيوبييـــن منها • ولا يعني هذا أن العصر خلا من كل علم في هذا المجال ، بـــل ان الحلقات العلمية لم تتناول هذه المواضيع ، على حين انعزل الفلاسفة، وصنفوا آثارهم في الكتمان وأخفوها عن العوام ، واطلعوا عليها الخاصة من اصدقائهم خوفا على حياتهم (٢) •

- المدارس المحدثة في عهد الدولة الزنكية والأيوبية :

اصبحت الشام في عهد نورالدين مقرا للعلماء والفقهاء والصوفيـــــة

---

١ - محمد كرد علي : خطط الشام ، جزء ٢ ، ص٧٥

٢ - النعيمي : المصدر السابق ،جزء ١ ،ص٣٣٢وص ٤١٠-٤١١- كحالة : المرجع السابق ص ٩٦

وانتشرت فيها المدارس . فقد بنى في حلب المدرسة الحلوية [١] والمدرسة العصرونية [٢] التي استدعى لها من سنجار شرف الدين بن أبي عصرون وهو من أعيان فقهاء عصره ، كما بنى فيها المدرسة النورية [٣] والمدرسة الشعيبية [٤].

كما زخرت مدينة دمشق بالمدارس مثل المدرسة النورية الكبرى [٥] ، والمدرسة الصلاحية [٦] والعمادية [٧] والكلاسة [٨] ، ودار الحديث النورية [٩] . كما بنى مدرستان في حماه ، ومدرستان في حمص وواحدة في بعلبك [١٠] . ويمكن القول ان عدد المدارس كانت قبل عهد نورالدين ست عشرة مدرسة في الشام ، ارتفع عددها في عهده الى ثمان وخمسين ، أى بلغ عدد المدارس المنشأة في عهده وحده اثنتين واربعين مدرسة ، كان نصفها من بنائه شخصيا .

اهتم سلاطين الأيوبيين ايضا بالعلم والعلماء . فقد كان صلاح الدين يجمع حوله رجال العلم ، ويحضر مجالسهم ليستمع اليهم ويشاركهم في ابحاثهم [١١] وكان ابنه الملك العزيز عثمان عالما بالحديث والنحو [١٢] . أما السلطان

---

١ ـ الطباخ : أعلام النبلاء ، جزء ٢ ص ٧١ ـ ابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص ١١٥

٢ ـ اعلام النبلاء ، جزء ٢ ، ص ٧٥ ـ ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١١٠

٣ ـ اعلام النبلاء ، جزء ٢ ، ص ٧٦ ـ ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١١١

٤ ـ اعلام النبلاء ، جزء ٢ ، ص ٧٦

٥ ـ النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٦٠٦

٦ ـ النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٣٣١

٧ ـ النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٤٠٧

٨ ـ النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤٤٧

٩ ـ النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٩٩

١٠ ـ النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤٠١

١١ ـ السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، جزء ٤ ، ص ٣٢٩

١٢ ـ ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٣١٥

الكامل ،فالحديث عن علمه كثير ،فهو يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم ، وعنده شغف بسماع الحديث النبوي . وكان يناظر العلماء وعنده مسائل غريبة من فقه يمتحن بها ، فمن أجاب عنها قدمه ، وحظي عنده . وكان يبيت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم ... ليسامروه (١) .

وقد برز عدد من العلماء من الأسرة الأيوبية غير من ذكر . وعلى رأسهم المؤرخ المشهور ابوالفداء صاحب حماه المتوفى سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م ، مؤلف كتاب المختصر في أخبار البشر . وكذلك بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١ ،وكان شاعرا أديبا؟ والملك الناصر بن الملك المعظم المؤيد الأيوبي صاحب اليمن المتوفى سنة ٧٢١هـ /١٣٢١م . وكان من اهل العلم . واشتملت خزانته على مائة الف مجلد ، والملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق المتوفى سنة ٦٢٤هـ /١٢٢٧م . وكان راغبا في الأدب وأهله حتى أنه أعطى لكل من يحفظ المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعة (٢) .

وعلى حين نهض الزنكيون ببناء المدارس في بلاد الشام ،فان الأيوبيين قاموا بهذه المهمة في الشام ومصر في آن واحد . وقد جاء التوسع في انشاء المدارس في عهدهم كمظهر قوي لرقي الحياة الفكرية . وقد بدأ صلاح الدين بانشاء مدرستين في حياة الخليفة العاضد الفاطمي . فقد هدم دار المعونة في سنة ٥٦٦هـ وهي الدار التي كانت تستخدم كسجن يسجن فيه من يراد سجنه ، وجعلها مدرسة للشافعية (٣) عرفت بالناصرية . وقد رتب بها

---

١ ـ المقريزي : السلوك ، جزء ١ ، ص ٢٥٨

٢ ـ عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، ص ١١٨

٣ ـ ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص ٣٦٦

مدرسا يدرس الفقه على مذهب الشافعي ، وجعل فيها معيدين ، ورتب للجميع الرواتب الشهرية ، وأوقف لها الأوقاف الكثيرة [١] . وهي غير الناصرية التي بنيت فيما بعد بالقرافة [٢] . كما بنى صلاح الدين المدرسة القمحية ، وسميت بهذا الاسم نسبة الى القمح الذى كانت تحصل عليه من الوقف الذى وقفه عليها صلاح الدين [٣] . وبعد سقوط الخلافة الفاطمية بنى ثلاث مدارس أخرى . فصار عدد المدارس التي انشأها في القاهرة وحدها خمس مدارس . كما بنى في بيت المقدس مدرسة عرفت بالمدرسة الصلاحية [٤] . وأخرى في دمشق بنفس الاسم [٥] .

وقد حاكى سلاطين الأيوبيين بعد صلاح الدين وكبار رجال الدولة والأغنياء كل من نورالدين وصلاح الدين . ويعدد لنا شلبي [٦] المدارس التي بنيت في العصر الأيوبي ، ويجعلها احدى وستين مدرسة عدا مدارس الطب .

ومن المميزات التي امتاز فيها الأيوبيون في اهتمامهم بالحركة العلمية ، تسامحهم مع مخالفيهم في المذهب والدين . فقد كانت تفتح المدارس للمذاهب الأربعة على الرغم من انهم شوافعة . وزاد تسامحهم عندما أصبح بعضهم كالمعظم وابنه داود احنافا . وقد تبع ذلك مسالمتهم للصليبيين ، وحسن معاملتهم للمسيحيين شرقيين وغربيين ، وكذلك لليهود . وقد بدوا أقل تشددا من الزنكيين والسلاجقة مع أتباع المذاهب الشيعية . وقد يكون ذلك بسبب تغير الظروف الموضوعة حولهم . فقد زال سلطان

---

١ _ الشيال : المرجع السابق ، ص٥١_٥٢

٢ _ المقريزى : الخطط ، جزء ٢ ص ٤٠٠ ، ط القاهرة ١٢٧٠ _ الشلبي : المرجع السابق ص١٢١

٣ _ عاشور ، المرجع السابق ص١٢٠

٤ _ مجيرالدين الحنبلي : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، جزء ٢ ص٢٩٣

٥ _ النعيمي : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص١٠

٦ _ المرجع السابق ص١٢١_١٢٣

الفاطميين السياسي ، ولو حق دعاتهم ، فلم يعد هؤلاء يشكلون خطـــرا عليهم • اما ما كان يجرى من خلافات مع أصحاب المذاهب الأخرى فـــي عصرهم ،فمرده سياسي أكثر منه ديني •

ويمكن القول في ختام هذا البحث ، ان هذا العصر كان عصر ثقافـة دينية على الغالب ، وأن بلاد الشام تفوقت على مصر آنذاك لعدم قـدرة الأخيرة على الملاءمة بين تراثها الماضي الفاطمي بطابعه المخالف والمباين للقيم والمثل والأهداف الجديدة • وأصبحت بلاد الشام بذلك مركـــز الثقافة العربية الاسلامية ، تقاطر نحوها العلماء من سائر الأقطار نظـــرا للتشجيع الذى نالوه من الحكام ، ولتوفر المناصب العلمية في المدارس ، ولجودة واردها نسبيا ، اضافة الى توافد الطلبة الذين يتوفر لهم التعليـم والجراية من واردات الأوقاف التي اوقفت على المدارس الكثيرة •

٢ — الحيـــاة الاقتصاديـــة

— الزراعـــــة :

انخفضت أهمية بلاد الشام في العصرين الزنكي والأيوبي من الناحية الزراعية • فمعظم السهول الساحلية الخصبة كانت بيد الفاطميين ، وأمـــا بقية المناطق فكانت تتعرض لهجمات صليبية بين حين وآخر مما أثر علـى انتاجها الزراعي • وعلى العموم فان معلوماتنا عن اقتصاد بلاد الشام فـي هذه الفترة ضئيلة • وربما كانت أكثر معلوماتنا عنها مستقاة من كتاب الأعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة لابن شداد ، الذى يســـجل لنا قوائم كاملة عن الضرائب في حلب وحران والرها ومنبج وســـروج وبالس • ومـن كتاب الحسبة للشيزرى •

اشتغل غالبية أهل مصر بالزراعة ، التي اعتمدت في العصر الأيوبي على رى الحياض • فكانت الأراضي الزراعية تقسم الى حياض كبيرة تغمر بمياه الفيضان مدة كافية ،ثم تصرف تلك المياه لتبذر البذور • ولذلك فقد كانت أوضاع البلاد الاقتصادية تحت رحمة فيضان النيل ، فاذا جاء مستوى الفيضان طبيعيا ، تمكن الناس من زراعة الأرض في اطمئنان وكان نتاجها مرضيا • واذا حدث العكس ، فيعني ذلك ضعف المحصول وارتفاع أسعار الغلال وحدوث المجاعات وانتشار الأوبئة (١) • ومن أشهرها في العصر الأيوبي تلك التي حدثت في عهد السلطان العادل الأيوبي ، في سنة ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠م حسب رواية المقريزى (٢) ، وفي سنة ٥٩٧ هـ/١٢٠١م حسب رواية ابي المحاسن (٣) • وما يهم في هذا الأمر ان نوضح أن سبب المجاعة يعود الى توقف النيل عن الزيادة ، حيث توقفت الزيادة عند اثني عشر ذراعا وأصابع • فزحف الناس من القرى باتجاه القاهرة ، كما فر كثيرون باتجاه البلاد العربية المجاورة كالمغرب والحجاز واليمن والشام ، وتمزقوا كل ممزق • وقد دفعتهم هذه المجاعة الى أكل لحوم صغار البشر (٤) •

وهكذا يبدو ان الاعتماد في الزراعة على فيضان النيل ، جعلت الناس تحت رحمة الطبيعة ، وقد حاول الأيوبيون تنظيم الرى ، فحفروا عددا كبيرا من الترع والمصارف ، ووضعوا من الترتيب ما يكفل وصول مياه الرى الى مساحات شاسعة من الأراضي • وعهد صلاح الدين الى الأمير قراقوش الأسدى بالاشراف على عمارة القناطر والجسور (٥) • وكانت الجسور في ذلك

---

١ ـ عاشور : المرجع السابق ص١٢٥
٢ ـ المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص٢٩
٣ ـ ابوالمحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ص١٧٣
٤ ـ المقريزى : المصدر السابق ص٢٩ ـ ابوالمحاسن :المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٧٣
٥ ـ المقريزى : الخطط ،جزء ١ ص١٥١

العصر على نوعين ، جسور سلطانية تستفيد منها سائر البلاد ، تعهدت الحكومة باقامتها والانفاق عليها • وجسور خاصة بجهة معينة ، يعود نفعها على تلك الجهة لاغير • ولذلك كان على أهالي تلك الجهة من الفلاحين والمقطعين اقامتها والانفاق عليها (١) .

ساد النظام الاقطاعي في العصر الأيوبي ، واستقر في نهاية هذا العصر • فقد كان على المقطعين أن يؤدوا خدمات اقطاعية ،منها ما هو مالي مثل ضرائب الزكاة والجوالي وغيرها • ومنها ما هو على شكل خدمات مدنية مثل رعاية شؤون الأمن في الاقطاع والعناية بالزراعة وصيانة الجسور • وهذا كله فضلا عن الواجبات الحربية (٢) .

وعلى الرغم من سيادة النظام الاقطاعي ، فان الفلاح كان محمي من استغلال السادة الاقطاعيين • فكان التوقيع الخاص بالاقطاع في ذلك العصره يأمر المقطع بضرورة الأمر بالمعروف ، واتباع العدل ، والمحافظة على الاقطاع وعمارته وحسن ادارته • اضافة الى حسن الجوار مع زملائه من المقطعين المجاورين له • كما اهتم الايوبيون بالقضاء ، ليصل كل صاحب حق الى حقه ، ومنعوا اخذ الرشوة من الناس • وزيادة في حماية الفلاح حددت الدولة الايجارات والجبايات التي يدفعها الفلاح لسيده الاقطاعي ،كما حددت من نفوذ وثروة السادة الاقطاعيين من ناحية اخرى (٣) .

وعلى الرغم من هذه الاجراءات التي قام بها سلاطين الأيوبيين لحماية

---

١ ـ عاشور : المرجع السابق ، ص١٢٨ •
٢ ـ محمد ربيع حسنين : النظم المالية ص٣٤
٣ ـ عاشور : المرجع السابق ، ص ١٢٨

الفلاحين ،فان قيام السلطان الكامل بالمشاركة في الأعمال الاقتصادية كاستخراج المعادن واستثمار الغابات وزراعة قصب السكر أدى الى مصاعب جمة بعد موت الكامل ،بسبب التداخل بين المشاريع الحكومية والخاصة ، اضافة الى الاختلاس الذى قام به الموظفون عند تراخي الادارة وتغاضيها عن الموظفين .

أشهر المزروعات القمح والشعير والفول والحمص والجلبان والعدس والكتان والقرط والبصل والثوم والترمس والكمون والكراوية وقصب السكر والبطيخ واللوبيا والسمسم والقطن والباذنجان والفجل والخس واللفت والكرنب . وكذلك انتشرت زراعة الكروم والنخيل والفاكهة والأرز والذرة (١) كما ربيت الأغنام والجاموس والبقر ، وترتب على اربابها دفع مبالغ معينة مقابل استهلاكها للمراعي .

ـ الصناعة :

اهتم الأيوبيون باستخراج المعادن . فاستخرجوا الزمرد من موضع قرب قوص (٢)، وحمل ما يتحصل منه الى الخزائن السلطانية . وكذلك استخرج الشب من مواضع بصحراء الصعيد ، حيث تولى الديوان السلطاني استخراجه وبيعه دون سواه . وكان اهتمام الديوان به لكونه من المواد التي يهتم التجار الأجانب في الحصول عليه (٣)، كما كلف الديوان السلطاني ضمناء لاستخراج النطرون من الطرانة والفاقوسية لحسابه (٤) .

---

١ ـ الباز العريني : المرجع السابق ص١٨٧
٢ ـ القلقشندى : صبح الأعشى ،جز٣ ، ص ٤٥٩
٣ ـ ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٣٢٨
٤ ـ ابن مماتي : المصدر السابق ، ص ٣٣٤

تنقسم الصناعة في مصر في ذلك العصر الى صناعة زراعية تعتمد على خامات محلية ، ومن قبيل ذلك صناعة المنسوجات والزيوت والعطور ، وعلى صناعات معدنية غالبا ما تكون مستوردة من الخارج ، تركزت خاصة في تنيس ودلاص.

تركزت صناعة النسيج في بعض المناطق مثل تنيس ودمياط والبهنسا واخميم واسيوط . وقد بلغ عدد الأنوال في تنيس نحو خمسة الاف نول (١) . وقد أنتجت هذه المناطق أفخر المنسوجات الحريرية والكتانية والقطنية والصوفية . كما اشتهرت مدينة الفسطاط بصناعة نسيج خاص عرف باسم الفستيان كانت له شهرة خاصة في غرب اوربا في تلك العصور (٢) .

ومن الصناعات الأخرى انتشرت صناعة استخراج الزيوت من السمسم والخردل والكتان والقنب والخس. وقد استفيد منها في الاضاءة وفي صناعة الصابون (٣) . كما كانت صناعة استخراج السكر من قصب السكر من أهم الصناعات . وكانت كمياتها كافية للاستهلاك المحلي الكبير . ويغطي صناعة الحلوى الواسعة الانتشار ، كما كان كافيا للتصدير الى الخارج . وقد اتبعت الحكومة الأيوبية سياسة الاحتكار في عصر قصب السكر ، فحتمت على المشتغلين بهذه الصناعة عصر القصب في معاصرها العديدة المنتشرة في سائر الاقاليم (٤) .

انتظم ارباب الحرف في نقابات تولى كل منها شيخ . وعالجت كتب الحسبة الطرق والأساليب التي تتخذها الحكومة للاشراف على هذه النقابات ، كما

---

١ — مرزوق : الزخرفة المنسوجة ، ص ٣٣ — ٣٤

٢ — عاشور : المرجع السابق ، ص ١٢٩

٣ — الباز العريني : المرجع السابق ، ص ٢٠٠

٤ — الباز العريني : المرجع السابق ، ص ٢٠٠ — عاشور : المرجع السابق ، ص ١٢٩

تتوافر المواد الغذائية في الأسواق • وتعدل الأسعار • ويتفقد المحتسب الأسواق ،ويقف على ما اتخذه أرباب الحرف من أساليب الغش ، ويحاول منعها ، ويعاقب من يرتكب هذه المخالفات [١] •

ـ التجـــارة :

نشطت التجارة بين بلاد الشام ومصر منذ توحدنا في عهد الدولة الزنكية ، على الرغم من سيطرة الصليبيين على حصني الكرك والشوبك وزاد حجم المبادلات التجارية بشكل خاص بعد ان استعاد صلاح الدين هذين الحصنين وفرض الأمن في المنطقة •

اهتم صلاح الدين بالتغلب على المشاكل الاقتصادية التي واجهها اثناء تثبيت حكمه في مصر ، وخاصة الأزمة النقدية التي واجهته سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م حيث نفذت العملة الذهبية والفضية من اسواق مصر• وقد أورد المقريزى [٢] نصا للقاضي الفاضل يوضح عمق هذه الأزمة وأثرها على الشعب فقال : (عمت بلوى الفائقة بأهل مصر لأن الذهب والفضة خرجا عنها وما رجعا ،وعدما فلم يوجدا • ولهج الناس بما عمهم من ذلك وصاروا اذا قيل دينار أحمر ، فكأنما ذكرت حرمة الغيور له• وان حصل في يده ، فكأنما ذكرت جاءت بشارة الجنة له) • وقد ساعد على وجود هذه الأزمة ، حركة المقاطعة الأوربية لتجارة المرور عبر الاراضي المصرية ،اثر تحول نشاط التجار الايطاليين الى موانيء الشام بعد قيام الامارات الصليبية •الى جانب نضوب موارد الذهب من مناجمه المعروفة في ذلك الوقت ، اضافة الى ارسال صلاح الدين الأيوبي لكميات منه الى سيده نور الدين ، والى الخليفة العباسي ، فضلا عن توزيع

---

١ ـ الباز العريني : المرجع السابق ،ص ٢٠٠

٢ ـ السلوك : جزء ١ ،قسم ١ ،ص ٤٦

كميات كبيرة بين أفراد أسرته [١] .

وقد فطن صلاح الدين الى خطورة ضعف نشاط التجارة الأوربية في مصر ، وأثرها السيئ على اقتصاد مصر ، وعلى تمويل حركة الجهاد ضد الصليبيين ، ولذلك اتجه على الرغم من كافة الظروف الى الترحيب بالتجار الايطاليين واغرائهم في العودة الى نشاطهم التجارى السابق في الاسكندرية وقد نجحت جهوده في هذا الصدد ، وتجلى ذلك النجاح بالمعاهدات التجارية التي عقدها مع ممثلي البندقية وجنوة وبيزا في سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م [٢] وأثار ذلك العمل موجة من النقد في العالم الاسلامي ، مما دفع بصلاح الدين الى الكتابة الى الخليفة العباسي مبررا عمله [٣] . وأخذ التجار الأجانب منذ ذلك الحين يحرصون على استمرار صلاتهم الطيبة مع حكومة مصر ، وعلى استمرار نشاطهم التجارى معها ،حتى أنهم حذروا سنة ٥٨٧هـ/١١٩٠م ، صلاح الدين من أن فردريك بربروسا يعد حملة صليبية لمهاجمة أملاكه [٤] .

كما أصدر صلاح الدين منشورا لتشجيع التجارة جاء فيه (وخرج أمرنا بكتابة هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر وجميع التجار المترددين اليها والى ساحل المقسم والمنية بأبواب المكوس صادرها وواردها . فيسرد التاجر ويسفر ويغيب عن ماله ويحضر ويقارض ويتجر برا وبحرا مركبا وظهرا ،

---

١ ـ عطية القوصي : تجارة مصر عبر البحر الأحمر منذ فجر الاسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ، رسالة لم تطبع ، ص ١٣٥

٢ ـ احمد دراج : الوثائق العربية المحفوظة في دور الأرشيف الأوربية (مصر الاسلامية) أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ص ١٢٢ ـ
Wiet:op.ct.,pp.307-309

٣ ـ دراج : المرجع السابق ص ١٢٢

٤ ـ الباز العريني : المرجع السابق ، ص ٢٠٣

سرا وجهرا ، لا يحل ماشده ، ولا يحاول ما عقده ، ولا يكشف ما ستره ، ولا يسأل عما أورده وأصدره ، ولا يستوقف في طريقه ، ولا يشرق بريقـــه ، ولا يؤخذ منه طعمة ولا يستباح له حرمة • والذي اشتملت عليه المسامحة فـي السنة من العين مائة ألف دينار مسامحة لا يشوبها تأويل ، ولا يتخونهـــا تحويل ، ولا يعتريها زوال ولا يعتروها انتقال ••• قائمة ما قام ديـــــن القيمة •••) (١) •

استفادت البندقية من المعاهدة التي عقدتها مع صلاح الديـن ، اذ حصلت بواسطتها على اعفاء تجارها من عدة ضرائب مباشرة ومنحتهم حرية مطلقة في الاتجار باللالىء والأحجار الكريمة والفراء (٢) • وحصلت علـى حق تعيين قنصل في الاسكندرية ونائب له في دمياط يرعيان مصالحها في مصر • فضلا عن تعيين قنصل لها في دمشق وبيروت يرعيان مصالحها فـي الشام (٣) ، كما أخذت تصريحا بتشييد كنيسة داخل هذا الفندق وعدد من الحمامات (٤) • كما سمحت هذه المعاهدة للبندقية بحماية الحجـاج الأوربيين في طريقهم الى بيت المقدس ، اضافة الى تشرف قنصل البندقيـــة بمقابلة السلطان عشر مرات في السنة (٥) • كما عقدت جنوة بعد البندقية معاهدة مع صلاح الدين في سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م ، سمح لها بمقتضاهـــا باتخاذ قنصل في الاسكندرية يشرف على تجارها المقيمين في المدينـة وعلى

---

١ — ابوشامة : المصدر السابق ، جز١ ، ص٢٠٥

٢ — Wiet: op. cit.,p 385

٣ — دراج : المرجع السابق ص ١٢٤

٤ — Wiet: op. cit.,p 385

٥ — دراج : المرجع السابق ، ص ١٢٤ — ١٢٥

المترددين عليها • وقد تم تعيين القنصل في الاسكندرية سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٥م [(١)] •

لم تؤد وفاة صلاح الدين الى تغيير في العلاقات ، اذ استمرت في عهد خلفائه • فجدد السلطان العادل المعاهدات مع كل من جمهوريتي بيـزا والبندقية ، تضمنت حماية الحجاج في اراضي السلطان ، ورعاية التجـار البنادقة ومنحهم تسهيلات تجارية في الموانئ المصرية [(٢)] • ولم يضـع العادل قيدا على التجار الأجانب إلا فترة احتدام الحرب مع الصليبيين • فقد أوقف ثلاثة آلاف تاجر أوربي في الاسكندرية سنة ٦١٥هـ/١٢١٩م اثناء الحملة على دمياط ، على حين ان ابنه الكامل فاق تسامحه الوصف ، فقد منح البنادقة الامتيازات حتى اثناء الحرب عند دمياط •

وقد أدت علاقات جمهوريات ايطالية التجارية الجيدة مع الأيوبييـن فترة الحروب الصليبية الى سوء علاقاتهم مع البابا في روما • فأصدر أوامـره بمنع التجارة مع المسلمين • ولما لم يرتدع هؤلاء اكتفى البابا بمنع المتاجرة معهم ببعـض المواد التجارية الصالحة للأغراض الحربية • فأصدر قـرارا بحرمان ومصادرة متاع كل من يبيع للمسلمين الحديد أو الأسلحـة أو الأخشاب التي يجرى استخدامها في العمائر البحرية او بناء السفن • وكـل من يدخل منهم في خدمة المسلمين قائدا لسفينة او مرشدا لها [(٣)] •

---

١ – سامي سلطان سعد : اسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى والجمهوريات الايطالية ، رسالة ماجستير ، القاهرة ١٩٥٨م ، ص٧٦

٢ – عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ٢ ص٩٣٢–٩٣٣ – عفاف صبرة : علاقة البندقية بمصر والشام من بداية القرن الثاني عشر حتى نهاية القرن الرابع عشر ، رسالة لم تنشر ١٩٧٧م ، ص ٨٤ – الباز العريني : المرجع السابق ص٢٠٣

٣ – Wiet: op. cit., p 384

وهكذا يمكن القول بأن التجارة الخارجية كانت نشطة في العصر الأيوبي • فكانت موانئ الشرق الأقصى تصل الى مصر والشام بواسطة التجار الكارمية عن طريق البحر الأحمر خاصة (١) • حيث يصل تجار اوربا وغالبا ما يكونون من الجمهوريات الايطالية ،فينقلونها الى أرجاء اوربا • وكدليل على نشاط التجارة بين الشرق والغرب ، يمكن القول أن عدد السفن الراسية في ميناء الاسكندرية ، التابعة للدول الاوربية في شتاء سنة ٥٨٤هـ/١١٨٧ـ١١٨٨م كان سبع وثلاثون سفينة والمعروف ان فصل الشتاء هو اقل الفصول في النشاط التجاري ، مما يشير الى كثرة السفن وازدحامها في الفصول الأخرى (٢) •

اما التجارة الداخلية ،فلم تكن تقل نشاطا عن الخارجية ، فكانت مدن مصر عامرة بالمتاجر • فقد توسعت اسواق القاهرة بما بناه سلاطين وامراء الأيوبيين فيها • ومن أشهر الأسواق المحدثة فيها سوق المهامزيين (٣) وسوق الجملون الصغير (٤) ، وسوق البلشون ، وسوق السلاح ، وسوق باب الفتوح • كما زخرت مدن مصر الأخرى بالمتاجر • حتى ان ابن جبير وصف مدن مصر في ذلك العصر مثل منفلوط وابي تيج وغيرها ، بأن فيها الأسواق وسائر ما يحتاج اليه من المرافق (٥) • وقد حقق التجار من وراء عملهم في تجارة الشرق أرباحا هائلة وثروات طائلة • فقد بلغت ثروة بعضهم مليون دينار ،والبعض الاخر أضعاف ذلك ،وتعذر احصاء ثروة عدد منهم (٦) •

---

١ ـ عطية القوصي : المرجع السابق ، ص ١٦٤
٢ ـ الباز العريني : المرجع السابق ص ٢٠٢ نقلا عن Heyd
٣ ـ عطية القوصي : المرجع السابق ص١٧٦
٤ ـ المقريزى : الخطط ، جزء ٢ ص ١٠٠
٥ ـ عاشور : المرجع السابق ص١٣١ نقلا عن ابن جبير
٦ ـ عطية : المرجع السابق ص١٦٩

تدفقت متاجر الشرق الأقصى الى المدن الشامية عن طريق الخليج العربي وآسيا الصغرى ومصر (١) . وشكلت مدن الشام الداخلية مثل دمشق وحلب محطات تجارية بالغة الأهمية ، مابين الشرق عامة والساحل الشرقي للبحر المتوسط . وفضلا عن ذلك فان منتجات الشام كانت ذات أهمية فائقة بالنسبة الى التجار الايطاليين ، وبصفة خاصة القطن والسكر والزجاج وغيرها من السلع (٢) .

وحرصا من الجمهوريات الايطالية على الاستفادة من المواد المتاجر بها ، فقد أبرم البنادقة معاهدة تجارية مع صاحب حلب غياث الدين غازي ابن صلاح الدين ،تعهد فيها بتقديم كافة المساعدات الى التجار البنادقة (٣) . وحصلت البندقية بموجب هذه المعاهدة على فندق وحمام وكنيسة في حلب ، وتحددت رسوم الدخول والخروج بنحو ١٢٪ ، ثم خفضت في عهد الملك العزيز الى ٦٪ ، كما منحوا اضافة الى ذلك ضمانات بسلامة ممتلكاتهم في حالة الوفاة او الغرق (٤) . كما أبرم البيازنة معاهد متشابهة ، وكان لجنوة فندق في دمشق وبيروت (٥) .

كانت التجارة تتم ايضا عن طريق الموانئ الساحلية . فقد كانت ناشطة عن طريق ميناء اللاذقية الذى كان في يد العرب ، كما كانت الموانئ الشامية التي احتلها الصليبيون تمتلئ بالتجارات الشرقية الهندية والافريقية ، وأشهرها على الاطلاق عكا وبيروت التي امتلأت مستودعاتها بالمسك من

١ _ كلود كاهن : تجار القاهرة الأجانب في عهد الفاطميين والأيوبيين ، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ص ٨٧١_٨٧٢
٢ _ زيتون :العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، طبعة دار دمشق ١٩٨٠ ، ص ١٨٨
٣ _ زيتون : المرجع السابق ، ص ١٩٢
٤ _ الباز العريني : المرجع السابق ص ٢٠٤ نقلا عن Heyd
٥ _ Heyd: History du Commerce., p II., 432

التيبت والفلفل والقرفة وجوز الطيب والقرنفل والند والكافور والعاج وسائر منتجات الهند ، وكذلك بمنتجات افريقيا من عاج وغيره ، ومنتجات بلاد العرب مثل البخور والتمر والنيلة واللؤلؤ [١] • وقد عجب ابن جبير من هذا الأمر حين زار بلاد الشام • وأشار الى هذه الحقيقة بقوله : (ومن أعجب ما يحدث في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين [٢] •

كانت البضائع المتاجر بها تدفع ضرائب يتولى تحصيلها الديوان • وكانت ضريبة الوارد تؤخذ على البضائع التي تباع فعلا • أما التي لم تجد لها سوقا في البلاد فلابد فع عنها أربابها ضريبة وارد ، ويسمح لهم بإعادة تصديرها دون دفع رسوم ، على أن لا تكون السلعة حديدا أو خشبا اوقارا ، اذ يتحتم عندها بيعها للحكومة بسعر السوق [٣] • اما ضريبة الصادر فيجرى تحصيلها على جميع السلع التي يشتريها التجار الأجانب من داخل البلاد [٤] •

— النقـــود :

سك صلاح الدين الأيوبي منذ أسقط الخلافة الفاطمية نقودا باسم سيده نورالدين زنكي والخليفة المستضيء العباسي [٥] • كذلك سك دنانير مصرية عليها اسم الملك الصالح بن نورالدين [٦] • ثم ضرب صلاح الدين

---

١ — Wiet : op. cit., p 384
٢ — زيتون :المرجع السابق ص١٩٠ — عاشور :المرجع السابق ص١٣٠
٣ — ابن مماتي :المصدر السابق ص٣٠٦
٤ — سامي سعد سلطان :أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الادنى والجمهوريات الايطالية ص ١١٨
٥ — محمد ابو الفرج العش :مصر ،القاهرة على النقود العربية الاسلامية ،الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ص ٩٢٢ـ٩٢٣
٦ — ابن الأثير :المصدر السابق ،جز١١ ص١٥٢

السكة باسمه شخصيا بعد اعلان سلطنته في مصر وبلاد الشام وباسم الخليفة العباسي (١) . ولما ألمت بالعملة المصرية ضائقة في نهاية القرن السادس الهجري ،عمل صلاح الدين على رفع قيمتها ، واتخذ بعض الاجراءات الكفيلة بذلك (٢) . فأمر في سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م بسك درهم تكون نسبة الفضة فيه ٥٠٪ من وزنه ،فأصبح الدينار يساوي تسعة دراهم ، واستمر بقاء هذه الدراهم حتى سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م (٣) .

كما سك السلطان الكامل الأيوبي دينارا نقيا كانت نسبة الذهب فيه ١٠٠٪ ، كذلك سك درهما جديدا كانت نسبة الفضة فيه ٦٦٪ من وزنه (٤) .

وانتشرت في عهد الملك الكامل الفلوس النحاسية . وكانت قيمتها متغيرة . ففي سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م كان الدينار يساوي ٤٥ فلسا ،ثم وصلت قيمته بعد مدة وجيزة وفي نفس السنة الى ٨٠ ثم ٩٠ ثم ١٢٠ فلسا . مما دعا الملك الكامل الى اصدار مرسوم يحظر فيه التعامل بالعملات النحاسية كذلك جدد خليفته الملك العادل الثاني نفس قرار الحظر سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م (٥) .

٣ ـ الحياة الاجتماعية :

كان لظروف الحرب الصليبية أثر كبير على الحياة الاجتماعية زمن

---

١ ـ ابن بعرة : كشف الاسرار العلمية تحقيق عبد الرحمن فهمي : القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٢٦

٢ ـ المقريزي : السلوك ، ح ١ ، القسم الأول ، ص ٦

٣ ـ العش : المرجع السابق ص ٩٢٢ـ ٩٢٣

٤ ـ عطية : المرجع السابق ،ص ٢٤٠

٥ ـ عطية : المرجع السابق ،ص ٢٤١

السلطنة الأيوبية • فقد تغلبت فكرة الحرب والجهاد المقدس على أحاسيس الناس وعلى السلاطين أنفسهم • فلم يعد هناك متسع من الوقت لدى الجميع للتوسع في حياة الترف والقيام بالاحتفالات كتلك التي سادت عند أسلافهم الفاطميين وخلفائهم المماليك • فالمال والجهد والوقت كلها أمور مدخرة وموجهة لقتال الصليبيين • واهتمام صلاح الدين وجه منذ أول أدوار سلطته الى بناء القلاع والأسوار والحصون والمدارس • فقد بنى في القاهرة وحدها قلعة الجبل وسور المدينة ، اضافة الى تحصينه للثغور الأخرى كدمياط والاسكندرية ، الى جانب القلاع التي بناها في الشام (١) •

وقد وصف لنا ابن شداد صلاح الدين الأيوبي وصفا دقيقا وصور لنا اهتماماته في حياته ، وكلها تشير الى نوع الحياة التي كان يحياها • ومما قاله : (كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما • بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا في آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا الى من يذكره ويحث عليه • ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه ، وقنع في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة) (٢) • ولم يكن اهتمامه بمجاهدة الأعداء تتوقف عند هذا الحد ، بل كان يهتم باخبار من سبقه من المجاهدين ، ليجعلهم قدوة له • ويحب ان يعلم ما قيل في الجهاد قبله • فقد ألف له ابن شداد كتابا ، جمع له فيه اداب القتال ، وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روى في فضله ، وشرح له غريبها • وكان يطالعه دائما ، حتى أخذه منه ولده الأفضل (٣) • وكان لا يبالي بركوب المخاطر

---

١ — عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص١٣٢
٢ — سيرة صلاح الدين الأيوبي ، ص٢١
٣ — ابن شداد : المصدر السابق ص٢١

من أجل دفع غائلة الفرنجة • وقد وضح ذلك لابن شداد في يوم كان البحر فيه هائجا هيجانا شديدا ، وموجه كالجبال يخيف عظماء الرجال ، ويجعلهم يرفضون ركوبه مقابل ملك الدنيا بكاملها • قال صلاح الدين لابن شداد وهو ينظر الى موج البحر : (في نفسي أنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد وأوصيت ، وودعت ، وركبت هذا البحر الى جزائرهم ، أتتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت) (١) •

وبذلك يمكن القول أن حركة الجهاد كان لها تأثير كبير على الحياة الاجتماعية في العهدين الزنكي والأيوبي • فقد دعت هذه الحركة الى اسلام سلفي على صورته في صدر الاسلام دون بدع ولا جدل • وكان عقاب من يظهر شيئا منها أليما • ومن ذلك ما يذكره صاحب الروضتين عن انسان يعرف بيوسف بن آدم ، يعيش في دمشق • أظهر الزهد والتنسك ، والتشبيه ، وجمع حوله أتباعا • فبلغ امره الى نورالدين زنكي ، فأحضره وأركبه حمارا ، وأمر بصفعه • فطيف به في البلد جميعه ، ونودي عليه هذا جزاء من أظهر في الدين البدع • ثم نفي من دمشق (٢) • وعلى ضوء هذا يتضح لنا السبب الذي جعل الأيوبيين يعارضون العلوم العقلية والفلسفية (٣) • حتى أن من يتعرض للفلسفة والمنطق وعلم الكلام كان ينفى أو يعزل عن التدريس ومثالنا على ذلك أن سيف الدين الآمدي (٥٥٠ – ٦٣١ هـ) مدرس المدرسة ،

---

١ – ابن رشد : المصدر السابق ص٢٢

٢ – انظر احمد بدر : الأندلسيون والمغاربة في دمشق ، ابن عساكر ، ص ٣٢٨ نقلا عن الروضتين ص٢٤

٣ – كحالة : دراسات اجتماعية في العصور الاسلامية ص ٩٣

العزيزية ، شيخ المتكلمين ،عوله الأشرف موسى • وأعلن للملأ أن من يشتغل بعلم الكلام يعرض نفسه للنفي • وطلب من المدرسين أن يشتغلوا بعلم التفسير والفقه والحديث (١) •

وقد فرضت حركة الجهاد وما تبعها الاقتصاد في الحفلات العامة • وتوخي عدم الاسراف في الأعياد الدينية • فقد كان صلاح الدين الأيوبي اول من ركب في مصر بشعار السلطنة دون اسراف ومبالغة • كما نصب الأسمطة السلطانية دون اسراف •

وقد فرض الوضع العام في المنطقة على الحكام والناس الاهتمام بأمر دينهم والتعمق فيه • يدل على ذلك كثرة المصلين والمتعبدين ،وكثرة المؤسسات الدينية وعلى رأسها المساجد • حتى أن مدينة دمشق وحدها حفلت في تلك الفترة بمائتين واثنين وأربعين مسجدا ،اضافة الى المدارس التي كانت الغاية من انشائها دينية ،والخانقاوات والأربطة (٢) • وهي بيوت للعبادة ينقطع فيها الزهاد لمباشرة حياتهم الخاصة ، وفق قواعد معينة • ولم يقتصر ذلك على الرجال وحدهم • بل كان هناك رباطات خاصة بالنساء التزمن فيها حياة الزهد ، وواظبن على العبادة مع الالتزام بشدة الضبط وغاية الاحتراز • وقد استخدمت الرباطات النسائية لغايات اخرى • منها أنها جعلت ملاجئ للنساء المطلقات والأرامل ،صيانة لهن حتى يتزوجن أو يرجعن الى ازواجهن • فكانت هذه الرباطات تقوم بوظيفة اجتماعية هامة جدا الى جانب صفتها الدينية (٣) •

---

١ — النعيمي :المصدر السابق ،جزء ١ ،ص٣٩٣

٢ — عاشور : بعض أضواء جديدة على ابن عساكر والمجتمع الدمشقي في عصره ، ابن عساكر ، ص٢٢٢

٣ — عاشور : المرجع السابق ،ص٢٣٠ — ٢٣١

ومع اهتمام المسلمين في تلك الفترة بالديانة الاسلامية ، فان التسامح والتآخي بين أتباع الديانات السماوية كان ظاهرا • وحظي أهل الذمة بقدر وافر من الحرية في مباشرة طقوسهم وعباداتهم داخل مؤسساتهم الدينية وعاشوا مع اخوانهم المسلمين اخوة متحابين • والدليل على ذلك العدد الكبير من الكنائس التي وجدت داخل المدن ، والتي ظلت محترمة في عصر زحف الصليبيين على بلاد الشام ، وقيامهم بهجمات متكررة على مصر [١] •

نال العلماء والأدباء مكانة محترمة في العصرين الزنكي والأيوبي ، ولعبوا دورا كبيرا في امور الدولة العامة ، ووجهوا النقد للحكام في السياسة وفي المجالس العلمية [٢] • وكان رأيهم مسموعا • فقد زخر مجلس نورالدين زنكي بالعلماء والأدباء • وكذلك كان مجلس صلاح الدين • وكان على رأس الحضور الحافظ بن عساكر صاحب تاريخ دمشق [٣] • وقد اهتم خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين بمجالس العلم ، وحضروا الدروس العلمية في المدارس وهم سلاطين • فقد حضر السلطان المعظم عيسى بن العادل سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م درس القاضي جمال الدين في المدرسة العادلية [٤] •

نالت المرأة حظا وافرا في الحياة الاجتماعية في ذلك الدور ، ولعبت دورا كبيرا كأم ومعلمة • ولم تكن ذلك الانسان المحتجب السلبي الذى لا دور له في الحياة العامة ، ولا عمل له إلا داخل جدران البيوت كما يظن البعض • وللدلالة على ذلك اورد عبارة ابن عساكر التي يذكر فيها شيوخه

---

١ _ عاشور : المرجع السابق ص ٢٣٢
٢ _ انظر فيما سبق الحياة العلمية
٣ _ ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ١٠ _ ابن كثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٢٧
٤ _ النعيمي : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٢٨٨ _ ٢٨٩ _ كرد علي : خطط الشام ، جزء ٦ ص ٨٤

فيقول بأن جملة شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ ونيف وثمانون امرأة ، بمعنى أن ربع شيوخه كانوا من النساء ، وهذه نسبة ممتازة بالنسبة الى ذلك العصر . واذا اضفنا الى ذلك ان كثيرات منهن نلن التقدير ، ادركنا دور المرأة العلمي في هذا العصر ومن ذلك ان ابن عساكر يلقب ملكة بنت داود بن محمد بن سعيد القرطكي ، الصالحة الصوفية ، بالعالمة (١) . وكانت النساء العالمات اللواتي تصدين للتدريس يلقين دروسهن إما في المسجد الجامع أو في البيوت ، أو في أماكن مخصصة (٢) .

كانت المرأة تتفقه وتصل الى مرتبة العلماء في البيوت او في المساجد . فغالبية النساء اللائي اشتهرن بالعلم والدين نشأن في بيوت علم ودين (٣) ، وكنّ يرتحلن في طلب العلم . ويحبسن الأوقاف على دور العلم ، وبعضهن سابق الرجال في هذه المآثر (٤) . كما شاركت المرأة في تيار التصوف الذى أخذ يشتد تدريجيا في تلك المرحلة ، وشاركت في الحياة العامة وفي النشاط السياسي (٥) . ومع كل هذا فان المرأة لم تكن تخرج في الأسواق مبهرجة . وكان خروجها على العموم لحاجة ضرورية . فقد وصف ابن جبير النساء بالتحشم، وخص منهن نساء الصعيد فقال بأنهن مصانات ويلتزمن بيوتهن ، ولا تظهر احداهن في زقاق من أزقتها البتة (٦) .

---

١ ـ عاشور : المرجع السابق ص ٢١٩

٢ ـ انظر ظافر القاسمي : المرأة في تاريخ ابن عساكر ، ابن عساكر ص ٦٢٥ ـ عاشور : المرجع السابق ص ٢١٨

٣ ـ عاشور : المرجع السابق ص ٢١٩ ـ ٢٢٠

٤ ـ القاسمي : المرجع السابق ، ص ٦٢٧

٥ ـ عاشور : المرجع السابق ص ٢٢١ ـ ٢٢٢

٦ ـ الرحلة ، ص ٤٠

ومن الظواهر الهامة في المجتمع في هذه الفترة ، ازدياد أهمية العنصرين التركي والكردي ، اللذين اصبحا القوة الضاربة للاسلام ، وجنوده المدافعين عنه وعن أرضه ومصالحه (١) مع عدم نكران دور العنصر العربي.

كثرت الأوقاف في تلك الفترة كثرة واضحة ، وقد عبر ابن جبير عن كثرة الأوقاف الموقوفة على المنشآت الدينية في دمشق بقوله : (ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين وأرض بيضاء ورباع ، حتى أن البلدة تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيها • وكل مسجد يستحدث بناؤه ، أو مدرسة أو خانقة ، يعين له السلطان (صلاح الدين) أوقافا تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها •••) •

كانت الأوقاف تضمن موردا ثابتا للمنشآت يضمن لها البقاء والاستمرار في أداء رسالتها دون خشية العوز والافلاس • وكان لهذه الأوقاف ادارة تشرف عليها ،يرأسها متولي الأوقاف،الذى كان يشرف على أوقاف المسلمين ويسهر على انفاق أموالها في الجهات المخصصة لها (٢) •

ومن المؤسسات الاجتماعية التي كثرت في ذلك الوقت السقايات (موضع السقي) أو ما عرف باسم السبيل •وقد كثر هذا النوع من عمل الخير بوازع من شعور ديني عميق ، في كثير من المدن الاسلامية وخاصة المدن الدينية كمكة وبيت المقدس• وفي الخانات والمحطات والنزل الواقعة على طريق المسافرين والتجار (٣) •

أما عن تصميم وعمل هذه السقايات ،فيمكن القول بأنه عبارة عن صهريج

---

١ ــ عاشور : المرجع السابق ص ٢١٧

٢ ــ عاشور : المرجع السابق ص٢٢٤

٣ ــ عاشور : المرجع السابق ص ٢٢٥ــ٢٢٧

تحت الأرض يملأ بالماء عن طريق الأنهار والقنى المنتشرة في أنحاء المدينة ، والتي وقفت عليها أوقاف معينة ، ينفق منها على صيانتها • وفوق هذا الصهريج غطاء من الرخام أو الحجر أطلق عليه اسم خرزة • وربما كانت السقاية فوق بئر ،ثم فوقها المزملة لتوزيع الماء على الراغبين في الشرب • ويقوم الساقي أو المزملاتي برفع الماء من الصهريج او البئر ،فيجرى الماء الى نوافذ ربطت بقضبانها كيزان بواسطة سلاسل ، ليتمكن بواسطتها طالب الماء من الحصول على حاجته • وقد وضعت لهذه السقايات أنظمة ثابتة ، تتضمن سلامة صحة الساقي ونظافة الكيزان المستخدمة في الشرب ،وتحديد اوقات العمل فيها ، وتزويد الخزانات المقامة عليها بالماء • وقد امتدت العناية بتوفير ماء الشرب لتشمل الدواب الذى كان اعتماد الانسان عليها في الحل والترحال ، فانشئت لها أحواض لتشرب منها (١) .

تميزت هذه الفترة بكثرة الحمامات العامة ، ذلك ان الحمامات الخاصة لم تكن موجودة الا في قصور الحكام والعظماء ، وقد وصف البغدادى حمامات القاهرة فقال : انه لم يشاهد في البلاد التي زارها أتقن منها صنعة واحكاما لما امتازت به من أرض مكسوة بالرخام الجميل ، وأحواض واسعة يجرى فيها الماء الساخن والبارد ، ومقاصير بأبواب للمستحيين من الخاصة ،حتى لا يختلطوا بالعوام ولا يظهروا على عوراتهم (٢) .

كان في دمشق وحدها مائة حمام على رأى ابن جبير • وكثرة الحمامات في

---

١ ـ عاشور : المرجع السابق ص ٢٢٨

٢ ـ البغدادى : الافادة والاعتبار ،في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، طبع حجر بالقاهرة ، ص ٣٩

هذه المدينة ظاهرة اجتماعية لها دلالتها • فالمريض يحتفل احتفالا كبيرا بدخوله الحمام ، اذ يأتي ذلك اعلانا لشفائه • والعروسان يدخل كل منهما الحمام قبل حفل الزفاف ،فيتم ذلك في حفل كبير يعتبر من الأعياد العائلية الرائعة • ويغادر الواحد منهما الحمام في موكب رائع يحضره الأهل والأحباب •

ويعتبر الحمام بالنسبة للنساء مكان اجتماع عام يتناقلن فيه اخبار الناس واسرار المجتمع • وتصطحب المرأة معها أفخر ثيابها وحليها لتلبسها بعد الاستحمام ،فتقع المفاخرة والمباهاة • وقد وضعت لهذه الحمامات ضوابط وقواعد تضمن سلامة المترددين عليها وراحتهم (١) •

كان الاشراف على الحمامات العامة يقع على المحتسب ،فيلزم قيمتها ، بغسلها وكنسها وتنظيفها • وذلك بلاطها ،وغسل الخزانة التي يجتمع بها الماء • ويكلفه باشعال البخور في الحمام مرتين في اليوم • ويمنع الأساكفة من صبغ الجلود في الحمام ، فان الناس يتضررون برائحة الدباغة • كما يمنع المجذوم ومن به برص من الدخول اليه ، ويتعهد الناطور بحفظ ثياب الناس ،فان ضاع شيء منها التزم بدفع التعويض عن ذلك (٢) •

كثرت في ايام الدولتين الزنكية والأيوبية الفنادق والخانات والقيساريات فالفندق مؤسسة مخصصة لنزول التجار ، تتألف من عدة طوابق • ففي الدور الأرضي توجد المخازن والحوانيت التي تطل على فناء داخلي فسيح ،

---

١ ــ عاشور : المرجع السابق ص ٢٢٨ــ ٢٣٠

٢ ــ الشيزرى : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ،نشر العريني ، القاهرة ١٩٤٦ ،ص ٨٧ــ ٨٨

يسمح بتعبئة البضائع وتفريغها • بينما تضم أدواره العليا مساكن للتجــار يناموں فيها ويغلقوں غرفهم بأقفال روميه [١] •

كانت الفنادق من أجل التاجر الركاض الذى ينتقل من بلد الى آخر ، ويعتمد على الحركة والرحلة في نقل البضائع من موضع الى آخر• ولذلــك كانت هذه المؤسسات مكتملة المرافق المعيشية يجتمع فيها التاجر بمن يهمه الاجتماع بهم من اخوانه التجار وغيرالتجار ، ويجد فيها ما يتوق اليه مـــن طعام وماء للاستحمام ، ومكان امين لايداع ما معه من أموال وغيرها [٢] • كما احتوى كل فندق على كنيسة صغيرة ، وفرن لصناعة الخبز ، وحمام ، وقاعة خاصة صرح لهم فيها بشرب النبيذ [٣] •

كان لكل جالية من الجاليات الأوربية فندق خاص بها في مدينـــة الاسكندرية [٤]، كما كان هناك فنادق لتجار الشام والمغرب ولتجار الكارم على طول طريقهم التجارى [٥] • ولم يكن يحق للأجانب ملكية الفنادق بل كانت ادارة الجمارك بالموانى• (الديوان) هي الهيئة التي تشرف على هذه الفنادق ، وتكلف بالسهر على سلامتها ودفع ايجارها واصلاحها• ويشرف على كل فنـــدق موظف يعرف بالفندقي ، تختاره الجالية التي يتبع لها الفندق • وهو الذى يمثلهم أمام السلطات [٦] •

أما الخانات فمفردها خان ،وهو مبنى ضخم محتوى على مجموعة مـــن

---

١ ــ آدم ميتز : الحضارة الاسلامية ، جزء١ ص ٣٢٧
٢ ــ عاشور : المرجع السابق ، ص٢٣١
٣ ــ سامي سعد : المرجع السابق ص ١١٢
٤ ــ كلود كاهن : المرجع السابق ص٨٧٢
٥ ــ عطية : المرجع السابق ، ص١٨٩
٦ ــ محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة ص ١٥٥ ــ ١٥٦

الحوانيت الكبيرة والصغيرة ، ومستودعات للبضائع • ويتوسط الخان فناء كبير على هيئة رواق مغطى ، حيث يحفظ التجار بضائعهم • والخان كلمة فارسية الأصل ، قام ببنائها السلاجقة في البداية في أطراف المدن وعلى الطرق الرئيسية للبريد والتجارة ، لاستراحة التجار [١] • وقد تشيد الخانات لأعمال الخير ، لإيواء المسافرين وابناء السبيل [٢] •

أما القيسارية فتتكون من مجموعة من المباني العامة بها حوانيت ومصانع ومخازن ، وأحيانا مساكن • وبها كذلك أروقة ، أنشأها التجار وكبار رجال الدولة [٣] • وكانت تنشأ للتجار الأجانب على اختلافهم ، غير أن التجار الأوربيين كانوا يفضلون الإقامة في فنادقهم [٤] • وكان بعض القياسر مساجد لتجار المسلمين ويعلوها رباع ذات مساكن ، خصصت للصناع والتجار مقابل أجر معين •

أما الأسواق فكانت في الغالب متخصصة • ففي دمشق كان هناك سوق للأساكفة العتق وآخر للحذائين • وكان يحرم على أحدهما ان يتعاطى عمل الآخر ، فيحرم على الاسكافي أن يصنع حذاء جديدا ، ويحرم على الحذاء أن يصلح حذاء قديما [٥] • وكان في دمشق سوق كبير للزهور والورود هو سوق الريحان [٦] • وعلى العموم فان الاسواق كانت حافلة بكل مطالب المجتمع من مأكولات ومنتجات وملابس وغيرها • [٧] •

---

١ ـ نعيمزكي : طرق التجارة ص٢٥٦ ـ عطية : المرجع السابق ص١٨٦
٢ ـ المقريزى : خطط ، جز٢ ص٩٢
٣ ـ البراوي : حالة مصر الاقتصادية ص٢٧٢
٤ ـ سرور : تاريخ الحضارة ، ص١٥٦
٥ ـ عاشور : المرجع السابق ص ٢٣١ـ٢٣٢
٦ ـ عاشور : المرجع السابق ، ص ٢٣٢
٧ ـ عطية : المرجع السابق ص ١٩٥ـ١٩٧ ومن ص١٩٨ حتى ٢٠٠

كان على المحتسب زمن الأيوبيين النظر في الأسواق والطرقات ، فيراعي ما ينبغي ان تكون عليه الأسواق من الارتفاع والاتساع ،وان يكون بجانبي السوق افريزان يسير عليهما الناس في زمن الشتاء اذا لم يكن السوق مبلطا. كما كان عليه ان يلاحظ عدم خروج الدكاكين عن الرسم الموضوع لها . وأن يكون لأهل كل صنعة سوق يختص بهم . فمن كانت صناعته تحتاج الى استخدام النار كالخباز والطباخ والحداد ،فيحسن ان تبعد حوانيتهم عن حوانيت أرباب الحرف الأخرى مثل العطارين وباعة الملابس . كما كان عليه أن يعرف ما يرد الى الأسواق من السلع ، وما تستقر عليه الأسعار . فيجعل لكل صنعة عريفا من صالح أهلها ،خبيرا بصناعتهم ، بصيرا بغشوشتهم ، مشهورا بالثقة والأمانة كيما يتولى الاشراف عليهم (١) .

اهتم الأيوبيون بالأغراب الذين يفدون الى البلاد .وقد أفاض ابن جبير عن الرعاية التي يلقاها هؤلاء ، سواء في بلاد الشام او مصر . ونصح متغربة المغرب بسكنى دمشق (٢) . كما ذكر عناية صلاح الدين بالأغراب الذين يفدون الى الاسكندرية وغيرها من مدن مصر لطلب العلم . اذ أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا الى ذلك. ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم . ووكل بهم اطباء يتفقدون أحوالهم . وكذلك جعل لابناء السبيل من المغاربة جرايات من الخبز وغيره أثناء مرورهم بمصر في طريقهم الى الحج (٣)

كان الاهتمام بالبناء في هذه الفترة عاما . فعلى حين اهتم السلاطين بالمنشآت العامة ،فانهم لم ينسوا الخاصة ، وشاركهم الشعب في ذلك .وعلى

---

١ ـ الشيزري :المصدر السابق ،ص١٢ـ١٣
٢ ـ الرحلة ص٢٠
٣ ـ ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤٦

سبيل المثال فان مدينة القاهرة زخرت بالدور الضخمة والمنازل الفسيحة والأسواق الممتدة والخوانق الفاخرة • وكذلك كانت مدينة دمشق والاسكندرية • وغلب على المباني الآجر مع استخدام الحجر في عمارة المساجد والمدارس وبيوت الكبار • كما ارتفعت بعض الدور من طبقتين الى اربع طبقات • وفي كل طبقة مساكن كاملة بمبانيها ومرافقها (١) •

وقد حفظ لنا البغدادى الذى زار القاهرة في العصر الأيوبي شيئا عن النشاط العمراني في المدينة • فاشار الى انه اذا أريد بناء ربع أوقيساريه، تولى ذلك العمل مهندس • فيقسم الأرض الى اجزاء ، ويعمر كل جزء على حده ، بحيث يجرى الانتفاع به والسكن فيه • ويستمر العمل على هذا النحو حتى تتم عمارة الأجزاء كلها • كما ذكر الاهتمام بالمجارى العامة وايصالها الى الماء الجوفي . فقد كان أرباب الدور ، يحرصون على أن يمعنوا في حفر المرحاض حتى يصل الى الماء الجوفي • فلايحتاج الى الكسح (٢) •

لقي الفقراء والغرباء اهتماما كبيرا زمن الأيوبيين ، فمن ذلك ان صلاح الدين تعهد ابناء الفقراء بتعليم القرآن الكريم ، وأجرى عليهم جراية كافية (٣) • كما تعهد سائر من يلجأ الى المساجد والمشاهد بالقرافة في القاهرة من الغرباء والصلحاء والفقراء • كما جعل جامع ابن طولون مأوى للغرباء المغاربة وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر • وجعل أحكامهم لأنفسهم يختارون واحدا منهم يحتكمون اليه فيما يخصهم (٤) • كما نال الغرباء في

---

١ — القلقشندي : صبح الأعشى ، جزء ٣ ص ٣٥٣
٢ — عبد اللطيف البغدادي : المصدر السابق ، ص ٣٩
٣ — ابن جبير : المصدر السابق ص ١٩١
٤ — ابن جبير : الرحلة ص ٥٢

الشام اهتماما ووجدوا الرعاية والعناية • ووجدوا أعمالا كثيرة تعينهم (١) •

ازدادت ظاهرة التصوف وضوحا في العصر الأيوبي ، وكثر بناء منازل الصوفية التي عرفت باسم الخانقاه وجمعها خانقاوات • ويقال بأن الخانقاه الصلاحية التي عرفت أيضا باسم خانقاه سعيد السعداء (٢) هي أول خانقاه عرفت بمصر • وقد وقفها صلاح الدين على المتصوفة منذ سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٣م، وولى عليها شيخا عرف بشيخ الشيوخ •ووقف عليها الأوقاف للانفاق على من فيها من الفقراء • ورتب للصوفية في كل يوم طعاما ولحما وخبزا • وبنى لهم حماما بجوارهم (٣) • وقد شرط ان من مات من الصوفية وترك عشرين دينارا فما دونها كانت للفقراء • ولا يتعرض لها الديوان السلطاني • ومن أراد السفر منهم جرت اعانته على ذلك (٤) •

وقد ترك الصوفية أثرا كبيرا في الحياة العامة ، فكان لصلاتهم يوم الجمعة مراسيم خاصة يحرص الناس على رؤيتها • ففي كل يوم جمعة يخرجون من الخانقاه الصلاحية الى جامع الحاكم لصلاة الجمعة في موكب جميل، ويؤدون فريضة الصلاة في موضع أعد لهم ، ويدعون للسلطان صلاح الدين ،ثم يعودون بنظام الى الخانقاه (٥) •

لم يكن التصوف مجرد ظاهرة دينية بل ظاهرة اجتماعية • وكانت رعاية هذا العنصر والاهتمام به من اكبر دواعي قدوم كثير من الصوفية في هذا العصر من الأندلس والمغرب وغيرها من المناطق الى مصر أحيانا والشام

---

١ ـ ابن جبير : المصدر السابق ص١٩٤ـ١٩٥
٢ ـ كانت دارا منذ أيام الفاطميين مقابل دار الوزارة ، وسكنها الوزير شاور
٣ ـ المقريزى : الخطط ، جزء ٢ ص٤١٥ ـ عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص١١٧ ـ الباز العريني : المرجع السابق ، ص٢١٧ ـ ٤ ـ الباز العريني : المرجع السابق ص٢١٧
٥ ـ المقريزى : الخطط ، جزء ٢ ص٤١٥

غالبا ،فأشاعوا فيها حياة الزهد والتقشف[١] .

الجيش البري والبحري :

ـ الجيش البرى

اهتمت الامارة الزنكية بتشكيل جيشها . فكان في غالبيته يتألف من فرقة نظامية قوامها عبيد أتراك تم شراؤهم وهم صغار ، ودربوا على يد فرسان يحترفون الحرب ، ثم اعتقوا او منحوا اقطاعات عسكرية تغل عليهم ما يعيشون به[٢] . وكان الداعي الى منح الاقطاعات للجند ،هو حاجة الدولة الزنكية الى تجنيد عدد كبير من الجنود بسبب وضع الامارة العام ، وكونها في حالة حرب مستمرة على جميع حدودها ، وخاصة حدودها مع الصليبيين . في الوقت الذى لم تكن مواردها تكفي نسبيا لدفع أرزاقهم . الى جانب الرغبة في ربط الدفاع عن البلاد بالمصلحة الخاصة لأصحاب هؤلاء الاقطاعات . وعلى سبيل المثال يمكن القول أن عماد الدين زنكي أقطع العشائر التركمانية المتنقلة ارضا بجوار حلب يسكونها ويكلفون بالدفاع عنها وعما وراءها ، اضافة الى ملكيتهم للأراضي التي يستعيدونها من الفرنج . وفي ذلك قال صاحب الروضتين متحدثا عن عماد الدين : (ومن صائب رأيه وجيد ، أن سير طائفة من التركمان الايوانية مع الأمير الياروقي الى الشام ،وأسكنهم بولاية حلب ، وأمرهم بجهاد الفرنج ،وملكهم كل ما استنقذوه من البلاد للفرنج ،وجعله ملكا لهم . فكانوا يغادرون الفرنج بالقتال ويراوحونهم)[٣] . ومن أجل ذلك كان عماد الدين يشجع على

---

١ ـ انظربدر : الأندلسيون والمغاربة في دمشق ص٣١٥ـ٣١٨
ـ عاشور : المرجع السابق ص١١٧
٢ ـ حب : ماثر صلاح الدين ،دراسات في حضارة الاسلام ،دار العلم للملايين ،بيروت ١٩٧٤ ص١٠٧
٣ ـ ابوشامة : المرجع السابق،جزء١ ص٤٣ـ٤٤ ـ ابن الأثير :تاريخ الاتابكة، ص٨٠

الاقطاع من دون الأملاك ،فيقول لأصحابه : (فأي حاجة لكم الى الأملاك ، فان الاقطاعات تغني عنها) (١) .

واتخذ الاقطاع شكله النهائي في عهد نورالدين زنكي . إذ أعطس امراء الجند اقطاعات تتناسب في مساحتها وأهميتها مع عدد الجند الذين يقدمونهم لنورالدين ، فقد يكون قطعة ارض فقط ، وقد يشمل مدنا كبرى وحصونا . ويمارس صاحب الاقطاع كل حقوق الادارة في منطقته وخاصة جباية الضرائب سواء كانت نقدية او عينية . وقد اتخذ سجلا بالواجبات المترتبة على اصحاب الاقطاعات من العدة والرجال (٢) ، وكلف المقطع بفلح الأرض وسقايتها على الوجه الأكمل (٣) اضافة الى حفظ الجسور (٤) .

جعل نورالدين الاقطاعات متوارثة من الآباء الى الأبناء شرط أن يؤدي هؤلاء الورثة نفس الخدمات التي كان يؤديها المقطع الأول .وقد مدح ابن قاضي شهبة هذه الطريقة فقال في ذلك : (ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده . فانه كان إذا توفي أحدهم وخلف ولدا أقر الاقطاع عليه . فان كان كبيرا استبد بنفسه ، وان كان صغيرا رتب معه رجلا عاقلا يثق اليه ، فيتولى أمره الى ان يكبر . فكان الأجناد يقولون هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد ، فنحن نقاتل عليها . وكان ذلك سببا عظيما من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب) (٥) . واضافة الى ذلك فانه لم يكن يكل الجند الى الأمراء ،بل يتولاهم بنفسه ويباشر خيولهم وسلاحهم ، مخافة أن

---

١ ـ ابوشامة :المصدر السابق ، جزء ١ ص٤٣ ـ ابن الاثير :تاريخ الأتابكة ص ٧٧
٢ ـ ابن الاثير :المصدر السابق ص ١٦٩
٣ ـ ابن مماتي : المصدر السابق ص٣٦٦
٤ ـ ابن مماتي : المصدر السابق ص٢٣٢ـ٢٣٣
٥ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص٣٠

أن يقصر الأمراء في حقهم ويقول : نحن في كل وقت في التنفير ، فاذا لم يكن أجنادنا كاملي العدة دخل الوهن على الاسلام) [١] .

كان الديوان يشرف على تنفيذ الخدمات المترتبة على الأمير المقطع للسلطان سيده ، كما كان يثبت اسماء أجناد كل أمير وسلاحهم خوفا من حرص بعض الأمراء وشحه أن يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العدد [٢] .

وكان التقاعس في المعركة والاحجام عن التضحية يستوجب نزع الاقطاع من المقطع ، والأمثلة على هذا كثيرة . ولنا فيما أورده ابن الاثير [٣] في حديثه عن الحملة الصليبية الثانية ، وحين فكر بعض الأمراء بالعودة خوفا من الخطر الذي يحيق بهم ، نهض شرف الدين بزغش أحد أمراء نورالدين ، وصاحب شقيف منبها الى هذه النقطة التي دفعت الشجاع الى زيادة اقدامه ، والمحجم الى التفكر والتبصر في نتيجة فراره فقال : (من يخاف القتل والأسر فلا يخدم الملوك ، بل يكون في بيته مع امرأته . والله لئن عدنا الى نورالدين من غير غلبة ولا بلاد نعذر فيه ليأخذن مالنا من اقطاع وجامكية ، وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه الى يومنا هذا . ويقول : تأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم) .

اهتم الزنكيون بتنظيم جيوشهم وسرعة وصول أخبار عدوهم ، ومعرفة تحركاتهم . لقرب اراضيهم منهم . كما حرصوا على حفظ أسرارهم العسكرية . وقد وصف ابوشامة [٤] عماد الدين زنكي بذلك فقال : (ومن أحسن ارائه أنه

---

١ ـ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ٣٠ ـ ٣١ ـ ابن الاثير : تاريخ الأتابكة ص ١٦٩

٢ ـ ابوشامة : المصدر السابق ، جز ١ ص ٤٤

٣ ـ الكامل في التاريخ ، جز ١١ ص ٣٢٥

٤ ـ ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤٢

كان شديد العناية بأخبار الأطراف ، وما يجرى لأصحابها حتى في خلوتهم، ولا سيما دركاه (بلاط) السلطان [١] • وكان يغرم على ذلك المال الجزيل• فكان يطالع ويكتب اليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره من حــرب وسلم وهزل وجد وغير ذلك• فكان يصل اليه كل يوم من عيونه عدة قاصدين • وكان مع اشتغاله بالأمور الكبار من أمور الدولة لا يهمل الاطلاع على الصغير• وكان يقول : اذا لم يعرف الصغير ليمنع ،صار كبيرا • وكان لا يمكن رسول ملك يعبر في بلاده بغير أمره ،واذا استأذنه رسول في العبور في بلاده أذن له ، وأرسل اليه من يسيره ، ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ولا غيرهـــم • فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولا يعلم من أحوالها شيئا •

لم يكن نورالدين يقل عن أبيه اهتماما بسرعة وصول الأخبار،فاستخدم من أجل ذلك الحمام الزاجل ، وأجرى الجرايات لها ولمربيها • وجعل لــه في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تباد رهم ، فاذا رأوا أو سمعوا أمرا كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر وسرحوه الى المدينة التي هو منهـــا من ساعته ، فتنتقل منه الرقعة الى طائر آخر من البلد الذى يجاورهم فـــي الجهة التي فيها نورالدين ،وهكذا الى ان تصل الأخبار اليه بسرعة كبيرة • وضمن بذلك هجمات الأعداء المفاجئة وغداراتهم • وقد وضح لنا ذلك ابن الاثير [٢] فيما كتبه : (وبنى ايضا الأبراج على الطرق وبين بلاد المسلمين والفرنج ، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادى • فاذا رأوا مــن العدو أحدا ارسلوا الطيور • فأخذ الناس حذرهم واحتاطوا لأنفسهم، فلا يبلغ العدو منهم غرضا • وكان هذا من ألطف الفكر وأكثرها نفعا •••) •

---

١ — ابن واصل : المصدر السابق ، جز١ ، ص١٠٢ حاشية ١

٢ — ابن الاثير : تاريخ الاتابكة ص١٧١

كما وجه نورالدين اهتمامه الى تحصين المدن الشامية لتبقى حصينة في وجه الصليبيين ، ونهض لاعادة هذا التحصين في سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م اثر خراب الأسوار بفعل الزلازل • وكان يقف مشرفا على بنائها ليستعجل الفعلة والبنائين • ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوار كل من بعلبك وحمص وحماه وبارين وحلب ودمشق (١) •

بدا تشكيل الجيش الأيوبي منذ حملة شيركوه الثالثة على مصر • حيث اصطحب معه اليها ألفي فارس من الجند الذين اختارهم من معسكره سيده نورالدين في الشام (٢) وممن جندهم وكانوا حوالي ستة آلاف فارس من التركمان جعلهم تحت أمرة عين الدولة الياروقي (٣) • ويمكن ان يضاف الى هذا العدد عساكر شيركوه الخاصة باعتباره صاحب اقطاع حمص ، وكانوا يتألفون من خمسمائة مملوك كردي (٤) ، اضافة الى أجناد مفيها • وبهذا يمكن القول أن جيش نورالدين المرسل الى مصر بقيادة شيركوه كان يتألف من حوالي تسعة آلاف جندي • وقد شكل هؤلاء الدفعة الأولى •وحين تولى صلاح الدين الوزارة للخلافة الفاطمية وصلته امدادات من نورالدين ، وشكلت هذه القوات نواة الجيش الذى اعتمد عليه صلاح الدين في أعماله العسكرية • ويبدو أن عدد جيش صلاح الدين وصل في سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م الى اثني عشر الف من الفرسان عدا غلمانهم، ذكرهم لنا المقريزى (٥) حين ذكر العرض العسكرى الذى أقامه

---

١ — ابوشامة : المصدر السابق ،جز•١ ، ص١٨٤ — ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جز•١١ ص٢١٨ و ص٣٥٤ •

٢ — ابن الاثير : تاريخ الأتابكة ص٢٤٩

٣ — C.Cahen:La Syrie du Nurd.,Paris 1940.,p 378

— العريني : المرجع السابق ص١٥٠

٤ — ابو شامة : المصدر السابق ، جز•١ ص١٧٣

٥ — المقريزى : الخطط ،جز•١ ص١٧٤

صلاح الدين في السنة المذكورة • على ان الجيش الأيوبي لم يظل على حال واحد من حيث الكثرة العددية طوال العصر الأيوبي • فقد وصل هذا العدد في سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م الى ثمانية آلاف وست مائة وأربعون فارسا بينهم مائة واحد عشر اميرا ويضاف اليهم ستة آلاف وتسعمائة وست وسبعون طواشيا و خمسمائة وثلاث وخمسون اقرغلامية ، ثم انخفض هذا العدد بعد انتهاء مرحلة الجهاد الصلاحي ، وعقد صلح الرملة سنة ٥٨٧ هـ/١١٩١م ، وعاد ثانية الى الازدياد وارتفعت نفقاته في عهد السلطان العادل ومن ثم الكامل حين هددت مصر الحملة الصليبية الخامسة(١) .

ويمكن القول بأن بنية الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين بقيت كما كانت في عهد نورالدين زنكي مع غالبية عنصر الأكراد على الجيش• وذلك لأن التركمان الذين كانوا في جيش أسد الدين شيركوه انسحب غالبيتهم مع فرسانهم احتجاجا على تعيين صلاح الدين في منصب الوزارة• وعوض هذا النقص بما وصل اليه من أمراء الأيوبيين مع جندهم ، اضافة لما ضمه من مجموعات من الجند الفاطمي من عرب كنانة ، والأمراء اصحاب الاقطاعات في عسقلان ،والذين أقاموا في دمياط عقب سقوط عسقلان في يد الصليبيين•كما ضم الى جنده الف وثلاثمائة من الجذاميين ،ثم لم يلبث ان صادر اراضيهم في الشرقية والزمهم بالانتقال الى البحيرة بسبب امعانهم في تكرار تهريب القمح الى الفرنج(٢) .

---

١ ـ عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ١٤١

٢ ـ انظر جب : جيوش صلاح الدين ، دراسات في حضارة الاسلام ،دار العلم للملايين ، ص١٠٨-Wiet: op. cit.,p305

وكانت أشهر فرق الجيش في عهد صلاح الدين الأيوبي الأسدية وهم من الفرسان الأكراد التابعين لعمه أسد الدين شيركوه ، والذين بقوا في خدمته بعد وفاة عمه. كما ألف صلاح الدين حرسا له عرفوا باسم الصلاحية ، جعلهم تحت أمرة أبي الهيجاء (١) .

اهتم صلاح الدين بتنظيم جيشه واقطاعه الاقطاعات، فكان لكل من كبار الأمراء وصغارهم اقطاعات . وكانت تصرف لمماليكهم جامكيه أو عطاء معين ، او تجعل لهم حصص من احدى الاقطاعات ، ونفقات مؤن وعليق . وكان الجند ممن لم تثبت أسماؤهم في دواوين العطاء يعرفون باسم البطالين (٢) . فقد وزع الاقطاعات منذ كان وزيرا في مصر على أهله والأمراء معه (٣) . ثم قام في سنة ٥٦٧ هـ بابطال اقطاعات الأمراء المصريين والعربان والأرمن والعبيد السود ، وخص عسكره بمعظم الاقطاعات (٤) . فكان نصيب والده من الاقطاع منذ وصوله الى مصر ، الاسكندرية ودمياط والبحيرة (٥) . وكان اقطاع البحيرة وحده يدر اربعمائة الف دينار . كما أقطع أخاه توران شاه أقاليم جنوبي الصعيد قوص واسوان وعيذاب ، ووارد ها مائتي الف وستة وستين ألف دينار . ثم زاده في الاقطاع بوش وأعمال الجيزة وسمنود وغيرها (٦) . وعند ما وصل تقي الدين عمر ابن اخيه الى مصر سنة ٥٦٧ هـ/١١٧٢ م ، وكان والد صلاح الدين قد توفى ، تقررت حوالة عساكره في النفقة على كورة البحيرة (٧) .

كانت كلفة نفقات الجيش في العصر الأيوبي كبيرة . فقد وصلت نفقاته

---

١ — ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص١٧٣ — ابن الاثير : الكامل في التاريخ جزء ١١ ص٣٤٤ — ٣٤٥ — Wiet: op. cit., p 305
٢ — جب : المرجع السابق ص٩٩
٣ — ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ص٣٤٤
٤ — حسان : التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٢٧
٥ — ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٨٤
٦ — ابوشامه : المصدر السابق ، جزء ١ ص١١٣ — انظر جب : المرجع السابق ، ص ٩٨
٧ — جب : المرجع السابق ص٩٨

الى ٦٠٠ر٦٧٠ر٣دينار من مجموع المصروفات العامةالبالغة ١٩٠ر٦٥٣ر٤ دينار• وكان راتب الفارس من الطواشية (١) في عهد صلاح الدين يتراوح بين ٧٠٠ـ ١٢٠٠دينار•

كان يرأس الجيش الأمير الكبير ، ويعتبرالقائد الأعلى ، ويأتي بعـد ه الطلب ، وهو الأمير المقدم الذى له علم معقود وبوق مضروب ، وعدة من مائتي فارس الى مائة فارس الى سبعين (٢) • وعلى رأس كل طلب أمير •وعند المسير الى القتال توزع الأسلحة والزرد والنفقات على الجند ، على أن يستحضر كل جندى ما يلزمه من كميات المؤن • وكانت تقام سوق للعساكر لشراء ما يلزمهم قبل الخروج الى المعارك ، ويأخذون من أمرائهم رواتب الاقامات الاقطاعية المعتادة (٣) .

لم يكن صلاح الدين يخرج كافة قواته المرابطة في مصر لمساعدته في حروبه في الشام ،بل كان يترك مالا يقل عن نصف العسكر فيها لحفظ ثغورها • الى جانب انه استطاع بهذه الطريقة أن يبقي في ساحة المعركة مددا من الجند المستعد للقتال ، وأن يعيد من أنهكهم القتال للاستراحة والتجهز من جديد في مصر (٤) .

كما اهتم صلاح الدين ايضا بتحصين مصر عاصمتها وثغورها وتقويتها لتكون أكثر قدرة على الدفاع عن نفسها • ولهذا أمر ببناء سور ضخم كبير يحيط بالقاهرة والقلعة والفسطاط ، يبدأ شمالا عند قلعة المقس المطلة على

---

١ ـ لا تعني هذه الكلمة هنا الخصي بل تعني الفارس الذي ينتمي الى الطبقة الاعلى على حين ان الطبقة الادنى عرفت باسم القراغلامية •انظر جب ص ١١٥ حاشية ٣١ـ٣٢

٢ ـ انظر جب : المرجع السابق ص١٠٠

٣ ـ عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص١٤٢

٤ ـ جب : المرجع السابق ، ص ١٠٣

النهل • وينتهي عند النيل ايضا جنوب مدينة الفسطاط • وقد بني كلــه مــن الحجر • وعلى الرغم من أنه بدئ • ببناء السور منذ سنة ٥٦٦ هـ وصلاح الدين لا يزال وزيرا للعاضد ، فانه توفى قبل ان يتم السور ، فأكمله ابــن أخيــه السلطان الملك الكامل محمد • كما أمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على نهد من نهاد جبل المقطم (١) لتشرف على الدفاع عــن القاهرة وتكون مقرا لحكمها • وقد بدأ في بنائها في سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦ ـ ١١٧٧م ، وسخر فيه عددا كبيرا من أسرى الفرنج في حروبه المختلفــة • وفي سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢ـ ١١٨٣م لم يكن بناؤها قد تم • اذ لم تنته الا في عهد الكامل محمد الذى كان اول من اتخذها سكنا ومقرا لحكمه (٢) • كما نهض بعمارة قلعة تنيس واسوارها ، ورمم سور دمياط ،وسد ما به مــن ثغرات ، ورتب المقاتلة في البرجين بها ، فبلغت النفقة على ذلك ألــف ألف دينار (٣) • وأشرف على اصلاح سور الاسكندرية وحصنها (٤) •

كان الى جانب الجيش الأيوبي في مصر جيش آخر في الشام • وقد تكون هذا الجيش من جند الزنكيين في كل مدينة من مدن الشام • فقد انقســمت قوات نورالدين بعد وفاته بين دمشق وحلب وبعض الامارات الصغيرة مثــل حمص وحماه وحران • وقد قدر عدد الجنود بالنسبة لدمشق وحلب وحمــاه مع الحصون التابعة لها بألف لكل منها وخمسمائة لحمص • أما جند الجزيــرة وديار بكر والموصل فقدر عدد جنودها بحوالي ٦٥٠٠ جندى (٥) • كمــا

---

١ ـ الشيال : المرجع السابق ص٥٠
٢ ـ الشيال : المرجع السابق ص ٥٠ـ ٥١
٣ ـ الشيال : المرجع السابق ، ص ٥٣
٤ ـ الشيال المرجع السابق ، ص ٥٣
٥ ـ جب : المرجع السابق ص ١٠٣ـ ١٠٥ـ الباز العريني :المرجع السابق ص ١٥٧ـ ١٥٩

كانت العساكر النظامية تضم كذلك عددا من الخيالة العرب أبرزهم بنو منقذ أصحاب شيزر (١) .

كانت هذه القوات تشكل مجموع قوات الشام النظامية ، وتزيد عن عشرة آلاف ، وهي غالبا من الرماة وحملة الرماح • وقد ضمت الى جانبها قوات مساعدة من الفرسان والرجالة تجمع حين الحاجة ، وغالبا ما تكون من التركمان • مثال ذلك انه قبل قيام صلاح الدين بالهجوم على قلعة مخاضة يعقوب سنة ٥٧٤هـ/١١٧٩م ارسل الى التركمان وعشائرهم والى الأطراف يجمع منهم الجيوش • وأرسل اليهم الاف الدنانير المصرية لتوزيعها على جموعهم • ودفع لهم نفقات مقابل خدمتهم ، باعتبارهم قوات مساعدة • وأمر بامداد كميات كبيرة من الدقيق لهم ،اضافة الى الحاجيات الأخرى (٢) • كما اعتمد على بدو بعض مناطق الشام - عدا البدو في جنوب فلسطين وشرقي الأردن الذين كانوا مصدر ازعاج دائم - الذين زودوه بامدادات عسكرية لمهاجمة الأعداء • وقد اعتمد عليهم في حروب سنة ٥٧٤هـ/١١٧٩م حيث كان يسيرهم الى صيدا وبيروت ، ليعملوا على حصد غلات العدو ،وما يبرح مكانه حتى يعودوا بجمالهم وأحمالهم موثقة بأثقالها • كما ساهم البدو بتقديم الخيالة والعساكر لصلاح الدين أثناء حروبه النهائية مع ريتشارد قلب الأسد على طريق القدس (٣) .

---

١ - جب : المرجع السابق ، ص ١٠٨

٢ - جب : المرجع السابق ، ص ١٠٧ - الباز العريني : المرجع السابق ، ص ١٦١

٣ - جب : المرجع السابق ، ص ١٠٩

وقد استخدم صلاح الدين عنصر الصناع ، كالحجارين الذين كانـوا يقومون على المجانيق والعرادات • والنقابون الذين كانوا ينقبون تحـت الأسوار ، وترد نسبتهم في النصوص غالبا باسم " النقابون الحلبية " • وكان الخراسانية يحاربون في الدبابات ويرد معهم اسم الجاندرية ايضـا • ويمكن أن نضيف الى هؤلاء جميعا المشرفون على النار التي ترمى على أبراج العدو والمحاصر (١) •

كانت الدروع والأسلحة المودعة في الزردخانة توزع على العساكـر ، وتلبس قبل القتال مباشرة • ولذلك فان الهجوم على حين غرة يؤدى الـى مفاجأة العسكر فعلا ،وهم عزل دون سلاح • ولم يكن الفرسان يسـتطيعـون الا بتعاد عن أثقالهم التي كانت تضم ميرتهم ودروعهم • وكانت ترسل احيانا جرائد (حملات صغيرة) بدون أثقال وبدون دروع ثقيلة للفرسان (٢) •

- الجيش البحري

كان الاسطول في حالة سيئة عند قيام الدولة الأيوبية ،بسبب الخلـل الذى أصاب جميع أجهزة الدولة في أواخر العصر الفاطمي ،اضافة الـى فقدان جزيرتي قبرص وكريت وهما قاعدتان أماميتان للأساطيل الاسلامية في شرقي المتوسط • وزاد في ضعفه استيلاء الصليبيين على معظم موانـى الشام (٣) •

أدرك صلاح الدين أهمية وجود اسطول قوى بالنسبة لموقفه مـن

---

١ - جب : المرجع السابق ، ص
٢ - جب المرجع السابق ص ١١١
٣ - المقريزى : الخطط ، جزء ٢ ،ص ١٩٣- عاشور : المرجع السابق ، ص ١٤٢

الصليبيين ، فعهد الى ديوان الأسطول بالاشراف والانفاق عليه . وخصص لذلك الديوان موارد هامة منها، متحصلات اقليم الفيوم وحصيلة النطرون وايراد ديوان الزكاة (١) . كما لجأ الى احضار جميع المواد اللازمة لبناء السفن . فعقد معاهدات تجارية مع الجمهوريات الايطالية حصل بمقتضاها على حاجته من الحديد والخشب والشمع . كما نهض بفتح القيروان فهيأ له ذلك الوصول بسرعة الى غابات شمال افريقية ، ووصول كميات من الخشب اللازم لبناء السفن ، وكسب عددا من بحارة شمال افريقية للعمل معه في الاسطول (٢) .

ولم يلبث الأسطول الأيوبي أن اصبح قوة ضاربة يحسب حسابها منذ سنة ٥٧٥هـ قوامها ثمانون قطعة منها ستون من الشواني (٣) وعشرون طرادة (٤) . وقد استخدم نصف هذا الاسطول لحماية شواطئ مصر والدفاع عنها ، ونصفها الاخر في مهاجمة الصليبيين في موانيهم في الشام (٥) وأخذ صلاح الدين يشجع الناس على الخدمة في الأسطول ، فرفع راتب البحارة في سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م نحو ٢٠٪ فأصبح $\frac{٣}{٤}$ الدينار بعد ان كان $\frac{٥}{٨}$ الدينار (٦) .

---

١ - المقريزى : الخطط ، جزء ٢ ص ١٩٤ - عاشور : المرجع السابق ، ص ١٤٢-١٤٣

٢ - ابن جبير : الرحلة ص ٥٨-٦٠ - الباز العريني : المرجع السابق ، ص ١٧٢

٣ - هي المراكب الضخمة المزودة بالأبراج والقلاع التي تحمل الواحدة منها مائة وخمسين رجلا وتصلح في حالات الهجوم والدفاع

٤ - هي سفن سريعة الحركة تحمل الخيل

٥ - ابوشامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ص ٢٢ - المقريزى : السلوك ، جزء ١ ، ص ٧٢ - عاشور : المرجع السابق ص ١٤٣

٦ - المقريزى : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٤٥

وقد بدأ خوف الصليبيين واضحا من نمو البحرية في عهد صلاح الديـن ، وعبر وليم الصوري عن هذه المخاوف بقوله : ان نورالدين يستطيـع أن يوقف نمو مملكتنا بما يرسله من سفن عديدة من مصر• يضاف الى ذلـك انه يستطيع بهذه السفن أن يحول دون قدوم الحجاج الينا •

وأول خدمة أداها الاسطول الأيوبـي لصلاح الدين وهو يجوب البحـر المتوسط بالقرب من قبرص ،اعلام صلاح الدين عن قوة بحرية بيزنطية توجهـت الى فلسطين في سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م ليستعد لمجابهتها • وبذلـــك تحققت اول رسالة لاسطول صلاح الدين (١) •

ثم قام الاسطول بعمليات حربية وتوغل في البحر منذ سنة ٥٧٤هـ / ١١٧٩م الى أطراف بيزنطة والى قبرص وكريت والسواحل الجنوبية لآسيه الصغرى • وهبط الغـزاة مرات عديدة بساحل الشام ، وانزلوا خســائر فادحة بالنشاط التجارى والحربي بهذه الجهات• كما هاجم ميناء عكاالذى كان بيد الصليبيين • ووصف احد المؤرخين هذا الحادث قائلا: (••• ان ما قام به هذا الأسطول من العمل لم يقم به اسطول اسلامي في ســالف الدهر ،لا في حالة قوة الاسلام ولا ضعف كفر) • كما ساعده هذا الاسطول على استعادة جزيرة ارواد من الصليبيين ، ومضايقة مدينة طرطوس منها (٢)

استخدم صلاح الدين اسطوله ايضا في الرد على ارناط صاحب حصـن

---

١ ـ ابوشامة : المصدر السابق ، جز• ١ ص١٨٠ ـ ١٨١ـ البــاز العريني : المرجع السابق ص١٧٠

٢ ـ الباز العريني ، ص ١٧٤

الكرك حين انزل اسطوله في البحر الأحمر قرب ايلة سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م لغزو الحجاز • وشرع في مهاجمة الموانئ المصرية مثل عيذاب • وقد أثبت الأسطول المصرى جدارته ،وقضى على هذا الهجوم • كما اشترك مع القوات البرية في مهاجمة بيروت • وساعد صلاح الدين بعد موقعة حطين في الاستيلاء على بعض الموانئ الهامة في الشام (١) •

لم ينهض خلفاء صلاح الدين بالاهتمام بالاسطول وتنميته مما ترتب عليه ضعف شأنه في عهدهم وعهد المماليك من بعدهم • وقد أوضح لنا المقريزى (٢) ذلك بقوله • (فلما مات السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب استمر الحال في الاسطول قليلا ،ثم قل الاهتمام به ،وصار لا يفكر في أمره الا عند الحاجة اليه • فاذا دعت الضرورة الى تجهيزه طلب له الرجال ،وقبض عليهم من الطرقات ، وقيدوا في السلاسل نهارا وسجنوا في الليل حتى لا يهربوا ، ولا يصرف لهم الا شي• قليل من الخبز ونحوه ، وربما أقاموا الأيام بغير شي• كما يفعل بالأسرى من العدو • فصارت خدمة الاسطول عارا يسب به الرجال • واذا قيل لرجل يا اسطولي غضب غضبا شديدا بعدما كان خدام الاسطول يقال لهم المجاهدون في سبيل الله ، والغزاة في اعداء الله ، ويتبرك الناس بدعائهم) •

وقد أحس سلاطين الأيوبيين الأخيرين وعلى رأسهم الصالح نجم الدين ايوب بأهمية الاسطول بعد ان تعرض للهجمة الصليبية السابعة

---

١ ـ عاشور : المرجع السابق ص ١٤٣

٢ ـ الخطط ، جز• ٢ ، ص ١٩٤

سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م ،فترك لابنه وصية يذكر له فيها ضرورة الاهتمام بالاسطول الذى اعتبره احد جناحي الاسلام ،وذلك بضرورة زيادة مرتبات رجاله ، فيأتون من كل فج عميق (١) .

عانى الجيش في العهد الأيوبي من نقاط ضعف على رأسها فقد ان الوحدة بين عناصره . اذ تكون من جماعات متنافسة عصبيا . فقد اعتبر الأتراك أنفسهم أسيادا، والأكراد عبيد هم انتزعوا منهم الأمارة والسيادة . وقد بدا ذلك واضحا حين زحفت عساكر الموصل ضد صلاح الدين اول مرة سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م . فقد حقروه وسخروا منه قائلين : (هذا كلب يعوى على سيده) . ثم قال له أحد الموصليين من عرفاء الجيش وهو يساعده في ركوب حصانه اثناء الدفاع عن القدس : (ما تبالي يا ابن أيوب أى موتة تموت ،بركبك ملك سلجوقي ، وابن اتابك زنكي) (٢) .

كما تعصبت جماعات الجيش على أساس التبعية لأمير من الأمراء أو لسلطان من السلاطين بشكل خاص . اذ شعر هولاء بأن مكانتهم تنتهى بموت سلطانهم لتحل مكانهم جماعة السلطان الجديد . ولذلك تكتلت كل جماعة دفاعا عن مصالحها . وقد أسهم تعصب هذه الكتل في الاضطرابات التي تلت وفاة صلاح الدين . ومن هذه الفرق المسماة باسماء أسيادها الأسدية والصلاحية والعادلية والكاملية والأشرفية .

---

١ — عاشور : المرجع السابق ،ص ١٤٤ — ١٤٥

٢ — ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١٢ ، ص ٥٠

واضافة الى ذلك فان الأسطول البحرى عانى في عهد صلاح الديـن من قلة البحارة ،على الرغم من استخدامه للمغاربة في اسطوله[1] ٠

---

١ ـ الباز العريني : المرجع السابق ، ص١٨٢

الفهـــــرس

دراسات في تاريـخ العصر الأيوبـي

الفصــــل الأول

الحملـة الصليبيـة الأولـى وتأسيس الإمارات الأربع

الفصـل الثانـي

الزنكيون وتوحيـد مصر والشـام ، وموقفهـم مـن الصليبيـن

الفصل الثالث

الأيوبيون : أصلهم ، علاقاتهم مع الزنكيين

الفصل الرابع

السلطة الأيوبية

الفصل السادس

خلفاء صلاح الدين الأيوبي (٥٨٩-٦٣٥هـ)

النزاع بين أبناء صلاح الدين

توحيد الدولة الأيوبية تحت سلطة العادل

١ - الملك العادل والصليبيون قبل الحملة الخامسة

٢ - العادل والحملة الصليبية الخامسة

٣ - وفاة السلطان العادل وتولي الكامل مهمة الدفاع

سلطنة الكامل بن العادل

١ - الخلاف بين أفراد الأسرة الأيوبية في عهده

٢ - الحملة الصليبية السادسة

٣ - اتفاقية يافا وتسليم بيت المقدس

انحلال الدولة الأيوبية وسقوطها

١ - الخلافات بين أفراد الأسرة الأيوبية في عهد السلطان الكامل

٢ - العادل الثاني والصالح أيوب

أ - استرداد بيت المقدس في عهد الناصر داود ثم في عهد الصالح أيوب

ب - الصالح أيوب والخوارزمية

حـ - الحملة الصليبية السابعة

سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك

الفصــل الســابع

دور الزنكيين والأيوبيين الحضاري

١ ـ الحياة العلمية الفكرية

ـ اسباب بناء المدارس

ـ المؤسسات التعليمية

أ ـ المدارس
ب ـ المساجد
حـ ـ الأربطة والخوانق

ـ التدريس

ـ أعضاء الهيئة التعليمية

أ ـ المدرسون
ب ـ المعيدون
حـ ـ الطلاب

ـ ثقافة العصر العامة

ـ المدارس المحدثة في عهد الدولة الزنكية والأيوبية

٢ ـ الحياة الاقتصادية

ـ الزراعــة

ـ الصناعــة

ـ التجارة

ـ النقود

٣ ـ الحياة الاجتماعيـة

٤ ـ الجيش البرى والبحرى

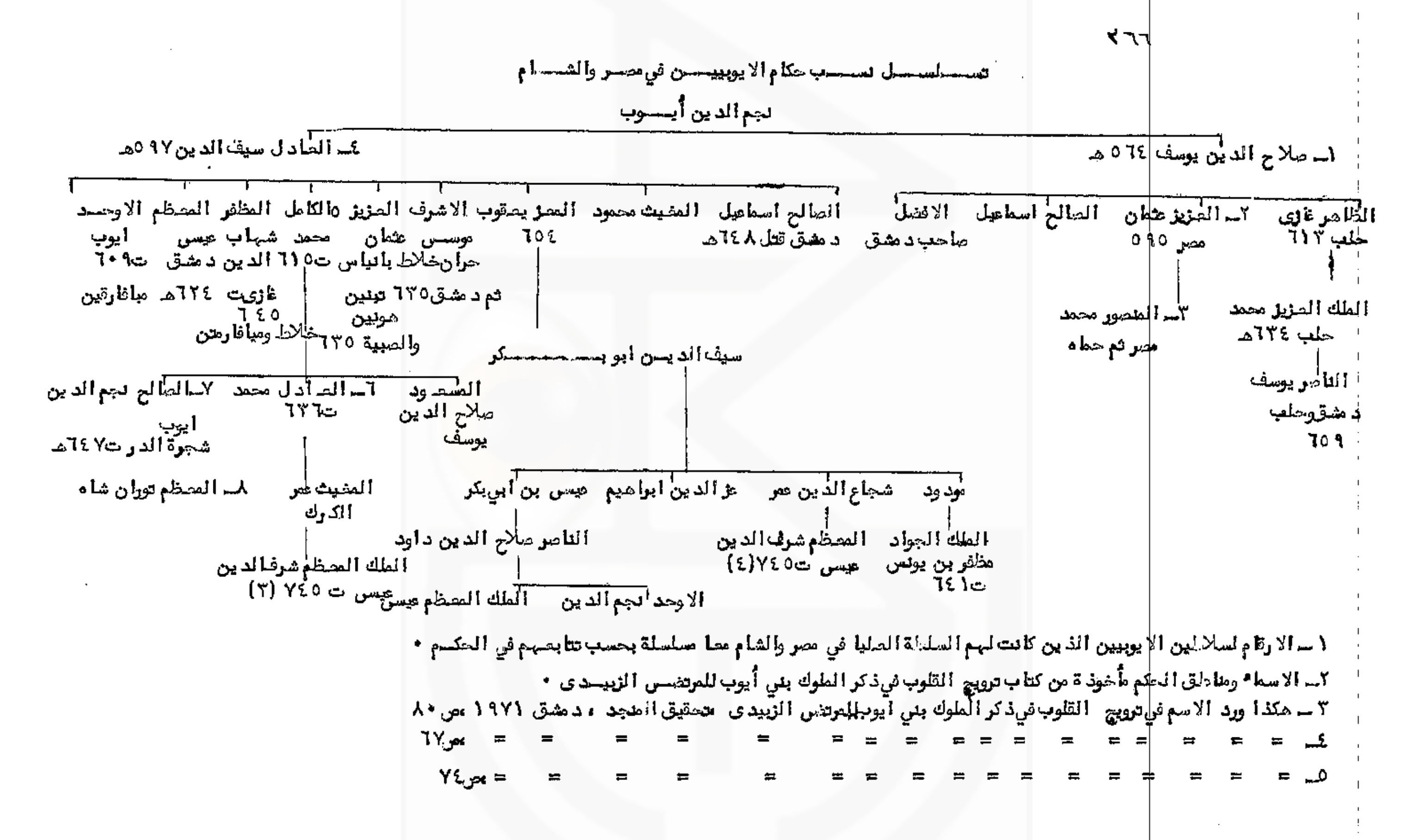
ـ الجيش البرى

أ ـ في عهد الزنكيين

ب ـ في عهد الأيوبيين

ـ الجيش البحرى

اللوحات والخرائـــط



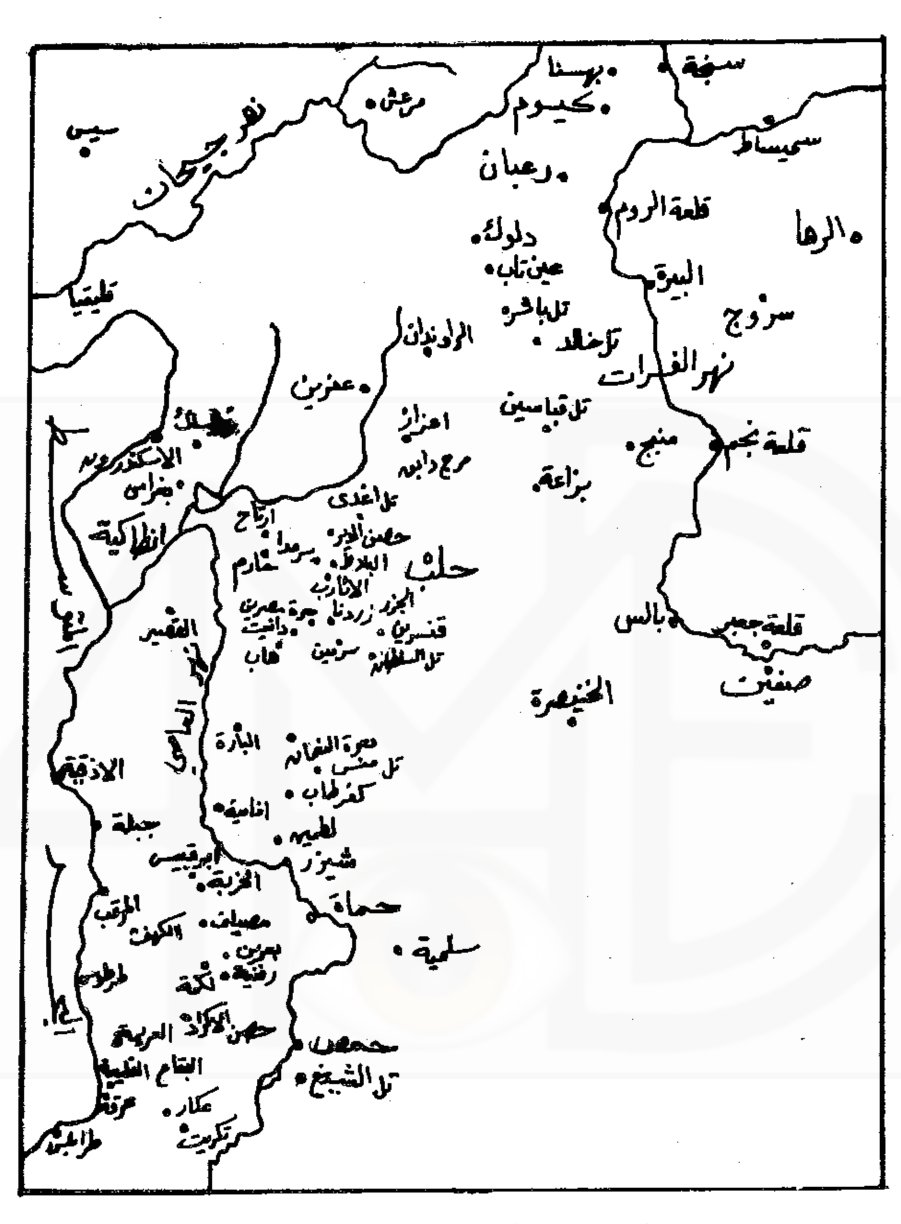
١ ـ الارقام لسلاطين الايوبيين الذين كانت لهم السلطة العليا في مصر والشام معا مسلسلة بحسب تتابعهم في الحكم •

٢ـ الاسماء ومناطق الحكم مأخوذة من كتاب ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب للمرتضى الزبيدي •

٣ ـ هكذا ورد الاسم في ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب للمرتضى الزبيدي تحقيق المنجد ، دمشق ١٩٧١ ص ٨٠

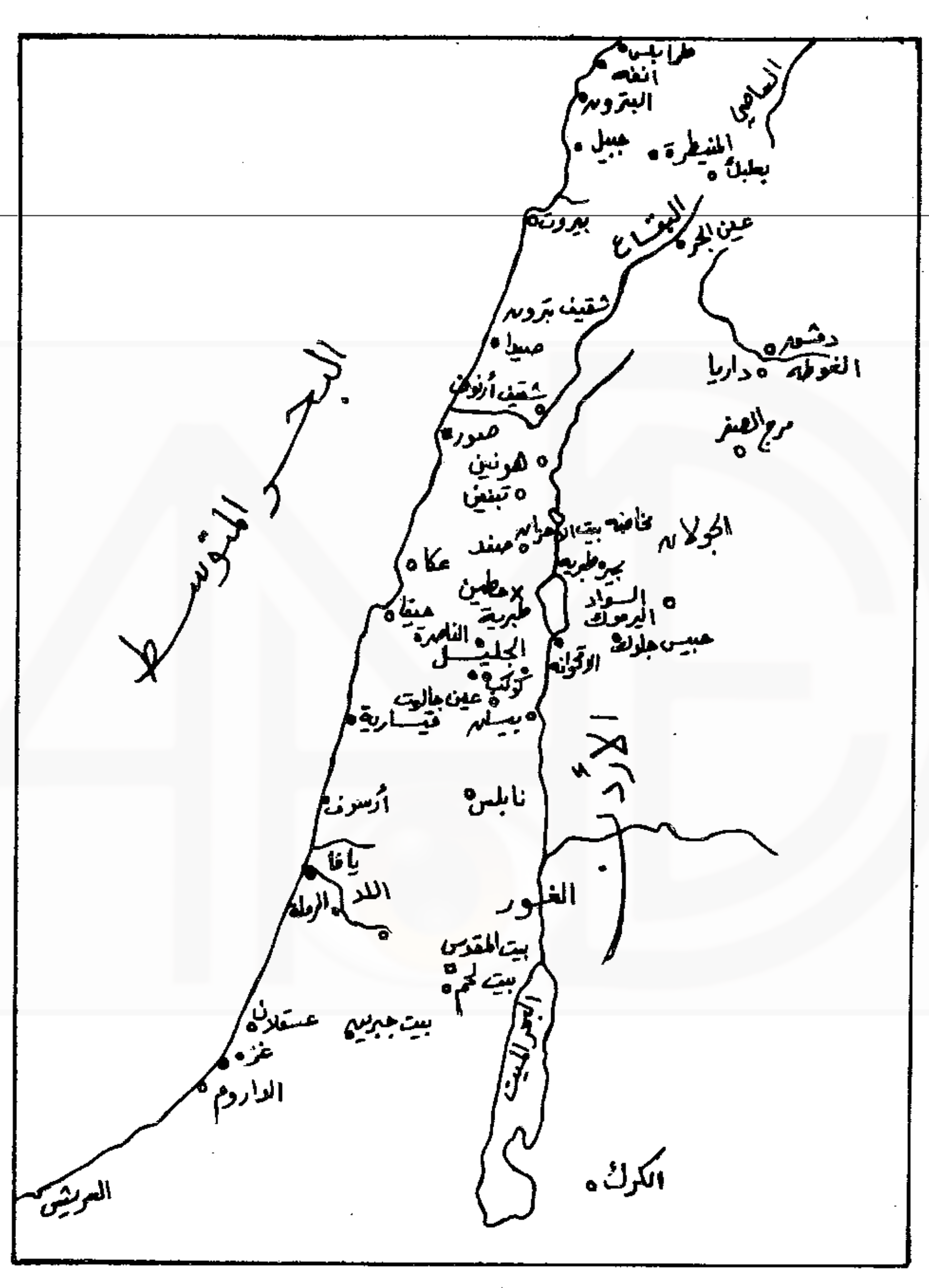
٤ـ = = = = = = = = = = = = = = = = ص ٦٧

٥ـ = = = = = = = = = = = = = = = = ص ٧٤



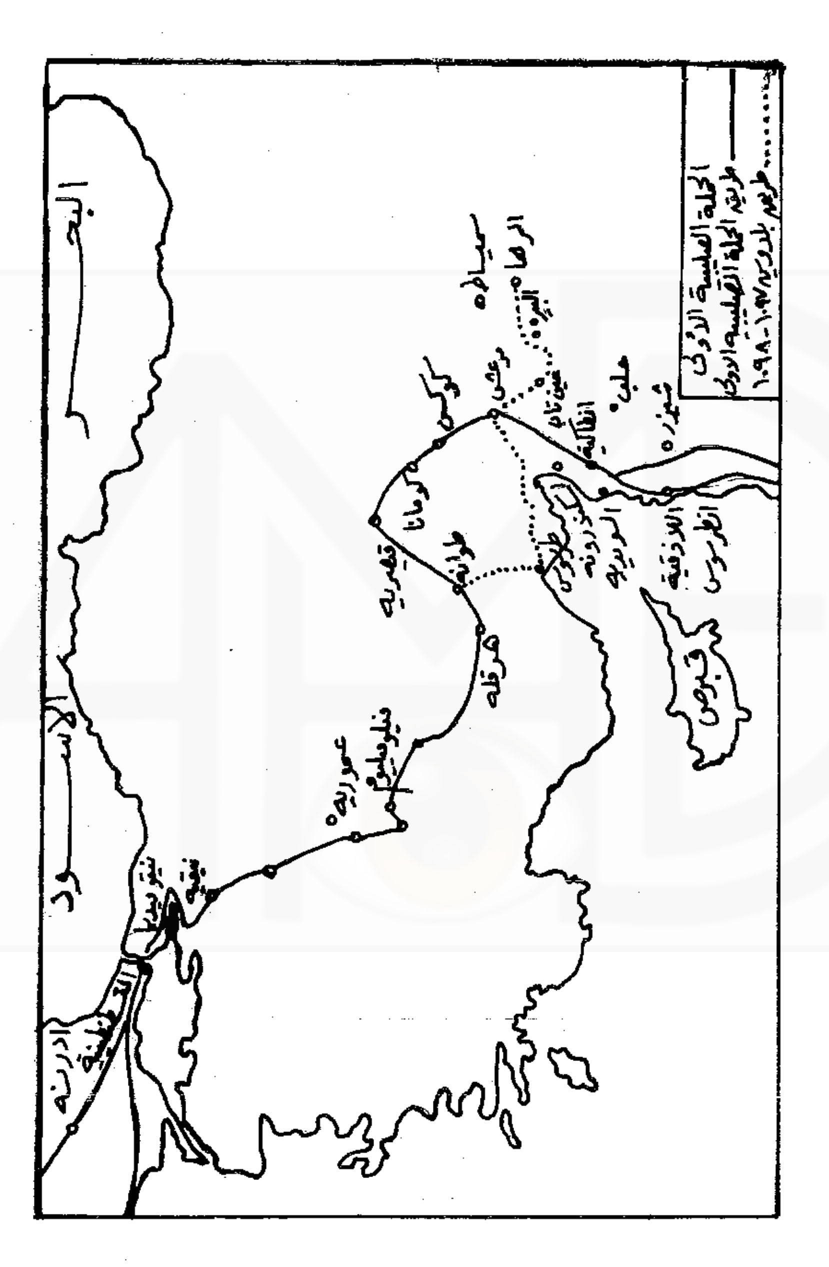
شمال بلاد الشام

خريطة رقم (١)



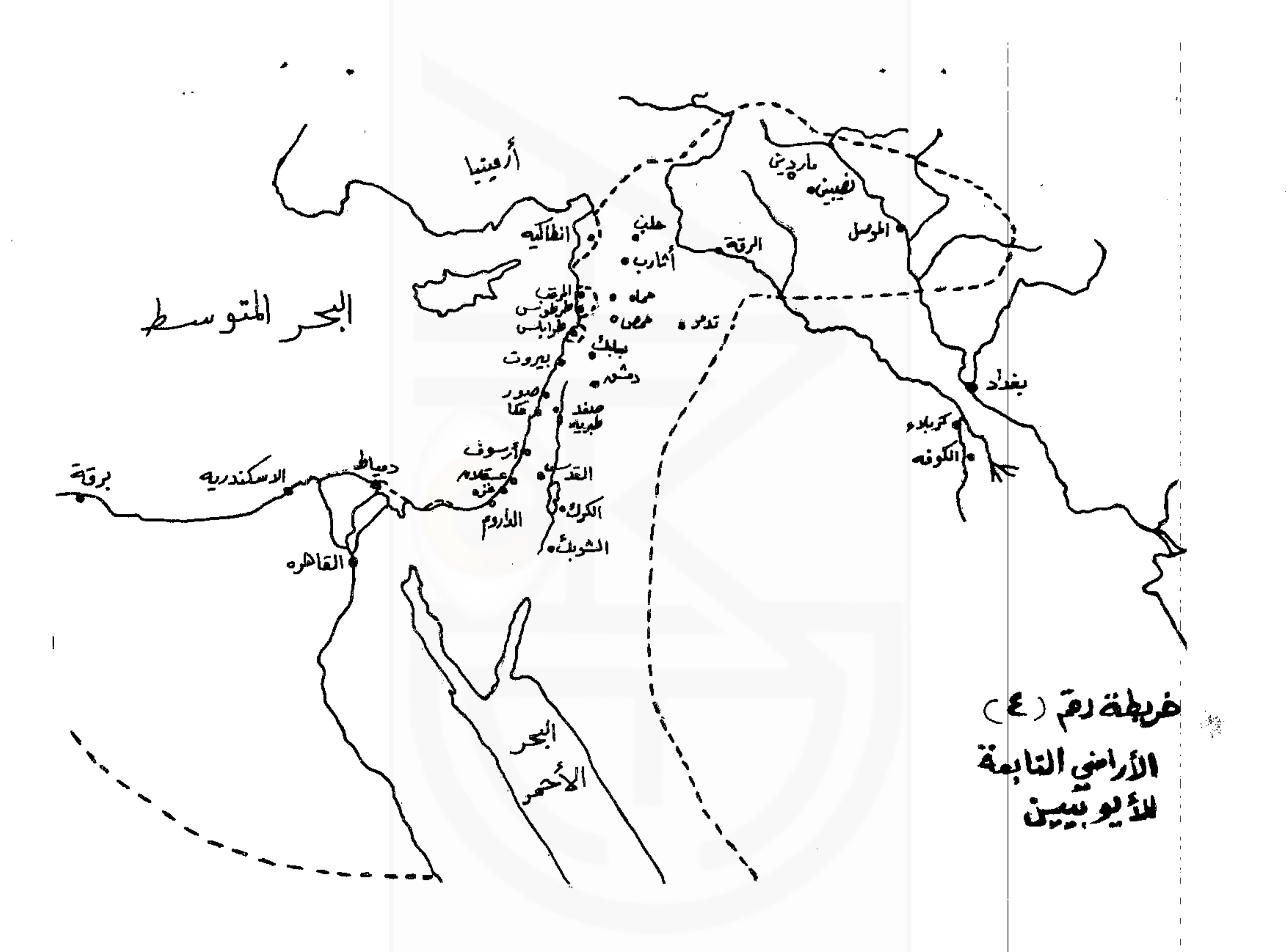
ساحل بلاد الشام الجنوبية

خريطة رقم (٢)



الحملة الصليبية الأولى
طريق الحملة الصليبية الأولى
طريق بلدوين ١٠٩٧-١٠٩٨
البحر الأسود
القسطنطينية
أدرنة
نيقية
عمورية
فيلوميليوم
هرقلة
قيصرية
مرعش
الرها
سيمساط
البيرة
أنطاكية
حلب
شيزر
اللاذقية
طرسوس
قبرص

خريطة رقم (٣)


خريطة رقم (٤)
الأراضي التابعة للأيوبيين
البحر المتوسط
البحر الأحمر
أرمينيا
انطاكية
حلب
أثارب
حماه
حمص
المرقب
طرطوس
طرابلس
بعلبك
بيروت
دمشق
صور
عكا
صفد
طبرية
أرسوف
عسقلان
غزة
القدس
الكرك
الشوبك
الداروم
تدمر
الرقة
ماردين
نصيبين
الموصل
بغداد
كربلاء
الكوفة
دمياط
الاسكندرية
برقة
القاهره



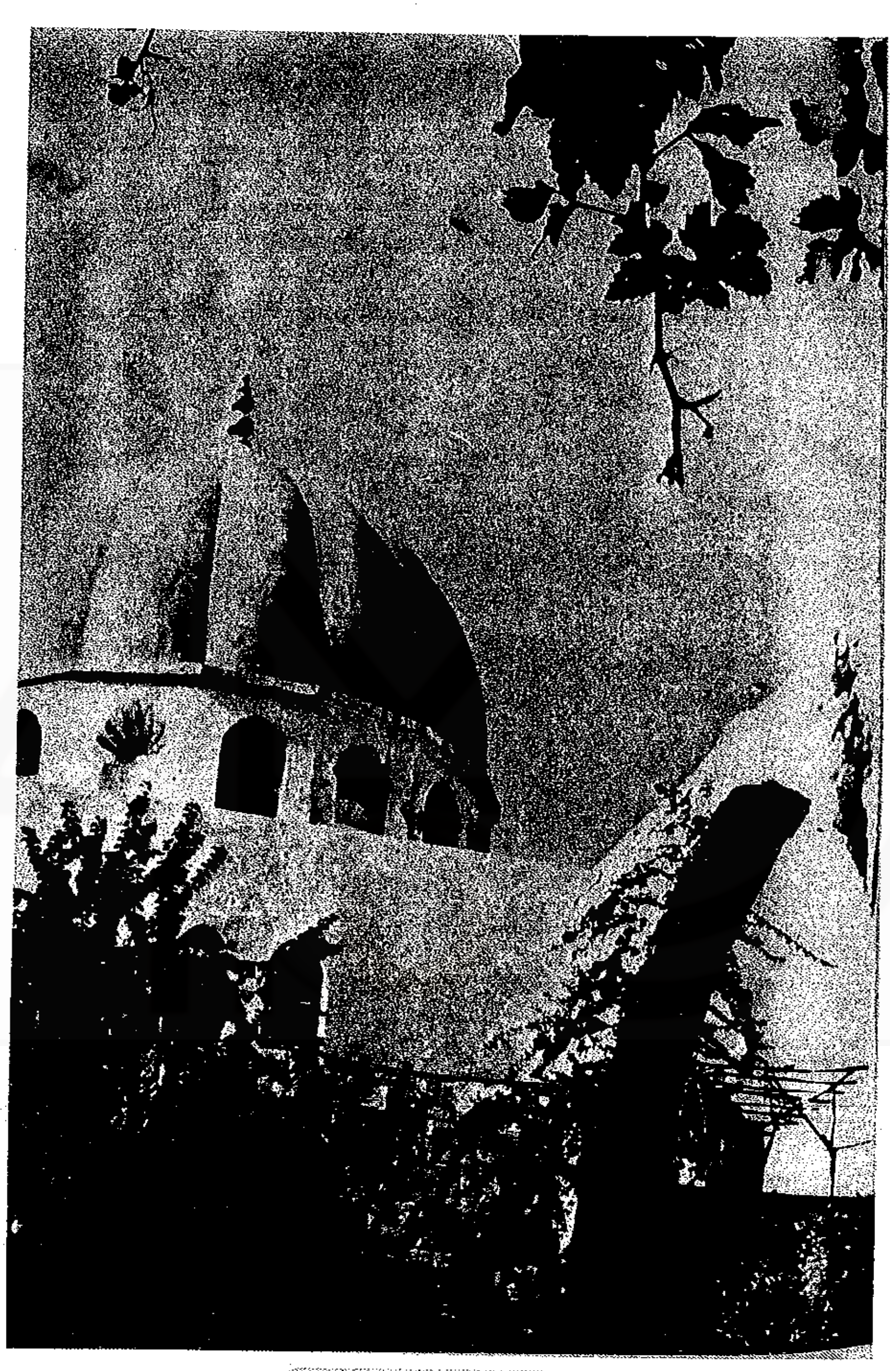
جامع الفردوس ومدرسته - الدهليز

بناء ضيفة خاتون زوج الملك الظاهر غازي



طريق الحملة الصليبية السابقة

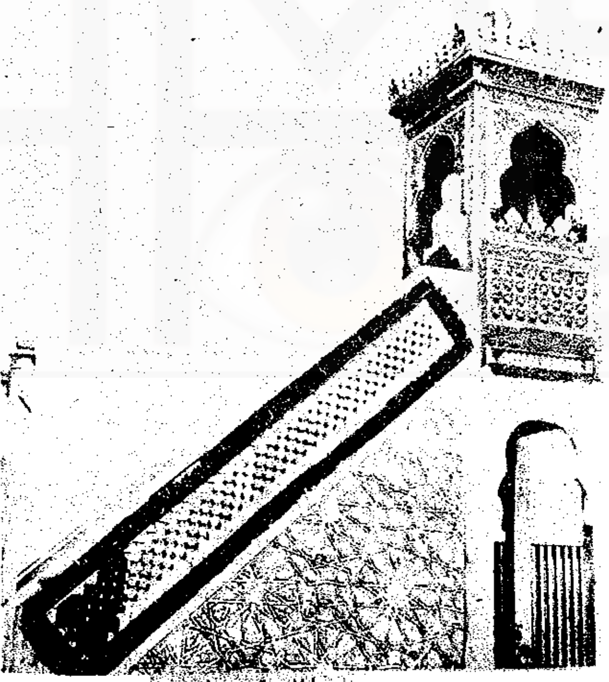
خريطة رقم (٦)



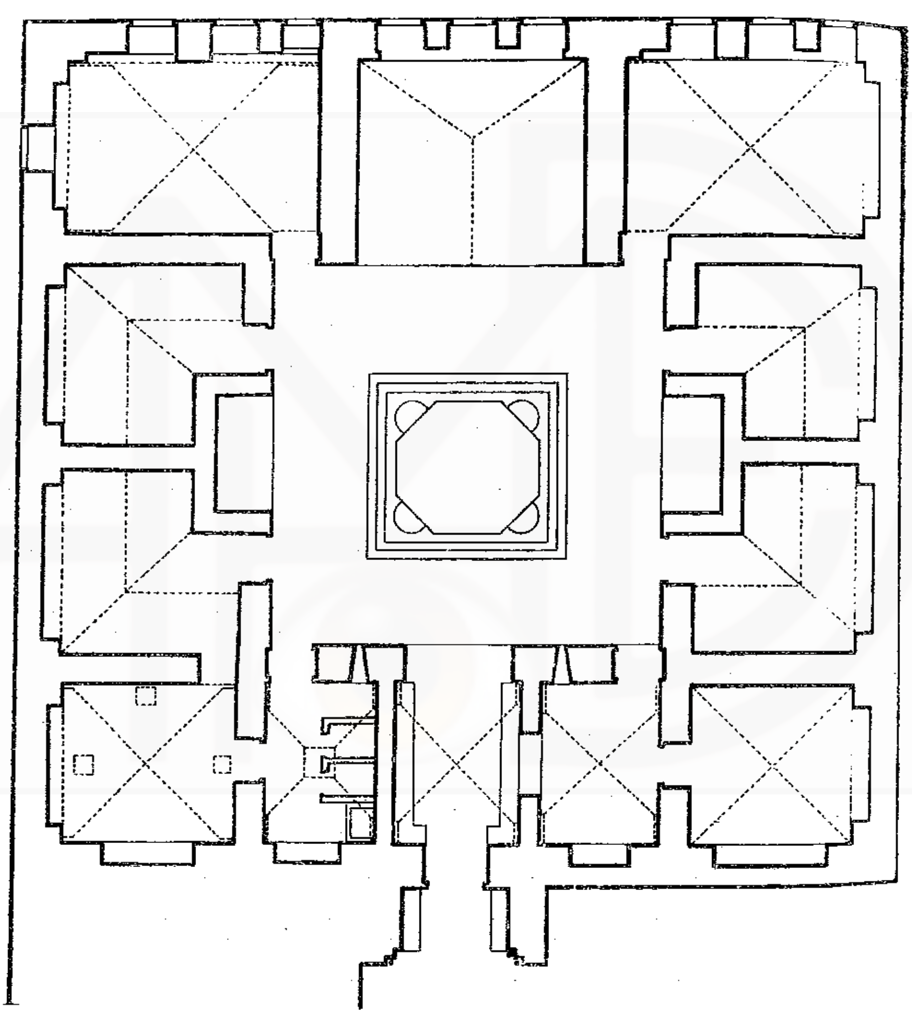
تربة السلطان صلاح الدين في دمشق .



مئذنة الجامع الكبير في حلب .



منبر الجامع النوري في حماة



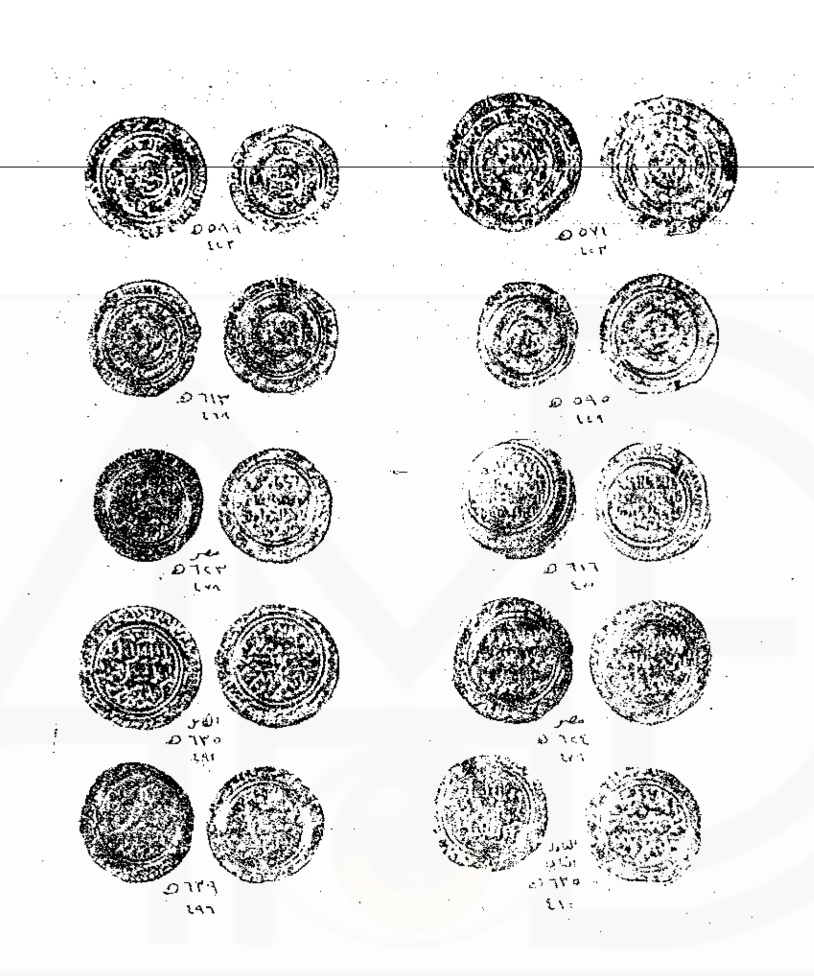
البيمارستان القيمري بدمشق، مسقط أفقي



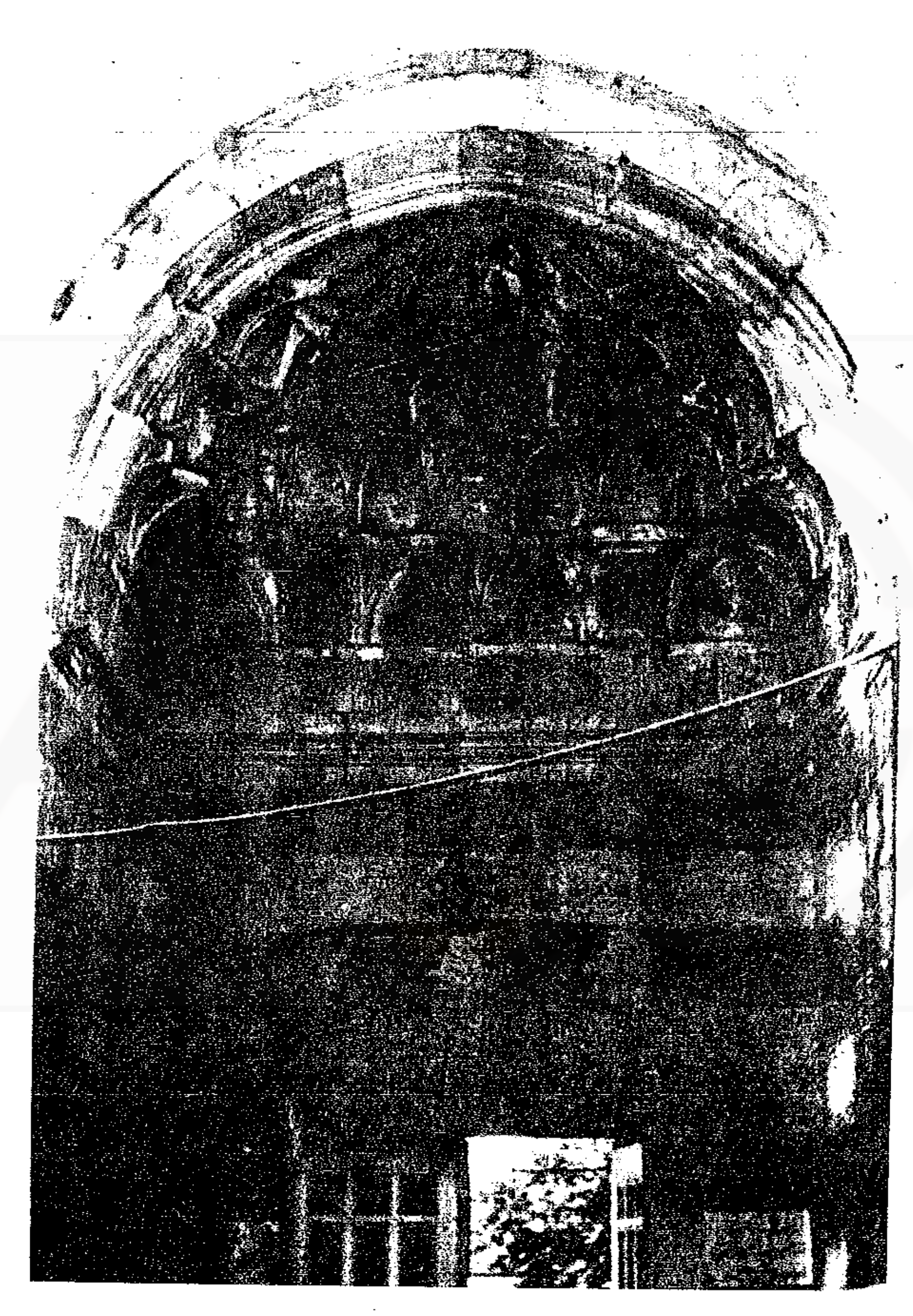
كأس زجاجية مموهة بالمينا تحمل اسم الملك العادل



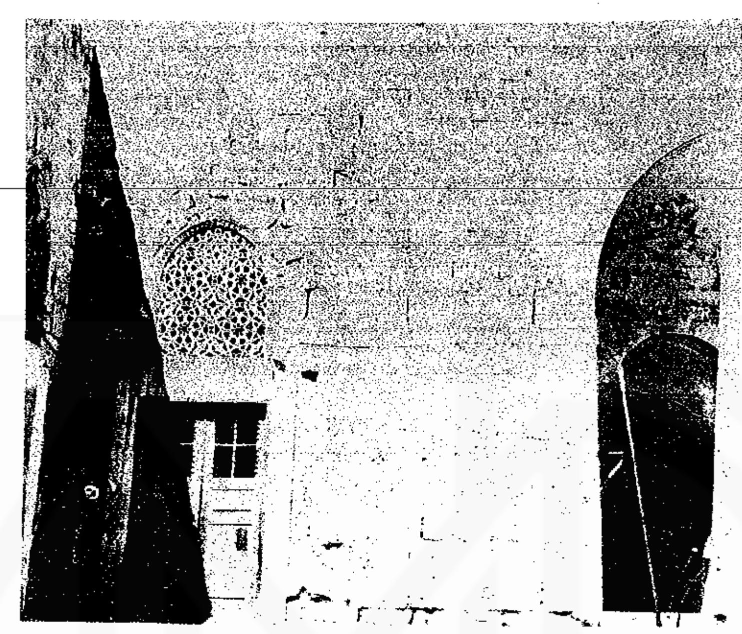
بوابة المدرسة العادلية الكبرى في دمشق .



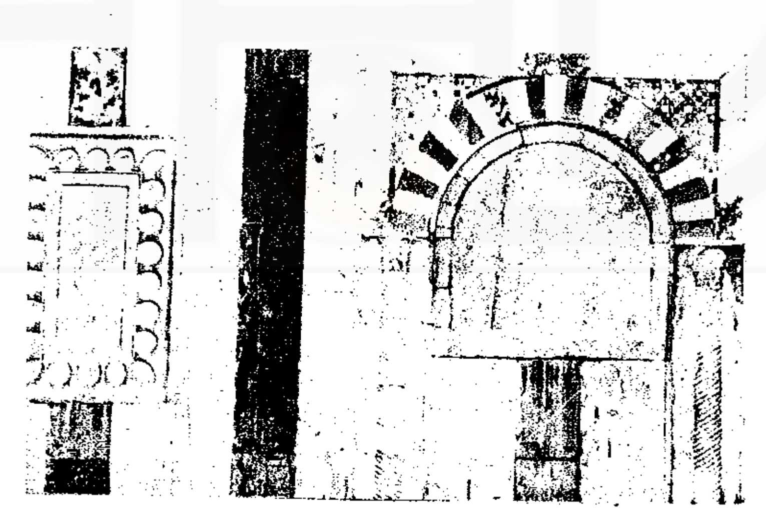
نقود نقود للعصر
الأيوبي



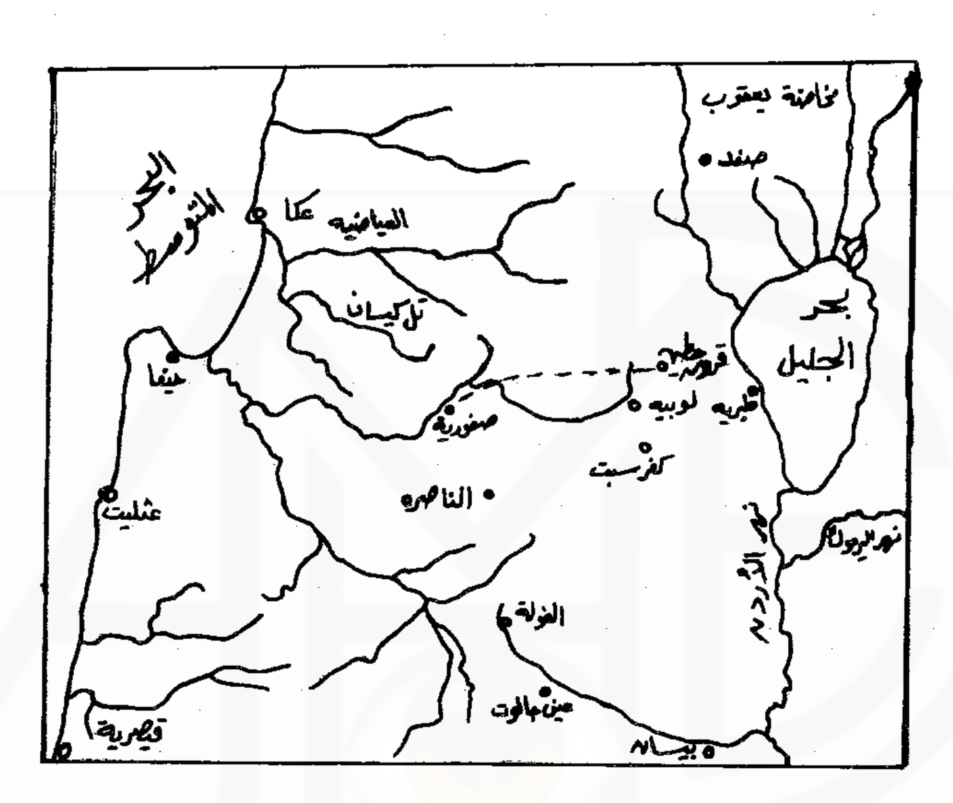
باب البيمارستان القيمري في دمشق .



البيمارستان النوري في دمشق ، مشهد داخلي



البيمارستان النوري في دمشق ، الايوان الجنوبي .



معركة حطين

خريطة رقم (٥)



جزء من سدة خشبية (دمشق القرن الثالث عشر)

المصادر والمراجع

أولا - المصادر العربية

١ . ابن الاثير (ت. ٦٣٠) : الكامل في التاريخ ، طبعة دار صادر بيروت ١٩٦٦

٢ . : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، تحقيق عبد القادر طليمات دار الكتب الحديثة القاهرة ، ومكتبة المثنى في بغداد ١٩٦٣م

٣ . الاصفهاني (العماد الكاتب ٥٩٧ هـ) : الفتح القسي في الفتح القدسي ، تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبيح .

٤ . ابن بطوطة (ت ٧٥٦ هـ) : رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، حققه وقدم له علي المنتصر الكتاني ، جزءان مؤسسة الرسالة ١٩٧٥م

٥ . ابن بعرة : كشف الاسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، تحقيق عبد الرحمن فهمي القاهرة ١٩٦٦م .

٦ . البغدادي (ت : الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، طبع حجر بالقاهرة .

٧ . عبد القادر بدران : تهذيب تاريخ ابن عساكر ، دمشق ١٣٣١هـ

٨ . ابن تغرى بردى (الاتابكي ت ٨٧٤هـ) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية .

٩ . ابن جبير (ت ٦١٤ هـ) : رحلة ابن جبير ، دار التحرير للطباعة والنشر ١٩٦٨ .

١٠ . ابن جماعة : تذكرة السامع .

١١ . ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، الطبعة الاولى طبعة حيدر أباد ١٣٥٨ هـ .

١٢ . الحموي (ياقوت هـ)	: معجم البلدان ، دار صادر بيروت .
١٣ .	: معجم الادباء ،دار احياء التراث العربي ، بيروت .
١٤ . الحنبلي (احمد بن ابراهيم (ت هـ)	: شفاء القلوب في مناقب بني ايوب تحقيق ناظم رشيد وزارة الثقافة والفنون في العراق ١٩٧٨م .
١٥ . الحنبلي (مجير الدين (ت٩٢٧او ٩٢٨هـ)	: الانس الجليل بتاريخ القدس والجليل ، جزءان ، منشورات المطبعة الحيدرية ، النجف ١٣٩٩هـ .
١٦ . ابن خلدون (ت٨٠٨هـ)	: العبر وديوان المبتدأ والخبر ، طبعة الاعلمي بيروت ١٩٧١م .
١٧ . ابن خلكان (ت ٦٨١هـ)	: وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق احسان عباس دار صادر بيروت ١٩٧٨م
١٨ . الدواداري (ت في القرن الثامن بعد سنة٧٣٦هـ)	: الدرة المضيئة في اخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق المنجد ، طبعة القاهرة١٩٦١م .
١٩ . الزرنوجي	: تعليم المتعلم ، طبعة ١٨٩٧م
٢٠ . الراوندي (ت	: راحة الصدور وآية السرور ، نشر وتصحيح محمد اقبال ، ليدن ١٩٢١م .
٢١ . السبكي ( )	: طبقات الشافعية الكبرى ، القاهرة ١٣٢٤هـ
٢٢ .	: معيد النعم ومبيد النقم ، ليدن ١٩٠٨م
٢٣ . أبو شامة (شهاب الدين ت ٦٦٥هـ)	: تاريخ الروضتين في اخبار الدولتين ، دار الجيل بيروت .
٢٤ .	: الذيل على الروضتين ، دار الجيل بيروت
٢٥ . ابن شداد (بهاء الدين ت ٦٣٢هـ)	: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، أو سيرة صلاح الدين ، تحقيق الشبال ، طبعة ١٩٦٤ ، الدار المصرية للتأليف والنشر

٢٦ . ابن شداد (عز الدين ت٦٨٤هـ) : الاغلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، وزارة الثقافة ١٩٧٨م
تحقيق عبارة .

٢٧ . الشيزرى (ت) : نهاية المرتبة في طلب الحسبة ،نشر العريني ، القاهرة ١٩٤٦م

٢٨ . ابن قاضي شهبة (ت٨٥١هـ) : الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق محمود زايد ، طبعة دار الكتاب بيروت ١٩٧١م .

٢٩ . ابن الشحنة أبو الفضل محب الدين محمد بن محمد (ت٨٩٠) : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، بيروت ١٩٠٩م .

٣٠ . ابن العبرى (ت ٦٨٥هـ) : تاريخ مختصر الدول ، طبعة الاباء اليسوعيين بيروت ١٨٩٠م .

٣١ . ابن العديم (ت ٦٦٠هـ) : زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان ، طبعة المعهد الفرنسي ـ دمشق ١٩٥٤م .

٣٢ . ابن عساكر (ت ٥٧١هـ) : التاريخ الكبير ، أو تاريخ مدينة دمشق ، تهذيب ابن بدران .

٣٣ . العلموى (عبد الباسط) : مختصر تنبيه الطالب ، وارشاد الدارس تحقيق صلاح الدين المنجد ، ١٩٤٧م

٣٤ . أبو الفداء (ت ٧٣٢هـ) : المختصر في أخبار البشر ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت.

٣٥ . ابن القلانسي (ت ٥٥٥) : تاريخ ابن القلانسي ، المسمى ذيل تاريخ دمشق ـ مصحوب بشذرات من تواريخ ابن الفارقي ،وسبط بن الجوزى والذهبي ، طبعة بيروت ، مطبعة الاباء اليسوعيين ١٩٠٨م .

٣٦. القلقشندي (ت ٨٢١هـ)	: صبح الاعشى في صناعة الانشاء، ١٤ جزءا ، المطبعة الاميرية القاهرة ١٩٤٦م.
٣٧. ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)	: البداية والنهاية في التاريخ ، مكتبة المعارف ، بيروت طبعة ثانية ١٩٧٧م
٣٨. مؤلف مجهول	: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة وتقديم حسن حبشي ، دار الفكر العربي ١٩٥٨م.
٣٩. المقريزي (ت ٨٤٥هـ)	: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار دار التحرير للطبع والنشر .
٤٠	: اغاثة الامة بكشف الغمة ، نشر الشيال وزيادة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧م.
٤١.	: اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا ، طبعة المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٧م.
٤٢.	: السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر زيادة ، القاهرة ١٩٤٣م
٤٣.	: البيان والاعراب ، طبعة المحمودية التجارية ، القاهرة ١٣٥٦هـ .
٤٤. ابن مماتي	: قوانين الدواوين ، القاهرة سنة ١٩٤٣م
٤٥. ابن منقذ	: كتاب الاعتبار ، تحرير فيليب حتى ، مطبعة جامعة برنستون ، الولايات المتحدة ١٩٣٠م.
٤٦. النعيمي	: الدارس في تاريخ المدارس ، طبعة المجمع العلمي بدمشق .

٤٧. ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٣م ، وطبعة المطبعة الأميرية ١٩٥٧م.

٤٨. اليمني (عمارة) : النكت العصرية.

٢- المراجـــــع

أ- المراجع العربيـــــة

١. باركر (آرنست) : الحروب الصليبية : ترجمة الباز العريني ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة .

٢. بدر (أحمد) : الأندلسيون والمغاربة في دمشق ، مجلة ابـــن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادتـــه طبعة وزارة التعليم ، دمشق ١٩٧٩م.

٣. البراوى (راشد) : حالة مصر الاقتصادية زمن الفاطميين ،طبعة اولى القاهرة ١٩٤٨م وزارة التعليم العالي دمشـــق ١٩٧٩م.

٤. بروكلمـــان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، الامبراطورية الاسلامية وانحلالها ، ٥ أجزاء تعريب بنيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، الطبعة الثالثة بيروت ١٩٦١م.

٥. بيطـــار (أمينة) : موقف أمراء العرب في الشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس الهجرى دار دمشـــق ١٩٨٠ .

٦. : التعليم في دمشق في القرن السادس الهجرى ، مجلة ابن عساكر وزارة التعليم العالي ١٩٧٩.

٧. جب (هاملتون) : مآثر صلاح الدين ،دراسات في حضارة الاسلام دار العلم للملايين ،بيروت ١٩٧٤.

٨. : جيوش صلاح الدين ،دراسات في حضارة الاسلام دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٤.

٩. الجرماني (بيتشوف) : تحف الأبناء في تاريخ حلب الشهباء ،طبعـــة بيروت ١٨٨٠.

١٠. حســان (نظير) : التاريخ الحربي المصرى في عهد صلاح الديـــن القاهـرة ١٩٥٨.

١١. حسن ابراهيم حســن : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريـــة وبلاد العرب ،طبعة ثالثة ١٩٦٤م مكتبة النهضـة المصرية .

١٢ . ———— : تاريخ الاسلام السياسي ،الطبعة السابعة القاهرة ١٩٦٥ م .

١٣ . حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ،دار الفكر العربي ،طبعة ثانية ١٩٥٨م .

١٤ . حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ، القاهرة دار النهضة العربية ١٩٦٣م .

١٥ . حسنين (عبد النعيم) : سلاجقة ايران والعراق ،مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩م .

١٦ . حسنين (محمد ربيع) : النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ،القاهرة ٩٦٤م .

١٧ . خليل (عماد الدين) : عماد الدين زنكي : الدار العلمية بيروت ١٩٧١م .

١٨ . دراج (أحمد) : الوثائق العربية المحفوظة في دور الأرشيف الأوربية أبحاث (مصر الاسلامية) الندوة الدولية لتاريخ القاهرة .

١٩ . ديل (شارل) : البندقية جمهورية ارستقراطية تعريب أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر ، القاهرة ١٩٤٨م .

٢٠ . زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ،ترجمة زكي محمد حسن ، وحسن أحمد محمود جزءان ، مطبعة فؤاد الأول ١٩٥٢م .

٢١ . زكي (نعيم) : طرق التجارة .

٢٢ . زكار (سهيل) : مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ،الرسالة طبعة ١ ، ١٩٧٢م .

٢٣ . زيتون (عادل) : العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ،طبعة دمشق ١٩٨٠ .

٢٤ . رستم (أسد) : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، دار المكشوف بيروت ١٩٥٦م .

٢٥ . رنسيمان (ستيفن) : تاريخ الحروب الصليبية نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت ١٩٦٧م .

٢٦ ٠رينان (أرنست) : الحروب الصليبية ، ترجمة الباز العريني ، مكتبة النهضة المصرية .

٢٧ ٠سرور (محمد جمال الدين): النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ، دار الفكر العربي مصر ١٩٦٤ (الطبعةالرابعة .

٢٨٠ : تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق من عهد نفوذ الاتراك الى منتصف القرن الخامس الهجرى الطبعة الثانية ١٩٦٧م ، دار الفكر العربي ، مصر .

٢٩٠ : سياسة الفاطميين الخارجية ، طبعة دار الفكر العربي ١٩٦٧ م٠

٣٠٠ : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، طبعة ثانية القاهرة ١٩٥٩م٠

٣١ ٠سعد (سامي سلطان) : اسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى والجمهوريات الايطالية ،رسالة ماجيستير ، القاهرة ١٩٥٨ ٠

٣٢ ٠شلبي (أحمد) : تاريخ التربية الاسلامية ، مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثالثة ١٩٦٦ .

٣٣ ٠الشيال (جمال الدين) : تاريخ مصر الاسلامية في العصرين الايوبي والمملوكي الجزء الثاني ، دارالمعارف ١٩٦٧ .

٣٤ ٠صبرة (عفاف) : علاقة البندقية بمصر والشام من بداية القرن الثاني عشر ، حتى نهاية القرن الرابع عشر ،رسالة لم تنشر ١٩٧٧ ٠

٣٥ ٠الطباخ (محمد راغب) : أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ٧ أجزاء ، المطبعة العلمية في مدينة حلب ، الطبعة الأولى ١٩٤٢م٠

٣٦ ٠عاشور (سعيد عبد الفتاح) : أضواء جديدة على ابن عساكر والمجتمع الدمشقي في عصر ابن عساكر .

٣٧. : أوربا في العصور الوسطى ، التاريخ السياسي ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٥م ، الطبعة السادسة .

٣٨. : الحركة الصليبية ، مكتبة الانجلو المصرية ، طبعة ثانية ، ١٩٧١ م .

٣٩. : مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، طبعة دار النهضة ، بيروت ١٩٧٢ م .

٤٠. : قبرص والحرب الصليبية ، ط ١٩٦٠ .

٤١. عبد الغني محمود عبد العاطي : التعليم في مصر زمن الايوبيين والمماليك ، رسالة ماجيستير ، القاهرة .

٤٢. العريني (الباز) : مصر في عصر الايوبيين ، مطبعة الليلاني الصغير ، ١٩٦٠م .

٤٣. محمد أبو الفرج العش : القاهرة على النقود العربية الاسلامية ، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة .

٤٤. علام (نعمت اسماعيل) : فنون الشرق الاوسط في العصور الاسلامية ، دار المعارف .

٤٥. كامل الغزى : نهر الذهب في تاريخ حلب ، ٣ أجزاء ، طبعة المطبعة المارونية .

٤٦. القاسمي (ظافر) : المرأة في تاريخ ابن عساكر ، مجلة ابن عساكر .

٤٧. القوصي (عطية) : تجارة مصر عبر البحر الأحمر ، منذ فجر الاسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ، رسالة لم تطبع .

٤٨. كاهن (كلود) : تجار القاهرة الأجانب في عهد الفاطميين والأيوبيين الندوة الدولية لتاريخ القاهرة .

٤٩. كحالة (عمر رضا) : دراسات اجتماعية في العصور الاسلامية ، المطبعة التعاونية دمشق ١٩٧٣ م .

٥٠ . كرد علي (محمد) : خطط الشام ، دار العلم للملايين ، بيروت .

٥١ . مرزوق (محمد عبد العزيز) : الزخرفة المنسوجة في الأقمشة الفاطمية ، القاهرة ١٩٤٢م .

٥٢ . ميتنر (آدم) : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ، الطبعة الثالثة ١٩٥٧م .

٥٣ . محمد حمدى المناوى : الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي .

٥٤ . النقاش (زكي) : العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٥٨م .

ب - المراجع الأجنبية

REFERENCES

1. Baldwin: Crusades. Philadelphia,1955

2. Cahen(C): La Syrie du Nord à L'Epoque des Croisades., Paris 1940

3. Encyclopedia of Islam.

4. Heyd: History du Commerce du Levant au Moyen Ages.,Lepzing 1923.

5. King (E.J) : The Knights Hospitallers in The Holy land.,London,1931

6. Lane Poole(S): Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusale.Beirut,1964

7. The History of Egypt in the Middle Ages. London,1901.

8. Cataloque of the Collection of Arabic Coins preserved in th Khedivial Library at Cairo., London, 1897.

9. Muir(W): The Caliphate : Its Rise Decline and Fall., Beirut Khayats,1963

10. Stevenson (W.B): The Crusaders in the East East (Combridge 1907)

11. Wiet(G): L'Egypte Arabe.,Paris 1937.

الدكتورة أمينة بيطار

تاريخ [illegible]

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م



١٦٢٠

صدر باشراف لجنة الانجاز

سعر المبيع للطالب (٢٥) ل.س